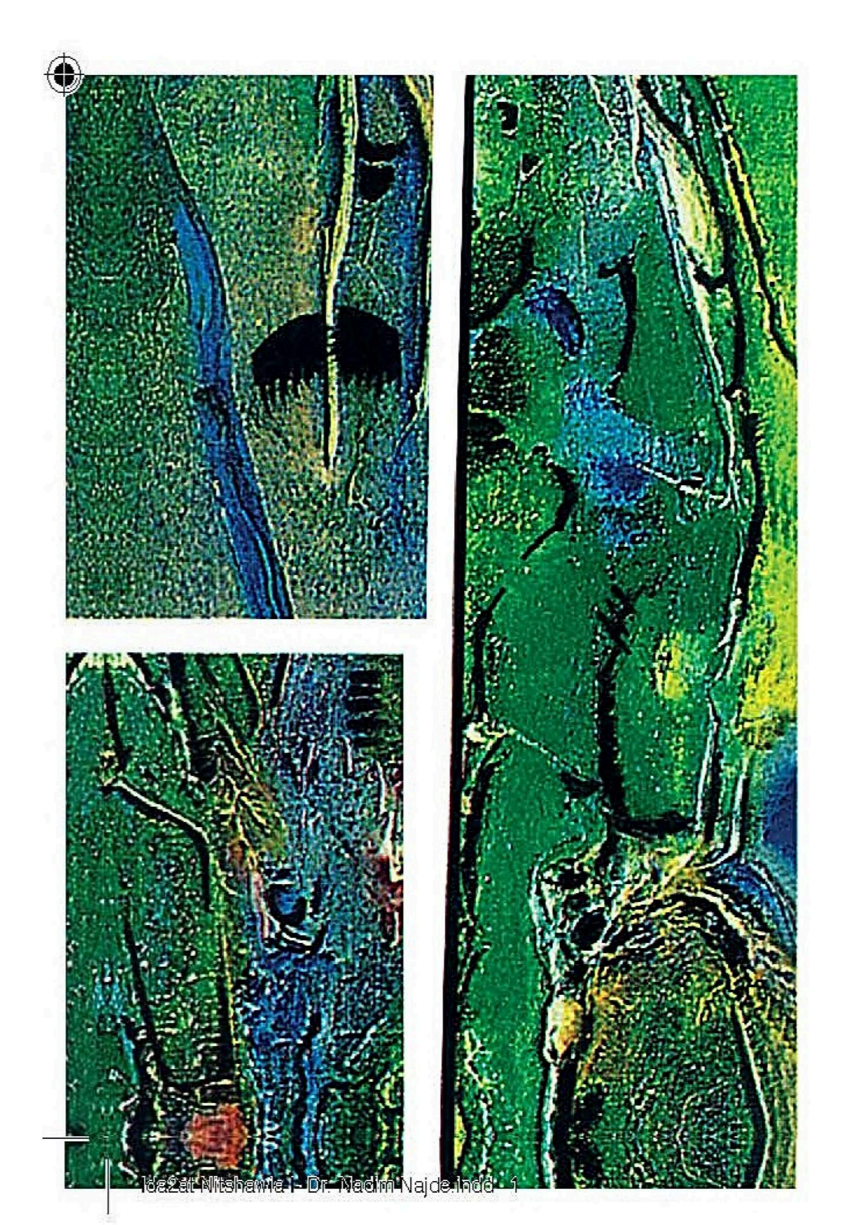
نديم نجدي

إضاءات نيتشوية

ما قبل الكلام... وما بعده







إضاءات نيتشوية

ما قبل الكلام... وما بعده...

نديم نجدي

إضاءات نيتشوية

ما قبل الكلام... وما بعده

I

دار الفارابي



الكتاب: إضاءات نيتشوية ـ I

المؤلف: نديم نجدي

الغلاف: فارس غصوب

الناشر: دار الفارابي ـ بيروت - لبنان

ت: 301461(01) - فاكس: 307775(01)

ص.ب: 11/3181 - الرمز البريدي: 2130 1107

www.dar-alfarabi.com

e-mail: info@dar-alfarabi.com

الطبعة الأولى: 2002

الطبعة الثانية: كانون الثاني 2013

ISBN: 978-9953-71-869-9

الإهداء

لا أُريد أن أعرف لماذا أحببت...،

كي أبقى.

إلى دانية

مقدمة الطبعة الثانية

خلافاً لفحوى شذرات الكتاب، لم أغير ما جاء فيه مِنْ آراء واستنتاجات، عبّرت مِنْ خلالها عن صدمتي بحقائق وبداهات، ليست هي كذلك، إذا ما نظرنا إليها مِنْ زاوية نيتشه الساخط والساخر من قطعان الجماهير السائرة وراء كراز عقائدي، يجرّها بهدى غرائزها إلى حيث الطاعة العمياء لمشيئته. حتى إنني لم أشأ تعديل، أو بالأحرى تصويب بعض الاستنتاجات التي خلصت إليها، منذ ما يقارب العشر سنوات، يوم كنت متحمساً للثورة على واقعنا المزري؛ قبل أن يدبّ فيّ الوهن، على شاكلة مَنْ تمرحلت أطوار حياته، غير إخفاقات وخيبات وسقطات، منها تولد الحكمة، وبها يتصالح الإنسان مع نقصانه، في حياة أقصر من أن تملأ بشغف الحب وغبطة المعرفة. علماً أنّ ثمة وقائع لم تبق على ما كانت عليه، بحكم التحوّل الحاصل في نظرة القارئ إلى واقعة الهجوم الانتحاري على برجي مركز التجاري في 11 أيلول، مثلاً، ومن موقفه من تكنولوجيا الاتصالات والمعلوماتية التي تسارعت وتيرة تطورها في الآونة الاخيرة، إلى حدّ أنها باتت أمراً واقعاً، لا يقبل نقاش ما قبلها، مثلما لا يسمح بالافتراضات الآيلة إلى النظر في الثورة التكنولوجية مِنْ باب الرفض لما صار من ضرورات الحياة العصرية.

ولأن المفاعيل الناجمة عن هذا التحوّل الهائل في عصر اتسم بطفرة علمية وتكنولوجية، لها تأثيرات دامغة في المستوى المعرفي والقيمي والأخلاقي سعيت إلى التمثل بعقل نيتشه، قدر إمكاناتي، لقراءة ظواهر ومستجدات، تكاد مِنْ فرط الإيمان بها أنْ تؤله على نحو ما تألّه في عصور سابقة، آلهة ميتافيزيقيون، تمّ اليوم الاستعاضة عن جانب من وظيفتهم لصالح وظيفة آلة الكومبيوتر والانترنت، وكل ما أدّى إلى استلاب البشر بميتافيزيقيا جديدة، اسمها التكنولوجيا. لهذا ربما أصرّ بعض الفلاسفة على القول بأن الميتافيزيقيا شرّ، لا بدّ منه، فإذا كانت كذلك فلنجعلها من النوع الذي لا يحبط الهمم، بل يحفّز على ما دعا إليه نيتشه في بناء عالم يليق بإنسانه الأعلى.

والجدير ذكره أن التبدّل شأن جدلي، لا يقتصر على ذات القارئ، فالكاتب هو أيضاً عرضة لمتغيرات، وذلك نتيجة تأثّره بمكتسبات معرفة، لن تقف عند حدّ قول، ما إن تلفّظ به، حتى صار غيره... بعده وكل ما جعله «يتماسف» (مِنْ مسافة) مع منطوق، ينطق به لحظة كان يعيش ظروفاً وعوامل، معارف وخبرات، تبدّلت، فتبدّل معها الرأي في هذا الموضوع، والموقف من تلك المسألة. إلّا أن هذا لا يعني أبداً التنكّر لما كتبته، ولن أتخلّى عَنْ التيمة الجامعة في شذرات لفظتها بروح شخص بقي هو هو نفسه ساخط مع شيء من الرويّة، وساخر مع «رشّة» مهادنة وقليل من الدبلوماسية؛ رغم علمي بأن هذا شيء غير محبّب، ولن يلقى ترحيباً مِنْ قبل المتحمسين إلى النقد القاسي

والسخرية اللاذعة وكل ما مِنْ شأنه، تسلية القارئ بلعبة الوخز واللطم والركل وشدّ الأذنين، وكل ما يحاكي رغبتنا إلى الانتقام من آباء زرعوا في رؤوسنا قيم عالمهم ومبادئه الذي لا يتناسب مع قيم عالمنا اليوم.

أكثر ما لفتني، عند القارء، استقباله الجزء الثاني مِنْ الشذرات الجديدة التي وضعتها في كتاب تحت عنوان «خفايا ساطعة... بين ما نريده... وما لاإرادة لنا فيه»، بحفاوة باردة، لما يثير أصلاً اسم نيتشه مِنْ استفزاز، أثار شهية بعضاً ممن التبس عليه مضمون الجزء الثاني مع أنه تتمّة لما جاء في الجزء الأوّل، مع فارق، نردّه بدورنا إلى ما يفرضه السياق الزمني مِنْ تحولات في ذات الكاتب كما في الموضوعات نفسها. ومن المفيد الإشارة إلى سبب آخر، نعزوه إلى التقدّم في العمر، فلا تؤاخذني إذا ما بردت حماوة الدم في جسد شخص، لا يرغب المهادنة، لكنه خلص إلى أن الحياة كلها بحلوها ومرّها ليست إلّا تسويات متتالية. كتبتها في الجزء الثالث مِنْ: «إضاءات نيتشوية».

نديم نجدي

المقدمة

ما قبل الكلام... ثمة إنسان نقيّ ـ خالٍ وصافٍ من أدران التدجينات المُضافة على ما زوّده به الورثة، وأضافه على إضافاته المتتالية ورثة الورثة من قيم أخلاقية وتقاليد اجتماعية، رامت بأقاويلها إلى تهذيبه من براءة أصله، لكي ينساق بأعمول فصلهم، فيغدو المرء بمؤدى هذه العملية محتجباً خلف مكدسات نهينا عن...، وحثّنا على....

فمن دون الدخول في الأسباب والمسبّبات التي حدت بالبشر إلى بناء أيقوناتهم الدينية والدنيوية، ومن دون التبرير المنطقي لما لا منطق لنتائجه تلك التي آلت إلى تشريع معياري لما يجوز... وما لا يجوز فعله في خضم حياتنا التي نعيشها تكتلات غمرتنا بدفء التآلف والتآزر فطمست معها هوية كل فرد يتوق إلى التحرّر، لكي يكون هو «هو»... بين الـ «هم»... نجد ان حكاية صيرورة الإنسان محمّلة بعلائق تاريخية، أضاع فيها نفسه المتأرجحة بين مفارقات الفبركة الاجتماعية لما يجب أن تكون عليه حال الفرد بين الجماعة، من جهة، واشتياقات الأفراد لاختراق حجاب الحاجز الاجتماعي بغية الاتساق مع ذواتهم المقعّرة، من جهة ثانية.

ولأن مشـــاركة الفـــرد أفـــراح الجماعـــة وأتراحهـــا، بمثابـــة تســـوية

«لاواعية» لما قد يؤول إليه أمر موافقته على ما لا يتفق معه فيما لو كان بحلّ من الاعتبارات التربوية لأنسنته، سيبقى الصراع بين رغبته ورغبتهم، صراعاً بين متوجبات إرضاء كيانه الاجتماعي (العام) من ناحية، ومستلزمات مصالحة كيانه الفردي (الخاص) من ناحية ثانية.

ذلك أن بين الـ «هو»... والـ «هم» مساحة مليئة بشياطين المفارقات، بين ما يستأنس به الفرد وما تبغضه الجماعة...، فبين ما يتوق إليه عرينا الحيواني، وما هو عليه زيّنا الإنساني، ثمة ما يؤكد صيرورة خَلْقَنا وخُلْقنا إلى ما لا يتثبته أقنوم ربّاني ولا قانون إنساني، فقيم العصور المنصرمة ليست هي نفسها قيماً لعصرنا الحالي، ولا أخلاق هذا القوم كأخلاق ذاك، مثلما قد تجد خير أمة من شرّ تلك، كما أن قبح ما تراه لا يقاس إلّا على جمال ما قد رأيته.

السؤال: أما من حيِّز مشترك بين المختلِفين بأخلاقهم والمتبدلين بأشواقهم؟

وهنا، لا نجزم قطعاً بالأشياء المخلوقة فينا وبذاتنا على أنها ثابتة رغم أنف التحولات الظرفية التي نستدل منها وبتمظهراتها على ما تخفيه اللطافة المعلنة من خبث مُضْمَر...، على ما يخبئه فعل الخير من نوايا ليست خيِّرة، لذا، فالاستدلال على هذا... من ذاك...ليس تعقبياً، ولا هو بسهولة ربط العلّة بالمعلول، لأن بين «البينيات» مسافة مليئة، بتعقيدات وتشابكات مُلتَبسة، تُصَعِّب علينا أمر تفكيك المعلن عن المُبيت...، صِدْق ما نقوم به عن كذب ما نعلن عنه...، فالمسألة هذه

أدقّ من أن تختزل في معادلة حسابية، لارتباطها بحيثيات لا تُعدَّ ولا تُحصى، وذلك لتعدّد ومغايرة العوامل التي حدت بكلٍّ منا لأن يكون «هو» غير «الآخر».

ومع ذلك، يبقى في أصل النوع الإنساني ثمّة ما يروم إلى الظهور بأقنعة، تبدو فيها الشفقة ـ العدوانية ـ الأنانية وما إلى هنالك من صفات نكرة في قاموس النعوت الحسنة عند الإنسان السوي، كامنة في قاع حضوره الاجتماعي المُريب حيال الآخرين، هؤلاء الذين أُقحموا جيلاً بعد جيل في لعبة إخفاء ما لا يجب إعلانه، عبر إشهار مستلزمات استقامتهم، احتراماً لمن لا يحترمونه، أو حرصاً وعطفاً على من يستجدون ملكيته.

ولأن كلّاً منّا هو من الآخرين وإزائهم موجود، تتداخل النوايا وتتشابك على نحو يغدو فيه التواطؤ لتمرير ما لا يؤمن به أفراد الجماعة، عرفاً أو تقليداً، قيمته من قيمة تسليم البشر بقدر انسياقهم بمشيئة قوّة خفيّة، خلقوها بأنفسهم... لأنفسهم...

لهذا،خرج نيتشه بصحبة مصباح عقله النافذ، ليضيء عتمة جهل القطعان البشرية السائرة بهدى إيمانَها بحقائق، ليست حقيقية، إذا ما كُشف النقاب عمّا يخفيه كل منّا من شك بغيض وريبة مشؤومة حيال ما نؤمن به، ونسير عليه.

وفي هذا السياق، توغّل نيتشه في نطاق المحرّمات، ليعري قيمنا من هالة أوهامنا المحروسة بعقول البسطاء أو الضعفاء، لا الأقوياء

المستأنسين بواقع حال إيمان العامة بدونيتهم التي من شأنها حماية مصلحة السادة، كمتفوقين في علمهم على ما لا يعلمه الجهّال بأمر مُدّعي المعارف العظيمة.

لذا، صب نيتشه جام نقده نقضاً للمعتقدات الأيديولوجية هذه التي احتمت بفيء ظلها القطعان البشرية الضالة عن أصلها، ليعيد الأمور إلى براءة الصيرورة في أسس كل الحكايات الأخلاقية تلك التي أخرجت الإنسان عن طور بساطته، وأدخلته في تعقيدات فهمه لما يجب أن يكون عليه اجتماعه مع أبناء جنسه.

وبذلك، أضاءت لنا فلسفة نيتشه، زوايا، كان قد تعشّش فيها تاريخ من منسيات «السهل الممتنع» العصي على من حبسوا أنفسهم خلفَ قضبان المسموحات والممنوعات الدينية والدنيوية مدّة كافية، لكي يتمّ تدجين فراستهم وتشذيبها من كل العلائق التي تتعارض مع صورة رسمهم لما يجب أن تكون عليه صفات الإنسان السوي.

من هنا، صارت الفلسفة ما بعد افتضاحات نيتشه وهدمه، كلاماً كبيراً استنتجه هو من صغائر أمورنا الواضحة وضوح جهلنا بكبائرها، أو قل، عدم درايتنا بخباياها المغطاة بقشور عدم فهمنا لجوهر المسألة الأخلاقية المصنوعة من حيثيات، استدل منها عمّا تأدّى عنها، من تصنيف، الخير عن الشرّ، والنافع عن الضّار، الخ...

وبهذا، طرق نيتشه الفيلسوف باب نيتشه الإنسان، ليستخلص بنفسه ـ من نفسه علّة التفلسف الميتافيزيقي عند فلاسفة، شيدوا صرح

فلسـفتهم علـى مـا كان قـد بنـاه الأجـداد فـي أرض مغايـرة لمـا نقـف عليـه نحـن المعاصريـن، بعـد أن دشـنت فتوحاتنـا العلميـة حقـلاً افتراضيـاً جديـداً لفلسـفة مـن نـوع آخـر.

وما محاولتي هذه، لإضاءة ما فات نيتشه إضاءته، أو قوله بفوات عصره المنقضي منذ زمن لايشبه زمننا، سوى اجتهاد، لا أزعم فيه ما لا أقدر على تحمّله، وما لا أستطيع استكماله في مشواره الفلسفي الغريب والمُدهش بتنوع وتلوّن موضوعاته الجديرة بحساسيته المفرطة حيال ما يستشعر به هو في الأشياء الراكدة داخل يمّ معتقداتنا الأيديولوجية.

كما لا أدعي فيما أقوله ارتقاء مكتوبي هذا إلى مستوى إبداع نيتشه لمكتوبه الذي ألهمني إلى استنباش «المطمور» من خلف «المقوول»، وحسبي أنني واحد ممن أجازت له فلسفة نيتشه الدخول إلى فضاءات رحبة، لم يجرؤ أحد قبله على مخاطرة ريادتها بالحكمة إياها التي أدركت ما سيؤول إليه فعل تدشينها من استفزاز، حثّ غيري قبلي على كتابة نفسه مكتوباً للآخرين.

من هنا، لا أعتبر نفسي متطفلاً ولا متطاولاً على ما كان يتألم منه ـ به نيتشه، حينما خط ألمه في فلسفة غاصت في دفائن نفسه، لتنتشل ما هو ساكن في أعماق الغير.

ولأن لكلٍّ أساريره، سمحت لنفسي «بالتفقّه النيتشوي»، من نور فلسفة، لا تعلمك مفاهيمها تمييز الخطأ من الصواب، إنما تدخلك في مناخٍ تفوح منه رائحة عفن إيمانك بالذي أنت فيه،أكان إيماناً بحقيقة ثابتة، أم اعتقاداً بصواب مطلق.

وقد تتعارض أو تتفق مع ما قاله نيتشه، باعتباره رأياً خاصاً لنفس قلقة من حساسية صدقها حيال ما قد تعتبره أنت تشاؤماً مبالغاً فيه؛ فهو لم يدّع يوماً بنهائية رأيه، ولا بصوابية موقفه من حياتنا التي عكّر صفوها، فكدّرها بمعول نقضه وتقويضه لحقائقنا من خلال افتضاحه وتعريته لهشاشة أفعالنا وأقوالنا التي فبركت ما لا أساس له في أصلنا، كأن تعرف مثلاً أن ما تغتبط به لا يبعث على الفرح، وما تشاهده من الشيء ليس في الشيء نفسه...، وما تؤمن به، أكذوبة خلقتها بنفسك، لتريح نفسك من داء وجودك الناقص أبداً.

«كوجيتو» نيتشه

تريد أن تعرف من أنت، فكّر أن ثمّة من كان حياً يُرزق منذ أكثر من عشرة آلاف سنة ويومين، وثمّة من سيولد بعد مليون سنة وساعة...

لذّة الصيد في الصيد فقط

لذّة الصيد ليست في الاستحواذ على لحم وشحم الفريسة، إنما هي في الاستئثار بحرية الطريدة، فبمصادرة طلاقتها، تغتمر الصياد فرحة وغبطة بعد حسد طويل على ما يتقيّده وجودنا الإنساني في قفص الاعتبارات الاجتماعية.

لذا، فالحيوانات لا تحسدنا لأنها بحل من الروابط الاجتماعية واعتباراتها التي يسيطر فيها الإنسان على نفسه، قبل سيطرته على الآخرين، والطيور التي تحوم في فضائها الرحب، لن تطارد من يقبع في قفص أوهامه. الحرية ليست مطلباً لتلك الكائنات الطليقة، فوجودها معيار لها وليس لنا.

فلا يؤاخذنا رجال السياسة إذا ما كانوا مهووسين بصيد الطيور والبشر أيضاً.

الشاعر شاعر بقوة حدسه

لا يُقاس إبداع الشاعر بفصاحة تعبيره عما يشعر به الآخرون هؤلاء العاجزون عن استفراغ أحاسيسهم في قصيدة، أو عن استمناء مشاعرهم في ديوان، بل يقاس إبداعه بإحساسه المُفرط في استشعار «الآتي» من أحداث المستقبل «بنبوئية» يفتقدها رجال السياسة، لا لأن السياسة مشدودة إلى ما تحصل أو ما سيتحصل، بل لأن في لغة الشعر ونطاقه، رحابة لتقدير ما لن تتوقعه السياسة المنغمسة حتى العظم في «مجريات الآني»... و«على التو»...

لذا، قد نفهم ما كان الشاعر «طاغور» بعينه الرائية قد تنبأ بحصوله، عندما رأى أن اللاعنف الانفعالي المستند إلى الرموز الدينية، سيفرّق هو أيضاً وسينثر بذور العنف مثلما جرى فعلاً على مرأى من عين «المهاتما غاندي» الذي عانى من تقسيم الهند إلى مجموعتين قوميتين (الهند الهندوسية) و(باكستان الإسلامية)؛ حصل هذا بعدما تفلتت نزعته ـ دعوته اللاعنفية من نطاقها كوسيلة لمقاومة الاحتلال البريطاني إلى غاية، استجلب منطقها عنفاً دموياً كان غير محسوب عند غاندي، ومتوقّعاً عند طاغور.

على هذا، أيمكن الاحتكام إلى ما يحدسه الشاعر في السياسة، أكثر مما يحسبه السياسي في السياسة؟

الإجابة تبقى معلقة، وهي رهن المفارقة بين نجاح السياسي في

إقناع الجماهير بإقصاء ونبذ كل مَنْ يستبق وعيها العمومي (القطيعي) من جهة، وفشل الشاعر في مجاراة الوعي العمومي حينما ينتبه إلى محذورات قبل وقوعها ليغدو وجوده سابقاً لأوانه من جهة ثانية. إنما ليس كل الشعراء شعراء، فكم عندنا من طاغور؟

لعنة فلسفية

الفيلسوف هو من أصيب بلعنة إدراكه لمحدودية إدراكه، فاستحال ناطقاً باسم عجزنا عن الوصول إلى الحقيقة التامة، ليغدو متشائماً لا من عجزه ـ نقصانه فحسب، إنما من التفاؤل المفرط عند المتيقنين بإيمانهم في ما يعتقدونه حقيقة نهائية. هكذا كان «نيتشه» قبل «سيوران» يتألم من زيف ما يحوق بالإنسانية من معارف وفلسفات، ازدادت تكديساً فوق محتجبات حقيقتنا البسيطة؛ فنيتشه كان يروم من هدم الفلسفات القديمة السابقة، لا الهدم، إنما إظهار ما تمّ إخفاؤه، منذ أن بدأ الإنسان يتفلسف، وذلك ليجعلنا نقف أمام أنفسنا عراة من ثياب الطوباويات التي نتماهى فيها مع ما نرغب... ما نريد... ما نتمنى... لا مع ما هو موجود فعلاً.

فالموجود يختفي حينما يستأنس الرائي بتخيله وتصوره لما سيوجد في مستقبل مُرجأ دوماً.

الدعوة إلى... مغطاة بالتوقع!

أتحققت توقعات فلاسفة القرن المنصرم لمجريات أحداث عالم اليوم؟ أم أن ما يجري في عالم اليوم استجاب لتوقعات ـ دعوات ـ نداءات فلاسفة الأمس؟

في هذا السؤال خطأ بنيوي، يضمر إنكاراً لدور أدعياء الثقافة الأيديولوجية في توجيه صيرورة التاريخ، أو قل، يحملهم مسؤولية كاملة عن الانحرافات التاريخية السائرة بهدى قدر ما... «مافوق تاريخي»، وفي الحالتين، يعتقد السائل أن التاريخ جوهر معافى من مفاعيل الدعوات التاريخانية التي تعكر صفو صيرورته الجارية إلى حيث لا يجب أن نتوقع... لا يجب أن ندعو... لا يجب أن نفسّر...

فلنصمت إذاً، حتى يبقى التاريخ بريء في انسيابيته الأبدية، وذلك كله كي يرتاح «كارل بوبر» من ضجيج الدعوات التاريخانية لاشتراكية ماركس، وإسلام النبيّ محمد، وكل ما من شأنه معاكسة مجرى نظامه الليبرالي الديموقراطي وإنسانيته المنفتحة على احتمالات تطوير القائم، وليس تغييره.

على هامش الاستشراق

مـا لـم يفهمـه الساسـة العـرب حتـى الآن، كيـف أن الغـرب لا يـوازن

في تعامله الأخلاقي بين وجود العرب، ووجود الدولة العبرية، ولو توغلوا في مساءلة التاريخ الحضاري للغرب، لوجدوا فيه كمّاً من البداهات الغرائبية عما يظنّه الغربي عن العرب، عما يخاله الغربي عجائبياً أسطورياً خرافياً في الشرق؛ على هذا، ليس من السهل اجتثاث ما يتجذّر من صور تاريخية عن كائنات، لا يمكن أن يتوازن وجودها الحضاري مع حضارة الرجل الأبيض[*] الممتدة إلينا عبر كيانٍ إسرائيلي، لا يعتبره الغرب استيطانياً، إنما هو من مزروعاته، لا للتكفير عن الذنب اللاأخلاقي الذي اقترفه الغرب بحق من حرقتهم نار «الهولوكوست» فحسب، فالاغتسال من دم اليهود تطلب إراقة دماء شعوب لا يتوازن دمها مع دم اليهودي ـ الألماني ـ الإنكليزي ـ الفرنسي إلخ...، ومقتل طفل إسرائيلي هو بمثابة عار، في المقابل لا يرف لهم جفن حينما يُقتَل عشرات الأطفال الفلسطينيين.

فما يُسمح للإسرائيلي إذاً، يجب ألا يُسمح للعربي، لأن ما يقوم به الأول، فعل تمديني لبربرية مَن لا أخلاق في أنظمتهم الاستبدادية، بينما مواجهة الثاني لها، هو فعل بربري لامنطقي، لأنه موجَّه ضد سيادة الرجل الأبيض على من هم دونه مستوى.

(*) ملاحظة: صدّق أن خمسين ألف قتيل وقعوا ضحية مجزرة التقاتل العرقي بين قبائل التوتسي والقبيلة الضد، تلك التي نسيت اسمها، بكوني من لفيف البشر المهتمين بأشياء أخرى، أهم من تذكُّر هوية القتلة والمقتولين. وذلك خلال يومين وعلى مرأى من عين حضارة الرجل الأبيض الأخلاقية.

كان من الأفضل أن لا يكون نيتشه...

كان نيتشه نبوئياً، حينما اعتبر أن المائة عام المقبلة ستدشّن مرحلة جديدة من التفكير «المابعد حداثوي» وستشهد أيضاً موت الأيديولوجيات الطوباوية، ليحلّ محلّها التذرّر، والتشتّت، والتبعثر والاختلاف، لكنه لم يكن غيرياً على الإطلاق، عندما قوّض أسباب تعاضد، وتآلف، وتماسك القطعان البشرية حول «إلههم» المانع الجامع. ففي اللحظة التي اخترقت فيه سهام نقده مقتل آلاف المؤمنين باللّه الواحد، لحظة سدّد النار بخبث على طمأنينة عشرات المستأنسين إلى ما هم فيه مرتاحون، أي إلى ما يعتقدونه حقيقة مطلقة، جعل من هذا العالم سوداوياً، أو قل، هو لم يجعل، فالسوداوية هبطت عليه من شفافية إحساسه المفرط باللاقيمة في كل ما يعتقده الآخر عظيماً، فأراد ألا يبقى وحده في سواد عتمة المعرفة، علّ في ذلك، قبساً من نور إله جديد، لا يضيء عتمة الطريق أمام عيون المصابين بعمى نور اللّه السابق.

فنيتشه نجح في التمرّد على القطعان البشرية ليسوق أمامه ـ خلفه قطيعاً من نوع آخر، بدأت طلائعه تتكاثر مع كل انتحار، أو محاولة انتحار.

لماذا جنّ نيتشه؟؟!!!

من يقرأ نيتشه، لا يُصاب بالدهشة من قدرة هذا الفيلسوف على تعرية أشيائنا من مغلفاتها الأخلاقية، فحسب، بل ينتفض من سبات نومه في قعر «قنينة الحياة»، ليستيقظ وحده والناس نيام، ليستيقظ على ما يخاله الآخرون يقظة في نومهم المخدّر بإله واحد وزوجة واحدة وإيمان مطلق.

فإذا ما كان النوم يريحنا من مشقة التفكير، فإن جنون نيتشه كان نتيجة لانعدام نومه ربما، نتيجة لأرق وقلق، منعاه من أن يغمض له جفن طيلة حياته.

جمعية الرفق بالحيوان لم تشملنا برفقها

من المؤكد أن من بين ضحايا المجازر المريعة لقبائل «التوتسي والهيتوس» في (رواندا) ثمة طفل، لا يعلم بأن في حضارة هذا العالم جمعية للرفق بالحيوان، وإلّا كان سيُحاط برفق إنسانها المريع في سخطه على قتل الفيلة في أوغندا، خوفاً من «انقراض النوع».

أكم فقدت الإنسانية من أنواع في الخمسين ألف قتيل، فيما لو قدّر لواحد من هؤلاء الأطفال أن يتربّى على موسيقى بيتهوفن، وكتابات نيتشه، ورسومات ڤان غوغ؟

صدّق إذاً، أن واحداً من بينهم كان سيكون فيلسوفاً، رساماً أو موسيقياً، لكنه مات من دون أن يتسنّى له الإفصاح عما هو فيه، عما تحتاجه إنسانيتنا من فرادة في الأنواع الحيوانية، لا الإنسانية. ألا يستأهل منا ذلك بعض الأسف؟

كلب الرئاسة يضفي عليها وقاراً حيوانياً؟

حين تهبط طائرة الرئيس الأميركي جورج بوش الابن في حديقة «بيتهم» الأبيض، يُخرج كلبه، قبل أن يُتحفنا بطلّته المُهيبة.

أفي هذا دلالات أبعد مما تمثله مرافقة هذا الكائن من عضّ لكل من تسوّل له نفسه الاقتراب من ملكية الراعي لغنماته؟

نعم، الدلالة الأسطع في ذلك، هي الإضفاء على دبلوماسية الهيئة الرئاسية وقاراً حيوانياً، كي لا نصدق كثيراً تهذيب الناطقين باسمه، ولا عطف ورحمة سفرائه الميامين؛ ففي هذه المرافقة (مرافقة الكلب) رسالة تتبطّن خبثاً مضمراً في استخفافها بمشاعر المهانين ـ الجوعانين الكثر، لكي يعتبروا بالخضوع إلى قوة سيدهم العصري، وفي هذه الحال، لو كان باستطاعته (بوش) تدجين نمرٍ لمرافقته في جولاته التلفزيونية، لفعل الرئيس ذلك بالتأكيد.

منسيَّة ابن خلدون

حين استرسل ابن خلدون في تحليله لأسباب العمران البشري، وفّق إلى حدٍّ كبير في التقاط العناصر ـ العوامل الآيلة إلى نهضة الأمم وانحلالها، حيث شكّلت «العصبية» بنظره محور استجماع الشعوب لقواها الاقتصادية والسياسية، مما رتب على انعدامها، أو ضمورها تداعياً في القدرة على التحكّم بالمرافق الحيوية لبناء الدولة، وإدامة عمرها، أياً كانت طبيعتها، أميرية أم ملكية، وتوتاليتارية أم ليبرالية، إلخ...

لكن ما لم يقله في حديثه «السوسيوسياسي» أفصحت عنه سيكولوجيا السياسة لدى الفاعلين والمنفعلين على حدٍّ سواء، فالناس صنفان: من يمارس السياسة ومن تُمارَس عليه السياسة. ليتبين عندها أن للانتصار مفاعيل خطرة على سلوك المنتصر، لا لجهة استعلائه في تعامله مع أمور المهزوم فحسب، وإنما لعمى استرخائه في الحالة التي يغتبط بها انتشاءً، يمنعه من تقدير قوته وإمكاناته الحقيقية.

لـذا، غالبـاً مـا يغفـو المنتصـر باستئناسـه فـي الحالـة التـي تجعـل مـن انتصـاره الراهــن هزيمــة لاحقــة، وذلــك نتيجــة المبالغــة فــي تقديــر قوتــه، والمغــالاة فــي تبخيــس قــوة المهــزوم. فباســتلاب المنتصــر إلــى انتصــاره، تبـدأ إرهاصـات العـد العكسـي لنُبـوت هزيمـة مضمـرة خلـف بريـق المظهـر الســلطوي ذاك الــذي يســيطر علــى أدائــه فــي النواحــي كافــة، وبالعكــس،

توقظ الهزيمة صاحبها من سبات تقديره الخاطىء لما كان يعيش فيه، ولما كان يعتاش عليه من استقرار منضبط بكوابح انتصاره القديم، فيعيد النظر بأموره لإعادة ترتيب بيته المتصدع صار، من جراء الارتكان إلى ما كان يحيا به من أوهام عظمة، لم تشفع لقياصرة اليونان ولا الرومان بالأمس البعيد، مثلما لم ترحم الفوهرر الألماني ولا الامبراطور الياباني حينما خاضا حرباً عالمية أدّت بهما إلى الانكسار ومن ثم الانحسار نفسه الذي ساعد كلا الأمتين بالأمس القريب إلى أن تغدو المانيا واليابان رقماً اقتصادياً صعباً، قد يمهّد السبيل لأن تعودا رقماً سياسياً أصعب.

أما من مذكِّر لأرباب السياسة الأميركية بالأمثولة هذه التي لم يعتبر بها رئيسهم «بوش» في إعلانه المفعم بالاستعلاء والغرور «مطلوب حياً أو ميتاً»؟

لقد غاب عن ابن خلدون أن مؤشر عمر الدولة مرتبط بمستوى تواضعها أيضاً.

المرأة عند نيتشه

تصطدم عبقرية نيتشه واستشرافاته الخلّاقة لما لا يعلمه بني البشر العاديين، بانكساره المخزي أمام المرأة المنمذجة ـ المنمّطة عنده بصورة حبه المرذول من قبلهنّ؛ فإذا كان في نسوة نيتشه خطب ما،

علينا تذكّر «كوزيما ـ زوجة فاغنر»، وإلا ما كنا لنفهم غضبه وسخطه على «فاغنر»، وما كان ليحتل قرفه منه الحيّز الواسع في نقده لموسيقاه المرفوضة من نيتشه رفضه لحقيقة تفضيلها «فاغنر» عليه.

الذوق مطواع للجيد كما للسيئ

لم أجرؤ إلى الآن على الاعتراف بما لم يعترف به السواد الأعظم من المغنين الكاذبين، بالقول: إنني لا أستمتع بلحن ولا بغناء محمد عبد الوهاب، ولا أدري ما إذا كان يستمد هذا الموسيقار حصانته النقدية من جُبْنِنا، أم من جهلنا المتوارث بتاريخ الموسيقى العربية.

ولعل عدم استئناسي بألحانه، يعود إلى ما اعتادت على سماعه أذني من ألحان وأغانٍ مبتذلة، أو ربما كان ابتذال موسيقى اليوم نابعاً من أرستقراطية موسيقاه المهجّنة كانت بـ «نوتات» شرّعت الباب أمام مقلّدي اليوم لاستكمال استيرادهم الموسيقي المرذول في الأصل. وإذا ما أحسنّا الظن، فقد نعزو عدم رغبتنا في سماع عبد الوهاب إلى المستوى الذوقي الهابط في إدراكاتنا الحسية التي تسكر بالويسكي السكوتلندية بأكثر من العرق البلدي، مع أن عتق الخمرة هو من أصالتها، فالعرق لن يغدو «فودكا» ولا «الويسكي» أيضاً، مثلما لن يتحول «القصبجي» إلى «عمرو دياب».

مقتل العقل في لجامه

إن الدعوة إلى اعتماد العقل في النظر إلى معتقداتنا، لا يعني تحكيمه بأشياء وإبطاله بأشياء أخرى، فهذا محال؛ فللعقل آليته التي قد تذهب بنا إلى ما يخافه حراس العقيدة، هؤلاء المنتفعون بوظائفهم العاملة على حماية الهياكل القديمة من تدنيس العقول الحرّة.

لذا، فإن أساس التخلف هو في وضع حدود للمسموح والممنوع أمام العقل، فلا يمكن استعمال نصف عقلنا هنا... مثلما لا يمكن تشريعه في هذا، ومنعه في ذاك.

لكي تُبدِع عليك أن تكون مفرطاً في حب ذاتك

كثيراً ما يحار الناس بشأن الكُتَّاب والفنانين الذين أحجموا عن الزواج، وقد نسوا أن الزواج هو تسوية من النوع الذي يتطلب مشاركة، تشترط التخلي عن حب الذات المفرط الذي يكنّه الشاعر لقصيدته والرسام للوحاته.

لماذا كان وَلَهُ نابليون بجوزفين ـ عفواً ماري روز

لا يهبط الحب من فضاء الميتافيزيقيات، ولا هو منَّة قدر إلهي، بل أن سموّه وتعاليه هو من تمظهره بقربان التضحية لأمثال «روميو وجولييت»، وقيس وليلى... إلخ، وإذا ما تخلصنا من أحجية النعوت الأخلاقية لفعل الإخلاص أو العفّة والنزاهة في هذه الشهادات الشواهد، لتوصلنا إلى نتيجة مذهلة، مفادها: إنّ الحب ليس سوى تحدٍّ عمن يكون الحبيب، أو بالأحرى، تتوقد نار الحب من اختلاف الوضعية الاجتماعية للعاشقين، وإلّا ما كان لتلتهم ناره نابليون الولِهَ بالأصول الأرستقراطية لجوزفين عفواً لماري روز أكثر من ولهه بشخصها، لا بل أن شخصها يمثّل كل ما كان يفتقده نابليون في تربيته، قبل أن يكتشف وهم البحث عن عظمة، ستبقى متعطشة إلى ما كان يفتقده، ولن ترتوي بما صار يمتلكه.

عود على ذي بدء

إن المعنى غير العادي (فوق الواقعي) الذي يضفيه البشر العاديون على رموزهم العقائدية والعاطفية حتى، يرتبط بالحاجة إلى تلبية شوقهم لما هو فوق إرادتهم، إلى ما يعتقدونه أسمى من واقعهم،

إله الحبّ مات، فعاشت قصة روميو وجولييت، وإله التضحية دفن. فاستولِدَ تشي غيفارا رمزاً للتفاني والتضحية بالذات؛ لربما من هذه العِبَر، استخلص نيتشه مفهوم صيرورة العودة الأبدية.

هكذا إذاً...

إذا كانت أمجاد التراث تعزّز ثقة الشعوب بنفسها، إلا أن مخاطرها أفدح إذا ما أسرفت في اعتزازها، بما كان عليه الأجداد، لأن هذا من شأنه أن يعوق ما يجب أن يكونه الأحفاد.

فالتقدم يستوجب النظر إلى الأمام بأكثر من التحديق «النوستالجي» بالوراء؛ ولعل تفوّق أميركا وتفردها بالهيمنة على عالم اليوم، يعود إلى أن لاوراء لديها... لا أجداد لأحفادها، ولا تراث لعقائدييها.

هكذا إذاً!!؟؟

الحزم ضرورة ديالكتيكية أيضاً

هل أن الفهم الأيديولوجي هو الذي يحدّد الفعل السياسي؟ أم أن الفعل السياسي هو الذي يحدد الفهم الأيديولوجي؟ سؤال إشكالي لم يُجِب عليه ماركس، إنما تهرب منه بذكاء ديالكتيكي.

تبجيل الغائب

إن قداسة رموز اليوم ليست من ماضيهم، وإن كان في العتق شيء من مهابة الديمومة وأصالة الندرة لحاضر فيه من المكتنزات ـ الإنجازات الكثير مما كان يتشوّق إليه القدماء، ومع هذا، لن تغدو مبجّلة إلا بعد حين، فالتبجيل صفة ملازمة للانقضاء، هذا ما عرَّفنا إليه تعبّد المسيحيين بمسيحهم، والشيوعيين بماركسهم.

أيقونة زمنية

الندرة في الحاضر، ليس مما يتوافره الحاضر، أياً كان ثمنه، إنما من أيقونة ماضٍ، قيمته من قيمة حسرتنا على انقضاء زمن وجودها السابق. كلّنا يعيش داخل هذه الدوامة، دوامة وجودنا اللاحق، ريثما يغدو اللاحق سابقاً.

الأحلام تجترح رموزها

إن انتحار «روميو وجولييت» واستشهاد «تشي غيفارا»، أوقفا عملية استدلال المَثَلَين بتجارب الحياة، في لحظة حماس عاطفي عند الطرف الأول، وعقائدي عند الثاني؛ ولو تسنّى تحقيق مراد العاشقين

بزواج مؤسساتي، والثوريين بنظام اشتراكي، لتعلّم العشّاق والثوريون الحالمون، درساً قد يمكنهم من إجراء مصالحة قادرة على ملامسة شيء من الحلم على أرض الواقع، لا أن يتشيأ الحلم واقعاً، والواقع حلماً مستحيلاً.

فالتجربة علمتنا أن الأحلام هي سمة من سمات الحماس الشبابي؛ هؤلاء الذين يشكلون بوجودهم، وقوداً للتحفيز، نحو تغيير يجب أن يقوده أصحاب العقول الراجحة، أي من أدرك عدم اكتمالنا في نظام نهائي، أو في صيغة مطلقة.

فالإيمان الحالم مرتبط بجمال التصور، والاعتقاد الواقعي مرتبط بمرارة المعرفة، وبذلك، يهبط وعينا من عليائه السامي كلما تصعّد ونضجت معرفته للواقع المتشذر ـ المتذرّر والمتناقض أبداً، على هذا، فيما لو قدِّر لروميو وجولييت أن يتزوجا لما كانا روميو وجولييت، ولو قبل غيفارا بمنصبه الوزاري في الحكومة الكوبية، لما استحال رمزاً للتفاني والتضحية عند الأجيال اللاحقة؛ فللشباب اندفاعهم لتبجيل الحماس، وللشيوخ حكمتهم ـ رهبتهم ـ حذرهم من المأساة المترتبة على ذاك الحماس، بهذا المعنى، قال شكسبير: «ألا هكذا يجعلنا التأمل جبناء».

ضد سقراط

لا تعرف نفسك، إذا ما أردت العيش بطمأنينة وسلام.

مساوىء يقظة الحالمين

إن ارتداد المرء على ما كان يعتقده، يدفعه إلى المبالغة في نكران معتقداته بشراسة، توازي شراسة مغالاته في التحزّب إلى ما كان يظنّه حقيقة مطلقة. وفي كلتا الحالتين، يتّسم أصحاب الفكر الحالم بعدم التوازن في تعاملهم مع المستجد، بحسبانه عملاً واقعياً بالتمام، وهذا ما قد يُفْضي إلى خلل سلوكي حينما يهجر المنتمي أحلامه، حينما ينتقل إلى المقلب الثاني «الضد»، باعتباره الأصحّ، لا بل هو الحقيقة التي غابت عنه إبّان ارتمائه بأحضان حقيقته المطلقة، وبغية اللحاق بركب الواقعيين «أعدائه بالأمس»، يتخبط يميناً وشمالاً لتحصيل ما فاته، وقد نسي أن ما فاته يستلزم تعلم الحبو ببطء لملامسة شيء من أحلامه على أرض الواقع، وذلك كي يضفي قليلاً من قيمه السامية على انتمائه إلى واقعية عملانية، أسوأ ما فيها الاستلاب الكلي إلى منطق حساباتها، بربح وخسارة بعيدة عن إنسانية المشاعر ـ الأحاسيس وحتى الأحلام.

على هذا، ومن دون التشكيك بصدق شيوعية الأمناء العامين للأحزاب الشيوعية، قبل أن يصبحوا قادة، نفهم سبب استبدادهم بالسلطة، ذلك أن أسوأ فعل هو الذي استبدّ بصاحبه فعلاً صحيحاً بالمطلق، لأنه سيتخلّى ساعتئذ عما في صحته وبالمطلق أيضاً، حينما يظهر له أمر خطئه، وكأنه خطيئة يجب التكفير عنها بالذهاب في الوجهة المعاكسة إلى أبعد مما يجب؛ فالنصيحة لمن كان شيوعياً هنا،

أن يعتكف تأملاً بما كان عليه، قبل القيام بما يجب عليه في السياسة والاقتصاد أيضاً.

تحوّل مشؤوم

إن أخبث شخص تصادفه هو من كان أيديولوجياً حالماً، وأراد أن يصبح تاجراً، أو سياسياً محترفاً.

العظمة ليست في راهنية العظماء

إن في تاريخ العظماء ظاهرة، وسمت سلوك معظمهم، ألا وهي تعليق الحكم، أو تأجيل تسمية الوصي، أو بالأحرى، ترك الأبواب مشرَّعة أمام أتباعهم اللاحقين لتأويل ما قاله ـ ما لم يقله أصحاب الدعوات التاريخية بالمايجب فعله بعد مماتهم، تعييناً لمن يتولى خلافتهم؛ والسؤال هنا، لا يتعلق بالسبب، إذا ما أدرك المرء، أن عظمة الداعية ليست مستمدة من فعل دعوته فحسب، إنما من ما بعدها، وما يعقبها من خلافات وصراعات حول لمن أحقية سلطة الخلافة المتروكة في عهدة الكثيرين ممن يعتقد بنفسه الأولى بها.

فالعظمة هي من استتباب الأوضاع وازدهارها في حياة المعلم وتوهج مرحلته التي كرّسته نبراساً لهداية ضلال اللاحقين هؤلاء القيمين على مرحلة ما بعده.

فإذا ما بقي الوضع مستقراً ـ مزدهراً ـ مستتباً ومتوهجاً على النحو الذي تتمّ فيه إحياء مرحلة المعلم، أيمكن أن يبقى المعلّم ملهماً وعظيماً؟

إنه سؤال صعب، لم يجب عليه لينين لوأد فتنة الانقسام الدموي بين رفيقيه ستالين وتروتسكي على سبيل المثال، لا الحصر. ..!!

الإبداع أرق ذاتي

المبدع هو من تمثّل بمعارف القدماء، هو من امتصّ روحهم، حتى غدت روحه مؤرّقة بتكريس نفسها، غذاءً نافعاً للمصّ من بعده.

أرق وجودي

حين يفكّر المرء بالموت، يشعر بخواء كل الأفعال التي اعتاد الناس على تأديتها كما لو أن لها معنى أزلياً.

لذا، فالاستلاب إلى ما يحيا به البشر، هو بمثابة نعمة للانشغال عمّا يؤرِّق الفلاسفة والمبدعين الذين يعانون من حقيقة تعريتهم لموتهم المؤجل.

أصناف البشر

الناس صنفان: صنف يحثّه موته على إماتة نفسه بالتعبّد من أجل حياة مؤجلة، وآخر يحفّزه موته على تخليد نفسه بعطاءات قد تُلطِّف عليه مرارة قناعته بحقيقة موته أو انطفائه الأكيد.

«الماسونية» شيطان الفقراء

سر الماسونية يكمن فيما توحيه ـ تومىء إليه، أو تتمظهر به من انتشار أخطبوطي لتنظيمها الذي ينطوي على ما لا يعلمه أعضاء التنظيم نفسه؛ فكيف والحال هذه، مع من يستجدي، جهله بالأمور المعقدة، عبر أجوبة سهلة، تعفيه من همّ البحث في كيفية انتظام عمل رأس المال المتجسّم عنده رجلاً «ماسونياً» يأتمر بتعاليم منظمته المزعومة؟

إن ما يضفي على «الماسونية» قدرة خارقة، هو في تحميلها مسؤولية جهلنا بآليات عمل الاقتصاد السياسي؛ ولأننا لا نفقه منطق التشيؤ الاقتصادي، ولا روابطه المتفاعلة فيما بين رجالاته عبر تواطؤ متبادل، يعلم من خلاله رجل الأعمال الحد المسموح وغير المسموح لأعماله في هذا القطر أو ذاك، من دون أن يعي انتظامه في إطار مراعاة المصالح من أجل مصلحته داخل «سيستام» صارم ومتكامل لآليات عمل السوق؛ لتنشأ بضوء ذلك، ظاهرة الاغتراب التي يُنكرها

الرأسماليون الخائفون من أنفسهم، خوفهم من أن يكونوا أعضاء في «الماسونية» التي قد لا يعلم عنها الحريري أي شيء مثلاً، ولربما قد يُصدِّق أنه عضو فيها إذا ما استُلِب بالأقاويل التي تجتهد بإشاعة ما لا وجود له، عن «الماسونية» هذه التي تتسع إلى كل ما لا نعرفه عن أساليب عمل الرأسمالية الجديدة.

«فالماسونية» إذاً، هي ملاذ التواقين للإجابة السهلة ـ البسيطة والساذجة عن أسئلة تستأنس بتقديم صاحبها ضحية مؤامرة مدبّرة لفقره المستمد من جهله بما يجب أن يكافحه من أوضاع ليست هلامية ولا غيبية، إنما هي مادية متخفية خلف هلاميات «الماسونية» المزعومة، وغيبيات القدر المشؤوم عند فقراء هذا العالم كلّه.

عظمة الهالة تُخْفي حقيقة واهية

كلما ازداد الحرص على عدم البوح، أو الكشف عما في حوزة الشخص المدّعي، يجب أن نزداد تشكيكاً بما يمتلكه.

ماذا عن المذهب الدرزي إذاً؟

الأنا المفرطة عند المؤمن

إن الاغتباط بحوريات العين، ونهر من خمر أو عسل... إلخ،

يُحاكـي فرحـة المؤمـن بـدوام ممنوعاتـه الدنيويـة هـذه التـي أرغـم نفسـه علـى رفضهـا بقـوة تعـادل قـوة رغبتـه فـي أن تتأبّـد هـي نفسـها داخـل حيـاة لا تعكرهـا فتـوى، ولا يخنقهـا نقصـان إنسـاني سـيبدل الشـوق حتمـاً، كلمـا شـاخ المـرء فـي صيرورتـه عاجـزاً عـن تـذوّق طعـم شـبابه المنقضـي رويـداً، أو المنتقـص شـيئاً فشـيئاً.

فإغواءات الآخرة الباقية عند المتدينين، لا تعادلها إغراءات الدنيا الفانية بفناء أجسادهم هذه التي تتحلل في زمن لا يروي عطش الأنا، ولا يرضي طموحها في العيش الكريم خارج الزمن.

لهذا، إن توهج الدين هو من عتق وعده بآخرة كانت، ولا تزال وستبقى ملاذاً لاكتمال الإنسان وامتلائه المطلق في فضاء، لا يقاس نوعه على فضاء وجودنا المنقضي مهما عدل في نظائمه، وتَرَفّه في وسائله.

إذ تبقى العلة فيما يحنّ إليه التواقون للخروج من أزمة وجودية، يتخبط بها الفلاسفة وحدهم.

إلتباس الأنوات من تمظهراتها

مـن لا يحـب أنـاه لا يقـدر علـى حـب الآخريـن، لـذا، مـن الطبيعـي أن يغـدو المـرء عدوانيـاً عندمـا يتخاصـم مـع نفسـه، لا بحسـب تفسـيرات علـم النفـس الحديـث الـذي يعتمـد فـي علاجاتـه، وفـي سـبل تفكيكـه

للعقد النفسية على مصالحة الذات مع نفسها وذلك لجعلها قادرة على أن تتكيّف مع محيط اجتماعي، يتطلب بدوره غيرية قادرة على أن توفِّق بين حب الأنا والرفق بالآخر، بل انطلاقاً من اعتقادنا بالمسافة الفاصلة بين نزعة التشرنق المرضي في الأنا «الأنانية»، ونزعة التمسك الصحي بالأنا «الغيرية»، وفي تلك الحالتين، فالفرق هنا، هو فرق بين من يتمظهر حبّه لأناه حبّاً للآخرين، من جهة، ومن لا يستطيع إلباس أناه زيّ كائن اجتماعي ذكي في إخفاء أناه على الملأ، من جهة ثانية، ومع أن في الأمر التباساً سيكولوجياً، علينا الحذر من ضرر «الغيريين» الدبلوماسيين أكثر من المتهمين بأنهم أنانيون...!!

وَهمُ التملّك

تُعدّ الغيرة سمة من سمات العاشقين المستلبين بوله حبٍّ، يبدو وكأنه سامٍ عن حيثيات الظروف المادية لواقع المحبين، وفي هذا السياق، لا ينبغي استخلاص العبر من إخفاق الحبّ عند الزواج، باعتباره نتيجة طبيعية لمؤدى اصطدام صورة المحبوب بتجسمه زوجاً، أو تجسّده إنساناً منفعلاً، تتجاذبه السخافات والنواقص المقصية والمشذبة كانت من الصورة المتخيلة للحبيب، فحسب، بل ينبغي التوغل في سيكولوجيا التملك الوجودي في فلسفة سارتر التي افتضحت وهم الإحساس بالتملّك، أياً كان هو، أفي ذوبان حبٍّ، أم في

امتلاك ما يستحيل امتلاكه من خلال عقد زواج، أو صك بيع.

بهذا المعنى، إذا ما كانت الأنا تستمدّ وجودها من اختلافها ـ غيريتها عن الآخر، لا يمكن البقاء أسرى وهم الغيارى على حيازة ما لا يمكن امتلاكه، لأننا لسنا نحن هو، ولا هو نحن، لهذا ربما عاش سارتر مرارة إيمانه بحرية ليست متوافرة في عالم التسويات المنعقدة على ما يجعل من الناس سجناء وهم ملكيتهم.

لعلّ هذا يفسّر لنا لذّة الوصال الجسدي الناجم عن وهم التملك المتبادل بين المحبين المتزوجين، أكثر من نشوة نكاح بائعي الهوى ـ بائعات الهوى الذين لا يُشعرون ناكحيهم بلذة الامتلاء نشوةً مِنْ امتلاكهم لجسد الآخر.

علّة الانفصام في شخصية الأطباء

من راقب الأطباء، حار بأمر سلوكهم حيال مرضاهم في المستشفيات وفي العيادات، وفي كل مراكز عملهم التي تشكّل حيّزاً لسيادتهم «المافوق إنساني» على من يتوجع ألماً، على من أنساه ألمه بأن الطبيب المُعالج رجل فيزيولوجي قد يتألم من مرض يصيبه هو أيضاً.

ويبدو أن الإسراع في توجه المريض إلى طبيبه بغية التخفيف من وجعه، يجعله ضعيفاً حينما يرمي نفسه على من يعتبره إلهاً شافياً

بعلمه ومعلوماته عن صحتنا، ولأن المريض يخضع إلى استجوابات أسئلة صارمة ومحدّدة من قبل الطبيب المعالج، يشعر الأخير بضعف، كضعف الجاني أمام المحقق، أو قل: إن ضعفه من الألم الشديد، يعميه عن النظر بموضوعية إلى ما يكونه الطبيب، عندها يضفي على طبيبه هالة المخلّص (الإله). وهذا ما يؤثر سلباً في نظرة الطبيب إلى نفسه، إذ إن لمفاعيل العلاقة غير المتكافئة بين المرضى والأطباء إيجابيات، لناحية التزام المريض بما يأمر به الطبيب، عندها يشفى المريض من علّته العضوية، فيمرض الطبيب بعلّة حسبانه لنفسه عظيماً في مداواة ما يعجز عنه الناس.

ومع هذه الحال، قلّة همّ الأطباء الذين تحصنوا من التأثيرات السلبية لوظيفتهم الإنسانية في تعاملهم الإنساني مع محيطهم الاجتماعي، ذلك أن تكرار استجداءات المرضى للطبيب، قد لا تجعله بمنأى عن المفاعيل السيكولوجية لهذا الاستجداء على شخصيته أبداً.

صناعة العظمة

عندما تهتف الجماهير للقائد وهو يخطب في حشدهم، ينعتونه بتبجيلات عظمة، تؤثر فيه إيماناً بنفسه على نحو مغاير عمّا كان يؤمن به قبل تعظيمه ـ توصيفه هذا المبني على ما ظنّه ـ أراده الآخرون له.

إذ إن جنوح القائد إلى نزعة التكبّر والغرور الطارىء ربما على

مـا كانتـه شـخصيته، مسـتمد ممـا يحثّـه النـاس عليـه، خاصـة حينمـا يقدمـون ولاءهـم وطاعتهـم لـه بدونيـة، يصعـب معهـا الصمـود فـي التواضـع إيـاه الـذي أبقـى «كمـال جنبـلاط» و«المهاتمـا غانـدي» مثـلاً قـادة عصاميـين.

ولعلّ تواضع هؤلاء متأتٍ من حصانة إدراكهم الواعي بعظمة الجماهير، لا الأفراد؛ وفي هذا السياق، أتمنى خطأ القاعدة التي تقول: الإفراط في التواضع يخفي غروراً عظيماً.

نصيحة مستحيلة

حينما يمنعك الأرق ـ القلق من النوم ملء جفونك، اعمل على أن تَخْرُج من حال توجسّك المهموم بمسائل محفوفة بمخاطر بقاء جسدك مؤرقاً بالنعاس.

الأفكار لها أنف أيضاً

إن ما أرساه «هنري كيسنجر» في السياسة الأميركية، يعكس سمات شكله ـ صورته، وإلا ما كان لأنفه الطويل أن يزداد طولاً، أثناء دفاعه عن حقوق الإنسان، كما عن الليبرالية العتيدة.

تفسير غير سياسي للسياسة

إن من يحسب السياسة فناً أصيلاً في إدارة شؤون وشجون الجماعة، نسي ما يشترطه الفن من أحاسيس مرهفة، استبعدها عن أنفسهم ساسة المدرسة الكيسنجيرية، هؤلاء المنهمكون بربح محسوب بأرقام مالية وأعداد إنتخابية.

على هذا، تغدو السياسة صنعة القادرين على التخلي عن القيم الأخلاقية التي يتحصلها الأبناء من آبائهم، التي يزرعها الآباء في أبنائهم، ولأن لا آباء لأبناء أميركا، أو بالأحرى، بسبب عدم وجود أبوّة أخلاقية ـ تراثية في التاريخ الأميركي، نجحت السياسة الأميركية في الهيمنة على عالم اليوم.

عرّف عدوك بنفسك

إسرائيل عدوة لأنها احتلت أرضاً عربية، مقولة لطالما سمعناها تتردّد على ألسنة قادة العرب ببساطة ووضوح؛ فالوضوح السافر لفعل الإسرائيلي، يقابله غموض واضح في الامتناع عن ترجمة كلام العرب إلى إجراءات فعلية لصد الإسرائيليين عن استخفافهم واستهتارهم بكلام، اعتادوا على اعتباره كلاماً، ليس إلا، ولكي لا يبقى الكلام كلاماً، على النظام العربي القيام بما يتوجب عليه، لا لاستعادة ثقة جماهيره،

وإنما لاستعادة ثقة العدو بكلام النظام العربي، وعليه يجب أن يتصوب شيء من العلاقة المستهترة بوجودنا المهان من أنظمة تستجدي حماية ضعفها (من أميركا) أي ممن يعمل على إضعاف وإذلال شعوبها.

ولا ضير، فالقيادات العربية تتوجّس خوفاً من خسارة ما لا يمتلكه السواد الأعظم من الناس الخائبين من ضعف نفوس الصغار أمام فلوس الكبار، وفي هذا السياق، نحن بأمسّ الحاجة إلى كسر المعادلة المستقرّة على ما أنتجته هزيمة 67 من تداعيات لهزائم متتالية.

حكمة «كيسنجرية»

إذا كنت ممن يتألم عندما تدوس قدماك رؤوساً بريئة، ننصحك بألا تعمل في السياسة.

حكمة كبار السنّ

غالباً ما تشاء الصدف في أن تدفع بالرجال الطموحين إلى أن يمتهنوا صنعة أخرى، لم تكن بحسبان اجتهادهم لتحقيق أهداف طفولتهم في السيطرة على العالم، وذلك ثأراً من السيطرة عليهم، ولأن الطفولة متقلبة بأهدافها، ولأنهم لن يعودوا أطفالاً، سينتهون حتماً إلى الارتكان على ما يدعو إلى مصالحة عجزهم عن تغيير العالم والسيطرة

عليـه، قناعـةً منهـم بضـرورة مجـاراة واقـع الحـال لتحسـين أحـوال مـرارة عيشـهم وقبولهـم بمـا لا إرادة لهـم بـه، عندهـا سـيُنْعَتون بالناضحيـن والحكمـاء.

بين المتخيلة الريفية والعقل التقني

يتردّد دوماً بأن لا ذوق ولا أحاسيس مرهفة في امتهان ابن المدينة لمهن، يطغى عليها طابع الكسب المادي المباشر، أكان في التجارة أم في السياسة.

بينما يتمتع أولاد الريف بالذوق الحسن في امتهانهم لفن كتابة الشعر والرسم والموسيقى إلخ...؛ لكن، إذا ما قبلنا بنتائج الإحصاءات التي تدل على احتلال أولاد الريف للحيز الفني الواسع في المدنية، لا نقبل بإلقاء الاتهامات جزافاً على ذوق هذا، أو ذاك؛ فالأذواق ترتبط أشد الارتباط بالتنشئة والانشغالات الوراثية على ما يجعل من ابن صيدا مثلاً فناناً مبدعاً في صناعة الحلوى؛ مثلما جعلت أولاد «جون» مميزين في إنشاد الشعر وغنائه.

حتـى إذا مـا توغلنـا فـي الأسـباب الحقيقيـة لذلـك، قـد لا نقـف عنـد حـدّ التفسـيرات السـيكولوجية التـي عـزت تميّـز الريفـي فـي هـذه النواحـي إلـى نظريـة التعويـض عـن ريفيتـه المهمّشـة بانشـغال يسـعى مـن خلالـه إلـى التفـوق علـى مـا فـي المدينـة؛ فالمسـألة لا ترتبـط فقـط بتعويـض طبقـي

أو اجتماعي، وإلّا كان لفقراء المدن باعٌ طويل في هذا المجال، إنما المسألة مرتبطة بروح التحدي لمعاناة الريفيين الذين ينعمون بالعيش في براري، يحفزهم وجودها تلقائياً على تدريب مخيلتهم والتأمل وذلك للارتحال إلى أبعد من جدران البيوت المتلاصقة في بنايات المدن المكتظة بالسكان، حتى إذا ما تسنّى العمل المديني للريفي، الممتلىء خياله برحابة وديانه وسهوله، أبدع في المواءمة بين ما تربّى عليه خياله، وما صار عليه وعيه.

إنها نعمة مفقودة عند من يحسدوننا على ما كنا نحسده فيهم.

«الإنترنت» خطر على الشعر

إذا كان الشعر يولد من رحم المتخيلة، فابشروا يا أولاد «الإنترنت»» بخسارتكم لفن من أهم الفنون التي تخفّف من وطأة حياتنا في هذه الطبيعة الخلّابة.

فكيف والحال هذه، أمام شاشة حاسوبكم الجامد؟

خطب الترجمة الأمينة

عادة ما يجري خلط خطير في ترجمة الحالة المعيوشة إلى فكرة مكتوبة.

لذا، قلّة هم الذين ينجحون في التعبير عما يريدون إيصاله من مقاربات موفقة بين مكتوبهم لنا، وفهمنا لهم.

لهذا، على الكاتب أن يكون حذراً مما تعلمه في المدرسة من مرادفات، كأن يستبدل مثلاً «بزاز» المرأة «بنهدي» المرأة، لأن في هذا الوصف المختلف للعضو الواحد مقاصد علينا احترامها، هذا إذا ما أردنا احترام انفعالاتنا الجنسية في الأولى، والوقار العلمي في الثانية.

نيتشه متخصص في الهدم

حينما قوّض نيتشه دعائم التفاؤل في فلسفات السابقين، راعه أمر عيش اللاحقين من دون مأوى لطمأنينتهم المدمّرة والمتشظية على ما هدّمه، ولأنه أجاد الهدم أكثر مما أجاد البناء، خَلُصَ إلى ما لم نفهمه في تنظيره لإرادة القوة.

فظائع أمة

لم أفهم حتى اليوم الندب على ما حلّ في واقعة كربلاء حسرة على ما فعله إسلام الأمويين من تمثيل بشع بابن بنت نبي المسلمين، إذا ما كانت المصيبة تتكرّر اليوم بالاعتداء الإسرائيلي السافر على مقدسات المسجد الأقصى، سوى أن أمة تستكين أمام مشهد رفع رؤوس أقرباء

رسولهم على رماح القتلة بالأمس، هي حتماً مصابة بالخنوع إلى ما يعيشه الأعداء قتلاً لأطفال فلسطين اليوم.

الترجمة الإنسانية للأديان

المسألة ليست في دعوة الماركسية إلى عدل، والمسيحية إلى تحابب، والإسلام إلى تسامح، إلخ... إنما في كيفية ترجمة هذه الدعوات الملائكية المكتملة عبر إرادة إنسانية ناقصة، عندها ستجنح إلى ما يجعل من المواءمة بين الاكتمال والنقصان أمراً مستحيلاً، ويصير نقاء الدعوة مطية لسيطرة القوي على الضعيف، أو بالأحرى، المؤمن على الكافر وكل ما من شأنه تصنيف البشر، عبر معايير، تبقى قائمة في الحكم على من يخرج عن إرادة الفئة، أو الطبقة الحاكمة أينما كانت، وحيثما حلّت.

ماركس «المنشفيكي»

إذا ما كان في الأيديولوجيا ثمة مرارة خانقة عند المثقفين العارفين بأسباب التأدلج الجماهيري، وبمؤدى استبدادها واحتكارها للأفكار بطريقة شاملة ومطلقة، إلا أن فيها وبالتأكيد، ما يصيّرها ترياقاً لسقم الكثيرين ممن تحتشد في ذهنهم تساؤلات وجودية معقدة عما

يجب اتباعه من إجابات، جعلتهم محشورين في عقيدة التابعين إلى ما تستأنس به المدارك الساذجة، كتلك التي تستجدي الوصاية من العقل العام على العقول الخاصة، وهذا بمثابة إقرار صريح بعجز هذه العقول عن أن تتبع نفسها، إيماناً بنفسها.

لذا، غالباً ما يصبح المؤدلجون «أزلاماً» مستعبدين لإيمانهم بالعقل الذي يغذي إيمانهم على استعداء أنفسهم، بالعقل الذي يعزّز استعبادهم له، استبداداً بالخارجين عن طوع ملّة العقل المستبد.

وفي هذا السياق، لربما تنبّه ماركس من دون جدوى إلى ما يمكن أن تصير إليه فلسفته، حينما أرفق دعوته الأيديولوجية بديالكتيك تساؤلاته المهمّشة من قبل قطعان ـ طوفان الحشد العقائدي، هذا الذي جرف ماركسية الشيوعيين إلى ما لا تريده شيوعية ماركس، ولعلّ معاناته من أتباعه اللاحقين هي نتيجة طبيعية لمؤدى مبدأ التبعية التي حددت هي ما يجب، وما لا يجب تبنّيه من فلسفة ماركس المنتصرة بظلم الأكثرية للأقلية (غلبة البلاشفة على المناشفة) انتصارها بأيديولوجية الشيوعيين التقليديين على ديالكتيك الماركسيين غير الشيوعيين.

لكل جيل اعتباراته

حين تتأمل في صيرورة تعاقب الأجيال، تجد بين الشباب والشيوخ مسافة أكثر من زمنية، وإلّا ما كان الآباء لينظروا بعين الرأفة إلى حماس

أبنائهم المتهور في الاغتراف الجشع لمسرّات الحياة، ولأن «شبوبية» الآباء، أو الأجداد استنفدت مرحلتها بخسائر، اتعظ منها الكبار، حكمة في توجيه شباب أولادهم نحو بر أمان زمن لا يشبه زمنهم، غالباً ما يصطدم الزمنان بعصيان الشباب لآبائهم، قبل أن يتصالحا تفهماً متبادلاً لاختلاف الظروف والاعتبارات، أو بالأحرى، موقع كلا الطرفين في زمنين مختلفين.

الحسرة على ما فاتنا

إذا ما كان رفاه الحياة يجيء من تطورها، ما الذي يمنع حسد السابقين للاحقين؟ ما هو الشيء الذي يرضي أجدادنا في قياسهم نعيم التنقل السهل في سيارات أولادهم، على الوسائل البدائية لتنقلهم الصعب، كان على الدابة، مثلاً؟ أو بالأحرى، ما نوع الرضى الذي يمنع الأجداد من الحسرة على ما كانوا يعيشونه من مصاعب حياتية، يذلّلها اليوم تطور التقنية الحديثة؟

والجواب، إن القناعة بما كان يحيا به الأجداد السابقون، وبما ستقتنع به «جدوديتنا» ربما، هي من فقدان تلذذ اللاحقين ببراءة الدهشة على ما سيصير اعتيادياً، وبالتالي مملاً عند الأبناء. ذلك أن طعم الكماليات وتذوّقها سيختلف حتماً عند تحولها إلى ضروريات؛ إنها قاعدة تفسِّر قيمة الشيء ومعناه، انطلاقاً من أثره، وإن كنتم لا تصدقون اسألوا رائد الأنتربولوجيا الحديثة «ليڤي شتراوس».

«هوسرل» طفلاً

أحسن هوسرل ترجمة مشاعر طفولته ـ طفولتي التي كنت أعتبر فيها الناس يحيون من أجلي، وبموتي يموتون، حينما كتب أن حقيقة وجود الشيء لا بذاته إنما لذاتنا... أي أنّ وجوده يتحدّد بظاهره المدرك من زاوية رؤيتنا له، لا من استقلال وجوده عن إدراكنا، وبالتحديد، إنه موجود لعيوننا نحن، وليس موجوداً بعين نفسه.

الظلم والتكريم للسبب نفسه!

إذا ما كانت الفلسفة هي من أوليات التفكير وبراءته، قبل أن يُحتجز، فيحتجب بأحجية ممنوعات ومسموحات القيم والتقاليد والأعراف الاجتماعية، فالفيلسوف الحق هو من ناضل ضد معوقات عودته لاستنباش الأسئلة المسموحة كانت في طفولتنا، والمحرّمة صارت في كبرنا.

إنه المتهم دوماً في عيون الناس بشذوذيته عن معايير الاستقامة السويّة في المجتمع. لهذا، إن سبب ظلم الفيلسوف الراهن هو نفسه سبب لتكريمه وتبجيله اللاحق.

يجب الاعتذار إذاً من نيتشه، إذا ما جنّ من فرط إحساسه المتقدم على ما كانت تحسّ به الجماعة.

حياء المرأة إغواء للصيَّاد

إن ما يجذب الرجل إلى المرأة، إغواءها له، بحياء الممتنع عن رغبة وصاله الجنسي، وهذا ما يثير فيه شبقاً فحولياً لكشف الغطاء عما يحتجب خلف حيائها من أسباب، ليست مما تعلنه أو تخفيه، إنما هي فيما تبدو عليه رغبتها لاصطياد صيادها.

حزم التواطؤ عند المرأة أقوى من عزم المباشرة عند الرجل

إحدى أهم سمات المرأة الشرقية هو التواطؤ لتمرير ما تبتغيه، وما تسعى إليه رغبتها لاختراق حواجز التقاليد الصارمة التي قولبت أنوثتها في صورة المتلقي أبداً، وهذا ما فرض عليها دهاءً مضاعفاً للتسلل من بين ثقوب سلطة الرجل، بغية التحرر من كونها كائناً لا قوّة له، ولا حول.

الامتحان النسوي للرجل

يخضع الرجل دوماً أمام المرأة إلى امتحان لتبيان مستوى مقدرته على فهم ما ينطوي عليه حياؤها من إيحاءات، يتحدّد بها نجاحه أو

فشله في قيادة دفّة الإبحار في عالمها؛ ولأن قلّة هم الرجال الناجحون في فك الأحجية ـ الرموز، قلّ ما نجد رجلاً يقود المؤسسة الزوجية.

مكمن القوة في الرجل والمرأة أيضاً

إذا ما كان حياء المرأة الشرقية من أنوثتها، فبجرأة الرجل وثبات موقفه من حيائها تتحدد قيمة أو معنى رجولته.

على هذا، ربما يقاس إعجاب المرأة بقوّة الشخصية، وإعجاب الرجل بنعومة القوة المستمدة عند المرأة من مواربتها الدائمة في الإفصاح عما تريده... وما لا تريده...، وما الغزل المتبادل ثناءً، هياماً بين العاشقين، سوى إطراء على ما تُخفيه المرأة في عيونها من دموع، يعادل وقعها رباطة جأش الرجل وعصيانه من أن يذرف دمعة واحدة على ما تبكيه المرأة.

المفارقة في العشق

يغدو بشعاً، بنظر المرأة، كل من يجرفه حبه لها إلى الخضوع لإرادتها. ولأن الحبيب لا يقدر على رفض طلبات المحبوب، فيتنازل عما عنده ويتسامح عما عند الحبيب، لتذوب شخصيته ذوباناً، يُنذر بدمار علاقة العشق التي ولدت حينما كان الحبيب موجوداً في رأيه

المستقل عن رغبات المحبوب، فالمرأة تستجدي من الرجل عشقاً مصاناً بقوة استقلاليته، أو بالأحرى، لا ترغب المرأة في استبعاد فكرة انفصال الرجل عنها، ليبقى حبها متوهجاً في النضال لوصاله.

حسابات خاطئة

إن من يحسب المرأة كائناً ضعيفاً يغرق في ضعف حسبانه.

نظرة ذكورية في عالم المرأة

تتلبّس المرأة منذ ولادتها زيّ المتلقي والمنفعل بأوامر الرجل، ولأنها تخضع إلى ضغط تاريخي، تبرع في ترجمة أنوثتها على حساب إنسانيتها، وتُبدع في استمالة الرجل إلى ملعبها حيث غموض فهمه لما هو واضح من غموضها، وتبرع في التمظهر الأخّاذ وذلك لفك أحجية ما صنعه الرجل بها.

فمخطىء إذاً، من يعتقد أن إعجاب المرأة بالرجل بعيد عن لعبة الاحتجاب والانكشاف بين الجنسين، ولأن الرجل لا يحتاج كثيراً إلى الاحتجاب وراء ذكوريته، كاحتجاب المرأة وراء أنوثتها، يغدو نظرها مركزاً على قوة انكشافه وعلى ثبات ثقته بأمان ذكورية نقية هي من تهجينات وتدجينات ذكورية الآخرين، حتى إذا ما آمنت المرأة من

أن ضعفها هو صنيعة قوة الرجل، على الرجل أن يتباهى بنفسه، لكي يحافظ على إيمانها بقوة قوته، وإلا سيغدو كائناً تعيساً.

العظماء جنود مجهولون

سقراط ـ أفلاطون ـ أرسطو، ليست أسماء لأشخاص عاشوا منذ أمد بعيد، إنما بأسمائهم احتشدت مراحل وعصور لا نفقه منها العلة التي صيّرت فعل التفلسف السببي اسماً لأرسطو، والحلم المثالي اسماً لأفلاطون، وبطبيعة الحال، الفضيلة لسقراط، لكن ماذا لو تحققنا من نتاجهم بالمنظور الأركيولوجي.

بالتأكيد لأيقظنا من بينهم الكثير من الفلاسفة المنسيين، ولأعدنا الاعتبار إلى ما نجهله عن سبب تكريم الجندي المجهول.

اللذة في الحنين

إن أفضل ما يتبقّى للإنسان بعد عجزه... قبل موته... هو اجترار الحنين إلى ما كانه وقت لم يُعطِ لوقته حينها قيمة كالقيمة التي يضفيها بأحاديثه عن الفترة المنقضية من شبابه.

لهذا، يجب أن لا يتذمّر الأحفاد من تلذّذ الأجداد بسرد الحكايا المملّة عن حياتهم التي لم يبقَ منها سوى لذّة الكلام.

فن الشهرة

إذا ما كانت الأسماء المعروفة في الفلسفة ـ الموسيقى أو الرسم، قد ظهرت نجوماً فريدة وأصيلة بعطاءاتها وتفانيها فيما أنتجوه؛ إلا أن شهرة معظمهم جاءت مما بذلوه لإبراز عطاءاتهم نقية من الأساليب الملتوية، كما لو أن نتاجهم بعيد عن الذاتية، وغيري بالتمام، وهذا إبداعٌ أيضاً.

في الاحتجاب ثقة مفرطة

إن وراء حكمة «الساموراي» هذه التي تدعو إلى «الخفة» في تنفيذ الأعمال النوعية الكبيرة، وإلى الجدية في الأعمال الصغيرة، فيلسوف عظيم لم ينل شهرة الفلاسفة المعروفين بأسماء كتبهم، ولم يحظَ شخصه باهتمام البنيويين العاجزين عن تفسير علّة القول الفلسفي ما لم يتوافر المعطى الظرفي لقائله أو لكاتبه. فاسمه لم ينل شهرة، وفي عدم نيله، نال من نقاده المحتملين ـ المتربصين.

مفهوم شرقي لزواج البنت

لـم يفهـم الكثيـرون مـاذا ينتـاب الأب مـن أحاسـيس ملتبسـة حيـال

زواج ابنته، ولا ماذا يحصل لمشاعر الأم حيال ابنها، وما فهمه علماء النفس من هذه العلاقة المعقّدة، لم يتعد نطاق التعيين لها، بوصفها عقداً نفسية (أوديب ـ إلكترا) اختزلت ما لا يمكن شمله ـ جمعه من متناقضات حسرة الأب الباطنية على قدره كأب، لا كزوج، أجبرته تحولات شبوبية طفله على التخلي عما كان يتلذّذ به، حينما كان الراعي الأوحد على ما صاره بموجب عقد القران، شاهداً على نقل مسؤولية هذه الرعاية إلى شخص غريب.

لهذا، كانت التقاليد الذكورية في العصور القديمة، قد أملت على البنت الاقتران بابن عمها، لا لأن قريبها هذا أصلح، بل للحفاظ على شيء من ملكية الأب، أو قل، للتعويض عن فقدان الأهل وخسارتهم لما يبتغون الاحتفاظ به إلى الأبد، ليس إلّا.

«نرفزة»

كي لا أفقد وظيفتي كمدرّس في إحدى المؤسسات الخاصة، كان عليَّ أن أسجد عشر مرات للشيخ... واثنتين لرب العالمين، عفواً، لرب عملي. تبّاً لهذه الوظيفة، فلست بآسف.

دعوة مرّة

إن من يستسلم لنمط التوظيف في أمتنا العربية، عليه أن يتشذّب، أولاً من عزّة نفسه ورقّة قلبه، و...، و... لكي يتهذّب بعقله وهندامه من المعوقات التي تمنع تطويع إنسانيته لإطاعة سيّد عمله في السياسة، وفي المصنع، وفي الإدارة، إلخ...

فيا مولود اليوم، ما لم تكن شاطراً في التملق والتزلّف لسيادة القيمين على قوت عيشك، ستفقد وظيفتك التي تشترط تمرساً في الخضوع لـ «سيستام» القبول ـ الموافقة ـ الملاءمة، أكثر مما تستلزم كفاءة ومهارة في إنجاز ما تطلبه الوظيفة منك.

على هذا، يا مولود العالم العربي، لا تكثر من الأسئلة عن واقع الأحوال إذا ما أردت تدبير واقع الحال، فالإجابة المرّة عند الجميع هي الصمت الحذر والخوف من بؤس قلّة الحيلة، وهذا ما يضفي على واقع الحال تعاسة أكبر من عيشنا مكبلين بالصمت الذليل والانخراط البائس في واقع الأحوال.

المفاعيل البنيوية للوظيفة

إذا ما أردنا تفسيراً منطقياً للأسباب التي توجب مدح القيم الأخلاقية لمالكي ناصية قرارهم، علينا النظر من زاوية نأي الفلاحين

عن نطاق تقديم الموظفين للطاعة المشؤومة بمفاعيلها على السلوك والتعامل مع الآخرين.

على هذا، إن تمسك الفلاح واستبساله في الدفاع عن (كرامته) كقيمة عليا في مسلكه الاجتماعي، لا يمكن أن يتوازى مع ما يمليه التكيّف الوظيفي مع متطلبات طبيعة عمل الوظيفة من تنازلات، قد تصل عند من يأتمر بأوامر سيده، إلى ما لا حدود له من خسّة، أي إلى حدّ لا يمكن قياسه على من تحرّر بطبيعة عمله المستقل، أو حراثته للأرض مثلاً من سيادة الآخرين عليه.

تحوّلات مُرغمة

غالباً ما تكبّل الاعتبارات السياسية صاحبها بمواقف، قد لا تعبّر عن حقيقة قناعته بالذي يقوله، خلال توليه لمنصب سياسي بارز، فالسياسة تقحم رجالاتها في حسابات الربح والخسارة، كما أنها تعول على النتائج أكثر من الأسباب، ولأن طبيعة عمل السياسيين تحثّهم للدفاع عن المصالح العامة، حفاظاً على مصالحهم الخاصة في البقاء على سدّة السلطة، قد لا نتفاجأ إذا ما أطل علينا كذب السياسة بهيئة رجل مغلوب على أمره في إدارة الشأن العام، فلهذه الصنعة محترفيها الحاذقين في التمثيل المسرحي.

لكن ما يثير الدهشة، في من أطلّ علينا بصورة الناقد الموضوعي

للأوضاع السيئة في السياسة، هذا قبل أن يلجأ إلى التبرير اللاموضوعي للحالة السياسية التي كلفته بمنصب سياسي جديد ـ رفيع، عفواً من المثقفين والأكاديميين وكل من تحوّل من باحث مرموق في السياسة إلى وزير مرشوق في مهب السياسة.

خيبة إيمان

إنّ كذب من اعتبرته يوماً صادقاً، قد لا يثير الاشمئزاز فحسب، إنما يثير السخط على إيمانك الخائب في ظنك حيال من لا يجب الثقة به.

لذا، عندما ينضج الوعي وتتسع المدارك، يتخلى العارفون عن مبدأ التحزب للفكرة المجسّدة في قادة الأحزاب قاطبة.

جنوبيو المدن خدم لها؟؟!!

يبدو عالم العولمة صورة مصغرة عن المدن الممسوخة، أو بالأحرى، المنسوخة بطريقة فظّة عن الغرب، فحين يحتشد جيش غفير من العاملين لخدمة سكان المدن القلائل، يُستدل من هذا على أنك تقطن بلداً متخلفاً، وهذا لا يحتاج إلى فطنة، ولا إلى ذكاء حاد لمقارنة الضاحية الجنوبية بالنسبة إلى بيروت، كما المكسيك وباقي دول أميركا الجنوبية مثلاً، بالنسبة إلى الولايات المتحدة الأميركية...!

تبرير جيد لهدف سيء

إن الارتداد على اليوتوبيات بالجملة، من جمهورية أفلاطون، إلى نعيم الوعود الدينية، وصولاً إلى ما حقّقه الشيوعيون السوفيات في تجربة اشتراكيتهم بالأمس، لا يعود إلى موت الإنسان «بالمعنى الفوكوي»(*) فحسب، إنما إلى انتصار أعدائها الواقعين في واقعية رأسمالية، تستجدي يوتوبيا من نوع آخر، أي من النوع الذي يلائم المسعى الواقعي مع ما تبتغيه أحلامنا في نظام السوق؛ وما تشنّه الدعاية الهوليوودية من هجوم شرس على مخيلتنا في زمن العولمة، هو بمثابة اقتحام سافر لآخر معقل من معاقل حرية الإنسان بعدما غدا حلمه ـ حلمنا مدجّناً ـ مدنساً بصورة ما يريده صُنَّاع القرار، وذلك بغية التخلي عن أحلام اليقظة هذه المستهدفة بالهجوم على تجربة «ملمستها» في أنظمة توتاليتارية أدت إلى تشوّهات إنسانية، شوهت حاجتنا إلى التحرّر من واقعية نظام ـ اقتصاد السوق.

لقاء مستحيل

تخيّل أيها القارىء ماركس وقد استفاق من قبره بعد مدّة، أي بعدما

(*) اعتبر فوكو أن الإنسان قد مات حينما اتضح وجوده كأسير لاعتبارات المنشأـ اللغة ـ التربية الخ...

اتُّخذ فكره عنواناً فلسفياً لتطبيقات التجربة الاشتراكية السوفياتية، ماذا سيقول يا ترى؟

ماذا سيفعل؟ أو ما هي ردة فعله المنتظرة على ما يجري في موطن الاشتراكية المزعومة؟

لربما، لن ينبس ببنت شفة، حتى لا يجد نفسه معتقلاً أو منفياً بسبب نقده للذي كان لا يريده ولا يحبّذه، وقد يحزن لتعارض شيوعيته المأمولة كانت، مع شيوعيتهم المتحققة صارت، ولعلّه قد ينطق بكلمة أخيرة قبل رحيله، وهي أن أوصياء الماركسية السوفياتية قد نسوا جدله فأطاحوا بماركسيته عن بكرة أبيها. ولعلّ هذا هو مآل كل الدعوات التاريخية عند أتباعهم كافة.

تماثل حال الخلّاقين

بين تصوف «نيكوس كزانتزاكيس» وخفة الكائن التي لا تحتمل لـ «ميلان كونديرا» ثمة مسرح لشبح وجودهما القلق من العدم؛ إنّه ملاذ التوّاقين للانطفاء، لا الانتفاء. إنه فضاء المبدعين، المؤمنين بالذي لا يؤمن به عامة المتدينين بدين غيرهم، السؤال: هل سيغدو لهؤلاء أتباع؟

حتماً لا، لأنهم أرجأوا الإجابة بتعليق السؤال عبر استرسالات، أو بالأحرى، استطرادات مستقبلنا المؤجل أبداً، فإذا كان لن يصبح نبياً من أناب نفسه، عن نفسه، بنفسه، لنفسه، ستبقى حياة هؤلاء في وحدتهم؛ ولنضف إليهم نيتشه أيضاً.

سوداوية المثقف

لمن الصعب جداً أن يصغي العارف إلى ما يتفوّه به غير العارفين بالذي يعرفه، أو بالذي يقتصر إدراكه على من يمتلك حساً نخبوياً خاصاً بالمبدعين القادرين على فهم ما لن يفهمه عامة الناس في انبهارهم مدحاً وتعظيماً لهذا القائد، أو ذاك الزعيم، كأن تجد نفسك محاصراً بسيل من المواقف والآراء المتفقة بالإجماع على مدح ظاهرة لا تجدها أهلاً للمدح ولا للثناء، وهذا ما يضطرك إلى مجاراتها بالصمت الممتلىء حسرة على ما تواجهه من قمع الجموع الغفيرة ومحاصرتها لفردانية رأيك الساخط على مرارة قبول السواد الأعظم بواقعهم السوداوي. واسألوا نيتشه إن كنتم لا تصدقون.

نطاق مخاطبة السياسي لا يستهوي المفكر

بين من يتقن فنّ الخطابة لإظهار كلمته، ناطقة بلسان حال جموع المحتشدين من جهة، ومن لا يحسن فن مخاطبة الوعي السائد للناس من جهة ثانية، ثمة مسافة، كالمسافة التي تفصل السياسي عن المفكر في السياسة وفي غيرها، ففي حين يخاطب السياسي الأحاسيس الكامنة عند العامة، وذلك لاستنباشها باستثارة ما يهمسون به خفية، وهذا ما يدعوه إلى استعمال أدوات التدغيم والتشديد الواثق بصحّة ما

تقوله عدّة النصب السياسي، يحاكي المفكِّر، «ما يلزم» و«ما يجب»، بغض النظر عن مطابقته أو موافقته لوعي الناس المتخلفين والعاجزين عن تذوق طعم جهلهم بجديد المفكر وإبداعه ،هذا ما يدعوه إلى حثّهم على تخطّي وعيهم بالذات.

من هنا، سيستمد ـ يمتص السياسي نجاحه الجماهيري من حيث يفشل المفكرون في أن يغدوا سياسيين، أو قادة مباشرين لجماهيرهم.

فنّ الخطابة ملكة سياسية لا فكرية

ما هو سرّ فقدان معظم المفكرين لملكة السرد الخطابي الرنّان، بينما هي متوافرة بقوة حضورها عند معظم السياسيين غير المفكرين؟

لربما كان تركيز السياسي على توفير مستلزمات العدّة السياسية، قد أملى عليه امتصاص وتطوير ما يعزّز سيادته وسلطته على الجماهير، على حساب تفكيره وتفكره بالمصالح الاستراتيجية للجماهير، في حين أن انشغال المفكّر بالغوص إلى عمق القضايا، هو دوماً على حساب فن مخاطبة عقول العامة وغرائزها، وهذا ما يجعلهم أحياناً زاداً للسياسيين.

فأيهما يجب أن تختار إذاً؟

صورنا معلقة على جدران المجتمع!

إذا أردت أن تعيش بأقل خسائر ممكنة، عليك الخروج من إطار الصورة التي رسمها لك محيطك الاجتماعي من خلال سمات دمغت رسمك بالذي يريدونه أو يستحسنونه هم فيك ـ لك، لا بالذي تهواه أو ترغبه في شخصك، فللأستذة زيٌّ عليك أن تلبسه، وللمدير حضورٌ عليك أن تمتهنه، وللسياسي هيبة ـ طلّة عليك أن تمثلها، وللعامل خضوع ـ عليك أن تقدمه إلى رب عملك عند كل طلعة شمس. و...، و...

إنها شروط لنجاح كينونتك الاجتماعية على حساب وجودك، أو بالأحرى، كينونتك الإنسانية، وغالباً ما يصطدم أمر ما يريدونه مع ما تريده أنت، عبر صراع سيكولوجي قاس، يطفو على السطح إما بانتصارهم فيك على ما في ذاتك ـ ما في داخلك، لتغدو كائناً اجتماعياً مستقيماً، وإما بانتصارك على ما فيهم، على ما فيك من تقاليدهم، لتصبح شاذاً متمرداً وغير سويّ، ولأن بينك وبينهم ثمة مساحة للعبة التزيف والتمظهر، من الأجدى ألا تُستلب إلى ما يريدونه كيلا تخسر نفسك، وألا تتسق بالمطلق مع ما تريده، كيلا تُتَّهم بالجنون.

الموت مصير وليس تجربة!...

كيف لنا أن ندرك ما يشعر به الإنسان وهو يحتضر؟ فمهما قيل وما سيقال عن هذا الأمر، تبقى العبرة في التجربة، تجربة لن تتكرر أبداً.

المبادرة هدف إنساني في فلسفة شكسبير

عبّر شكسبير بحسّه الفنّي الراقي عن مسرحية حياتنا المنشطرة هماً حائراً بين ما نتوق إليه، وما هو عليه حال توقنا، بين ما نريده، وما لا طاقة لنا على رفضه، بين ما تربينا عليه وما نتشوّق إليه، وبالتأكيد بين ما نحلم به وما نعيش فيه؛ فأوجد شبح هاملت ليخبرنا الخبر اليقين، كي نحسم أمر تأرجحنا بين (البينيات) ـ (الخيارات)، وذلك، كي نُقدِم بعزم وإصرار على الخروج من دائرة ترددنا وحيرتنا التي وسمت حياتنا الاجتماعية.

«نكون أو لا نكون» هي المسألة التي تحدّد فعل كينونتنا كأبطال فاعلين على خشبة مسرحيتنا اليومية، لا أناساً منفعلين بالمشهد المسرحي للآخرين.

بداهة حضارية «منسية»

إذا صحّ ما يزعمه الساسة الأميركيون من أن مواقفهم إزاء «الغير» تأتي بموجب الدفاع عن قيم أمتهم، يجب علينا ألا نتفاجىء إذاً، من عدوانيتهم وتدخلهم السافر في شؤون الأمم الضعيفة، لأن قيام الولايات المتحدة الأميركية، تأسس على جماجم سكانها الأصليين (الهنود الحمر)، وإذا ما تذكرنا هذه البداهة، على الأمم الضعيفة أن تناضل وتواجه هذا التدخل بشراسة وحكمة، كيلا ينتهي مصيرها إلى ما انتهى إليه مصير الهنود الحمر.

السياسة ليست موجودة بذاتها إنما لذاتنا

في الدولة التي يوجد فيها من لا يفقه اسم رئيسه، دلالة على أنها ليست مملوكة إلى زعيم مبجّل، إنما محكومة بسيستام معقّد من القوانين والأعراف الرامية إلى الحفاظ على شيء من مصلحة المواطن اهتماماً بما يعنيه، لا انشغالاً بما لا يعنيه في السياسة.

أما في الأنظمة التي يغرق مواطنوها في وحل السياسة، هذا يعني، أنهم مهتمون في البحث عن مخرج لأوضاعهم البائسة من السياسة.

لذا، نجد الغربيين أقل تسييساً من العرب التواقين إلى الراحة من تسلط سياسة الخارج والداخل عليهم.

المسؤولية شعور بالملكية

لماذا لا يحرص مواطنو العالم المتخلف على حماية وصيانة مؤسسات الشأن العام في دولهم المزعومة، كأن يهتموا بنظافة شوارعهم مثلاً، أو بتفعيل المؤسسات العامة؟

البعض، يعزو السبب إلى فقدان الحس الوطني عند المواطنين، والبعض الآخر، إلى انعدام التربية الوطنية الصالحة لتعزيز وعي المواطن بأهمية الحفاظ على ممتلكات الدولة.

لكن، ما غاب على «البعضين» هو أن الحس الوطني يُبنى بالأفعال لا بالأقوال؛ فجوهر العلّة يتمثل بعدم إحساس المواطن بملكيته لممتلكات دولته المزعومة.

فالمواطنية لا تقوم على الوعظ الأخلاقي في دروس التربية الوطنية، ما لم تُرْفق بأفعال الرؤساء حيال مؤسسات القطاع العام. فإذا ما تحدد معيار التوظيف، لا بالكفاءة، إنما بواسطة هذا المسؤول أو ذاك، وإذا ما كانت القيادة على الطرقات العامة مسموحة لنا، فقط في حال عدم مرور موكب المسؤول، عندها لا تطلب ممن تحجب عنه حقوقه بأن يحرص على ما لا يشعر بملكيته، كأن يحافظ على الشارع، أو على المدرسة، أو على حسن سير أية مؤسسة حكومية، أو...، أو...، لتغدو قاعدة التعامل «عليّ وعلى أعدائي يا ربّ».

ديالكتيك أعوج

إذا ما نظرت في وجوه زعماء العالم العربي وهم مجتمعون في قممهم العتيدة، قد لا تشعر حيالها لا بالأخوة ولا بالمشاركة ولا بوحدة المصير والمسار كما يدّعون، لا لأنك لا ترغب بذلك، بل لأنك ترى في سيماهم ما لم تصرح به خطاباتهم، وتسمع عن أفعالهم ما لم تعلنه أقوالهم، فلكلٍّ كرسيّه المقدّس، ولكلٍّ اعتباراته للمحافظة على ما أجلسه على كرسيه.

إذاً، المبدأ الجدلي في علاقة الحاكم العربي برعاياه، خاطىء هنا، لكنه يصحّ على علاقة حكامنا المحكومين من رؤسائهم الأميركيين، وهذا ديالكتيك أعوج، يلزمنا تصويبه.

الدقّة في التعامل مع عصيان الشباب

في الحرب تزداد رغبة الشباب في كسر قوالب الحياة التقليدية، بحماس، يتسق مع قدرتهم في التلذذ بما لا يقدر عليه المسنّون، ولأن في الحرب ثمة ما يسمح بتفريغ «الليبيدو» المقنّن في الأحوال السلمية، يجد الشباب في الحرب مساحة ملائمة للتخلص من معوقات هيجانهم التمردي والثوري هذا الذي يجنح نحو فوضى، ليست هي الهدف، إنما هي السبيل الأمثل لاحتواء حيويتهم المتوقدة بأكثر مما يحتاجه

الاستقرار في أي نظام كان، سياسياً ـ اجتماعياً وأخلاقياً، إلخ...

لهذا ننصح من يريد توظيف طاقة الشباب في الحرب كما في السلم، أن يغض الطرف عما يرتكبونه من معاص تمردية معقولة، أو بالأحرى، أن يراعي شيئاً من جنوحهم الطبيعي نحو التمرّد، ريثما ينضوي جنوحهم في الاتجاه الذي تقرّره العقول الراجحة.

في الموت تابو أكبر

تتواضع جميع «التابويات» أمام تابو الموت، إذ إن الخطر المحدق بحياة الشخص، يجعله بحل من كل القيم التي تنتظم بعرفها النظم الاجتماعية للإنسان، فعند تابو الموت تنكشف الحقيقة المغطاة، من أن الإنسان في الأصل حيوان شرس بطبعه.

التأريخ مقاربة لا مطابقة

في الكلام عن الإغريق ـ الرومان ـ الفرس وحتى قدماء العرب، يتفوّه الحاضرون بأحكام تقويمية لن تتطابق مع ما كانه أصحاب تلك الحضارات في ظروفهم وأوضاعهم تلك المعلوم عنها الشيء الذي لا يميط اللثام عن كل أشيائهم، وبين المعلوم والمجهول ذاك، مساحة شاسعة لتقدير ـ تحليل ومقاربة البحاثة التاريخيين الذين قد يصنعون ما لم يكن موجوداً في التاريخ.

كرة ثلج أيديولوجية

تتشكل الأيديولوجيات التاريخية عادة، من علائق انسيابها في مجرى الأحداث التي تواجه أتباعها اللاحقين، فلا المسيحية مسيحية صافية، ولا الإسلام إسلام نقي، ولا حتى الماركسية أتتنا من ماركس وحده، ولأن رموز هذه الدعوات هم عرضة لتفسيرات وتأويلات أتباعهم المجبرين على توليف الأصل بالاستجابة إلى الضرورات والمستجدات التي لم تكن في الأصل، اقتصرت وظيفة الأوائل على ما أطلقوه من دعوات، أضحت بمثابة كرة ثلج تدحرجت عبر عقول العقود التاريخية، فلمَّت معها، وجمعت كل ما صرنا نعرفه عن الأديان السماوية والأرضية.

فالبذرة مغطاة دوماً بثمرة نضجها المتمرحل، قبل أن يتعفنها انقضاء الزمن.

زيارة المعالم الأثرية حنين إلى أثر القدماء لا إلى أجسادهم

إن هوس الشعوب الأوروبية بزيارة المعالم الأثرية القديمة في حضارات الشرق الغابرة، ليس من باب التعويض عن حداثة دخولهم في التاريخ فحسب، إنما لإحياء الحنين إلى ميتافيزيقيا الأثر القديم، بعدما أماتوا ميتافيزيقيا الجسد القديم.

تأمل وجودي

حينما يدخل الزائر باب قلعة بعلبك الأثرية، لن تبهره ضخامة الأعمدة الدالّة على قوة الرومان وجبروتهم، كما أنه لن يشتم رائحة روحهم في منحوتات فنِّهم القديم، فحسب، فهذه تحثّه أو تبعث به إلى التفكر بصغر وجوده وتفاهة لهاثه وراء ما سيغدو أثراً منسياً عند الأجيال القادمة.

نسيان ما يجب

لو أدرك المتدينون، أن ما يمارسونه في شعائرهم وطقوسهم، وحتى في معاملاتهم، هو تقليد للأتباع من فقهاء أئمة وعلماء، أكثر منه امتثال لتعاليم الرسل، لاقتدوا برسلهم لمتابعة ما اتّبعه الأتباع من تحكيم عقلي للدين، في كل ما يجب أن نقوم به اليوم.

أخلاق الفلسفة عند سقراط

لم يكتب سقراط فلسفة تدعو إلى الفضيلة، إنما فضيلة أخلاقه حثت تلامذته على كتابة سقراط، فلسفة للفضيلة.

حكمة ماركس

الحكمة في أن تعرف نفسك بمرآة غيرك، مات ماركس قبل أن يقولها، فقالها الماركسيون البنيويون.

الإسكندرية مدينة لأرسطو

إذا ما صدق رواة التاريخ، من أن الإسكندر المقدوني قد تعلّم على أيدي الفيلسوف اليوناني الكبير أرسطوطاليس، فالموقع المميز لمدينة الإسكندرية إذاً، لهو شاهد على ذوق أرسطو ومنطقه، أكثر مما يدل على جبروت الإسكندر وبطشه.

كيف تدشنت الفلسفة مع الإغريق

دشّن الفلاسفة الإغريق مساحة غير مسبوقة في التفكير العقلاني بعلّة الميتافيزيقيا، فكانت تفسيراتهم سبباً لميتافيزيقيا التأمل بـ«مابعد» و«ماقبل» وجودنا المتحقق في واقع متغيّر أبداً، فمن بين ثبات العلّة السببية ومتغيرات معلولنا الواقعي، انبثقت مثالية أفلاطون صرحاً فلسفياً أدهش عقول المعاصرين بقدرة هذا الإغريقي في الإجابة المنطقية على ما لا منطق له، حتى إذا ما قصد من جمهوريته المثالية

توفير حيّزٍ ملائمٍ لإحقاق الفضيلة الأخلاقية لأستاذه سقراط، جاء أرسطو لتقويض دعائم التفكير الأفلاطوني، عبر تشييده منهجاً واقعياً دعا من خلاله إلى تفكيك مغالط الارتكان على الإجابات المطلقة في كل التصورات التي آلت حينها إلى انقسام الفلاسفة إلى حدّين: التصور المثالي لأفلاطون، والنقد الواقعي لأرسطو.

تذكّر أن «ألمانيا» أمّة مميزة

بالرغم من نقد نيتشه اللاذع للأمة الألمانية على ما لم تفعله لتصويب ذوقها في الفن والفلسفة، إلا أن في نقده ذاك ثمة ما يبطّن غروراً استعلائياً في ذمِّه لما يجب مدحه في أمة،أنجبت علاوة على عبقريته الفذّة، موزار ـ باخ ـ بتهوڤن ـ ماركس ـ أينشتاين ـ نيوتن وغيرهم ممن أنقطعت سلالتهم عند ألمان اليوم.

الكبار يحرصون على مشاهدة «برو فا» موتهم

لماذا يحرص كبار السن على واجب المشاركة في تشييع الجنازات؟

لن تحار في الإجابة على ما قد تسرّبه إلينا وجوههم، كونهم ليسوا هم الأموات، ولربما يبغون الاطمئنان على ترتيب حملهم ـ تشييعهم المؤجل، بوقار سيرهم المؤدّب وراء «بروڤا» موتهم.

المفارقة في الإبداع

من يتّصف بالذكاء هو الذي يتفرّد بالنظر المتمعّن الهادىء في أسباب الغضب الذي يعمي بصر وبصيرة الجموع المُهتاجة بعدوى التكافل العدائي ضد من لا يشاركها الموقف والرأي من الآخر؛ لهذا، ربما يحيا المبدعون مرارة إخفاقاتهم في الإنتماء إلى ما تحيا به كل جماعة، لا تفقه ماهية الإبداع، لكونه تخطّياً لمسيود وعيهم ومشاعرهم تجاه ما لا يقدر المبدع على مشاركتهم إياه، وذلك لكي يُبدِع ما لا يقدِّره السواد الأعظم من الناس.

لكل منا مفتاحه

لكل امرئٍ بابٌ مغلقٌ على دفائن سيكولوجية يخاف المجاهرة بها، مخافته من افتضاح ما يعتقده سراً في حياته، ولأن لكلٍّ أسراره الكامنة خلف ما تصرّح به أقواله؛ فمفتاح الشخص هو من باب الولوج إلى مابعد المتعيِّن في ظاهر أقواله التي يعمل بها إلى إقصاء حقيقته مما تعلنه أو تتمظهر به مزاعم أقواله.

لهذا، نجح فلاسفة الريبة (ماركس ـ نيتشه ـ فرويد) في الهيمنة على تفلسف من أتى بعدهم، نتيجة افتضاحهم للأحجية الاقتصادية ـ الأخلاقية والنفسية تلك المتخفية في ميتافيزيقيا معارفنا عن تلك الميادين، كما لو أنها كذلك أبد الدهر.

انطلاقاً من هذا، لم تخرج فلسفة مابعد الحداثة بعد من نطاق التأثر بأستاذية هؤلاء العظام، فأبقتنا تلامذة في مدارسهم النجيبة.

الصداقة تفضي إلى مصالحة المصارحة

تريد أن تكسب صداقة شخص ما، عليك أن تخاطب المقصي من وعيه، بودّ العامل على كشف وإظهار ما يخفيه، كما لو أنه مخفي فيك أيضاً، عليك ألّا تتفاجأ ولا تُصعق مما يفضيه إليك من الأسرار والرذائل، التي يعيشها وخزاً لضميره المؤرَّق من فصام انجذابه إلى مغريات الممنوع الاجتماعي، من ناحية، وابتعاده عن التزامات المسموح الاجتماعي، من ناحية ثانية.

هكذا يطمئن الآخر إلى صداقتك، اطمئنانه إلى ما أفضاه إليك، من أجل مصالحة العذابات التي تتصارع فيه خصاماً بين ما يجب أن يكونه...، وما لا يستطيع أن يكونه...!

كي لا ننسى حالنا

لكي يتخلص المرء من هوس قرفه، ذكّره بما سيؤول إليه افتراض تحلّل جسده، بعد موت مفاجىء، وإذا لم يعتبر، ارغمه على أن ينظر إلى ما يمكن أن تكون حاله في صورة إحدى الجثث المنسية فوق التربة أسبوعاً كاملاً، فكيف والحال تحتها؟

السياسة ضد المشاعر

السياسة لا تقهر عديمي الإحساس أبداً، لأنهم هم ساسة القهر والتسلط على من يستشعر بنفسه ألماً مريراً من أوجاع ضحايا الحسابات السياسية؛ فلا تصدّق إذاً، سياسياً يدّعي تذوق الشعر، ولا شاعراً ضليعاً في السياسة.

إلى المثقفين المكتئبين

الناس نوعان، من يُمارس السياسة، ومن تُمارس عليه السياسة، فاختر في أي جهة أنت، ولأي فريق تنتمي، لأن في الملهاة هذه، قد تخفّف من سوداوية فهمك لهذه اللعبة السخيفة.

فصل أخلاقي

إنّ التنظيمات الاجتماعية بتقاليدها وأعرافها، هي بمثابة عصارة تاريخية عن ماهية وعي الإنسان لما يجب أن يكونه؛ ولأن ما يجب أن تكونه إنسانيته، تتعارض، ربما مع كينونته الحيوانية، صنع البشر معايير للاستقامة، ووضعوا أسساً للالتزام بالممنوع والمسموح، بغية تدجين الفطرة الإنسانية وتشكيلها في أنماط صارمة لقياس، أو بالأحرى لتمييز السلوك السوي عن غير السوي.

إذ إن حثّ البشر على الانخراط بما أُريد أن ترتسم به شخصيتهم منذ الطفولة، أضفى على مراد الأقوياء (الأهل ـ المدرسة ـ المجتمع) طابعاً ميتافيزيقياً، لكي ينسى الفرد صيرورة براءته الأصلية؛ بعدما أُرغِمت شخصيته على أن تتسق بتشوّهات فهمنا ـ فهمهم لتوجهات التربية المنمطة بأخلاقهم المنقولة إلى الأجيال اللاحقة بصرامة.

لهذا، انكبّ نيتشه على تعرية الطابع الميتافيزيقي للأخلاق، بكونها نتيجة لتسلط الأقوياء على الضعفاء، باعتبارها من مؤدى تعقيدات الصراع بين الغرائزي والعقلي، الفطري والمكتسب، السابق واللاحق، بين حرية الفرد وضرورة اجتماعه، وهذا ما آل إلى أن تتشوّه معارفنا عن حقيقة ذاتنا، هذه التي تغلفت بآراء وتفسيرات تاريخية جعلت بساطتها مخفية، بكل بساطة، عن العيون.

معرفته ــــ ومعرفتك بالعدو تؤجل حسم الصراع

انتصار العدو لا يقتصر على أسباب تفوق قوته العسكرية، إنما من معرفته لما تكنه في سرّك من خطط ونوايا تجاهه؛ أو بالأحرى، لعلمه بما تعرفه عنه دور مؤثر؛ لهذا، تطول الحرب حينما يدرك طرفا الصراع نوايا بعضهما البعض.

على هذا، إذا كان الفلسطينيون قد تمرسوا على فهم اللغة البراغماتية لسياسة الإسرائيليين الذين خَبِروا هم أيضاً في احتلالهم

للأرض، ماهية الشعب الفلسطيني، فهل من أفق لنهاية هذا الصراع التاريخي حتى ولو تمّ إرغامهم على توقيع اتفاقيات سلام لتأجيله؟

كذبة التحالف بين الأقوياء والضعفاء

إذا كان يستحيل التحالف بين قوتين متكافئتين، ماذا يعني التحالف الجبهوي بين أحزاب مختلفة المواقف، وتيارات متعددة الاتجاهات؟

في هذه الحال، علينا النظر بعين الشك في صدقية التنظير السياسي لتحالف الأحزاب الضعيفة مع الحزب الأقوى والدول الصغيرة مع الدولة الأكبر، فالأقوى هو المستفيد الأكبر من لمّه شمل العائلات الصغيرة، وتوليفه لتناقضات الضعفاء في إطار دعائي واسع يظللهم به تحت أجنحة إرادته لتقرير الأنسب والأفضل له... ولهم...، فبالقياس إلى هذا، كيف لنا تقويم سياسة حلف وارسو بالأمس قبل انهيار الاتحاد السوفياتي، والحلف الأطلسي اليوم مع تفرد أميركا بزمام الأمور؟

بربرية القرار تستلزم لباقة في التصريح

من يتخذ القرارات السياسية، ليس هو نفسه من يصرح عنها، ذلك أن التصريحات تستلزم لباقة أخلاقية يفتقدها من لا يرى البشر سوى قطعانٍ يجب سوقها إلى ما تمليه عليه منفعة قيادتها نحو بيدر

المصارعة، في حين أن الدبلوماسية هي فنّ التعبير ـ التصريح عن قطع الرؤوس بأدب واحترام، كما لو أنها خدمة للرؤوس المقطوعة.

هكذا يتقاسم أصحاب النظام الليبرالي الديموقراطي في أميركا الأدوار بين بربري يقرّر في أروقة البيت الأبيض أو البنتاغون من جهة، ودبلوماسي يجتهد في تلطيف الأوامر اللاأخلاقية لأصحاب القرارات الفعلية تلك، من جهة ثانية.

«فشّة خلق»

حين يرى الأميركيون رئيسهم جورج بوش الابن وهو يلاعب كلبه بحنو ورأفة، بعد جولة تفقدٍ لجيشه العائد لتوّه من حربه ضد الإرهاب في أفغانستان، ولربما العراق غداً، وإيران بعد غد، ألا يستفزهم تبختره مع كلبه في حديقة البيت الأبيض باستعلاء رجل مهندم، ألا يثيرهم استكباره في موقع لا يليق بمنظره الذي يبعث على السخرية من سمات وتقاسيم وجهه المشؤوم، الذي إن دلّ لا يدلّ إلا على ما يطفح به كرهنا لتبجحه بملاحقة الخارجين عن قانون عدالته، وإذا أردت أن تفهم عدالته جيداً، فما عليك إلا أن تعاقب بصرك بالنظر إلى صورته، وأذنيك بسماع صوته من على شاشة التلفاز وهو يمدح رجل السلام شارون، بعد أن أثبت هذا الأخير مسالمته وتسامحه حيال الشعب الفلسطيني في مجزرة «جنين» التي لم يجف دم أطفالها بعد. عفواً، نسينا مجزرة صبرا وشاتيلا.

وهنا، قد يخطر على البال سؤال للأميركيين، أما زلتم تجهلون أسباب كره العرب لكم؟ أما زلتم تبحثون عن إجابة؟ ألا تشعرون بشيء من كراهيتنا ـ تقيؤنا على بؤس هذا التحريف والتشويه الفظّ لحقائق، انقلب فيها الجلاد إلى ضحية، والإرهابي إلى مسالم؛ إن ما يخفف من سخطي على هذه الحال، هو معرفتي بأنه هكذا يُهزم المنتصر، أي بأمثال بوش الذي أعمته قوته عن النظر في أسباب قوته.

حكمة أوروبية؟

قال شكسبير: ألا هكذا يجعلنا التأمل جبناء؟ ذلك أن من يفكر ملياً بالأمر، يتمهل في الإقدام على تنفيذ مغامرة قد تودي بحياته، ومَنْ يحتاط جيداً هو من يحتسب مِنْ خطر مفاعيل خطوته عليه.

هكذا ترتقي أوروبا في تطورها بخطوات حكيمة واثقة من مواقفها السياسية المتربصة بعنجهية «الصبينة» السياسية للمراهقة الأميركية.

حضارة بشعة

لكي تفهم روابط العلاقة التحالفية بين أميركا وإسرائيل، عليك أن تتوغل في أسس نشأة الكيانين، لتجد قيام الدولة الأميركية قد انبنى

على جماجم الهنود الحمر، أصحاب الأرض الأصليين، تماماً كما تُبنى إسرائيل على جثث الشعب الفلسطيني اليوم. فمن الطبيعي إذاً، أن تدعم أميركا إسرائيل باعتبارها تُشكِّل امتداداً حضارياً لها.

حكمة عتيقة

ما تحبه المرأة في الرجل، هو ما تكرهه في نفسها، فحاذر يا أيها المحبوب من أن تضعف أمامها.

تأثير الموقع في الفاعل والمنفعل معاً

في الموقع القيادي طاقة، لا تُستمد من إرادة الذات، بل من طبيعة علوّه عن المستوى الانفعالي للجماهير المتلهفة لمبادرات ومقررات فاعلة في شؤونهم المعيشية، الأمر الذي يجعل من أصحاب المناصب الرفيعة ممتلئين ثقة لمعرفتهم بالذي لا يعرفه عامة الناس، هؤلاء المتلهفين إلى أجوبة عن أسئلة قد لا يفقه منها المسؤول شيئاً؛ ومع ذلك، يُجيب عنها بثقة المقتدر على عرفان ما آلت وما ستؤول إليه أمورهم بنتيجة تسلمه زمام شأنهم.

فالناس ينسون أن القائد ذاك، مشتق من صفوفهم، ومنشق عنها، كما لا يعلمون بأن قوة قيادته مستمدة من جهلهم بالمستوى الوضيع

لإمكاناتـه المُكبَّـرة والمُعظَّمـة بعدسـة موقعـه أو مركـزه المُحـاط بهالـة، لإقناعنا بمـا لا يمكـن أن يقنعنـا بـه زميـل لنـا.

ولكي تُصدِّق انتظر صدفة ما أو فرصة، لكي تتحول من مستمع لهم إلى قائل بهم، أو لكي تنتقل من بين الحشود الغفيرة إلى منصّة الخطاب بالجماهير العريضة.

لا يسع الغريق التفكير بسبل إنقاذ نفسه!!

إن من يتخبّط في لجّة ماءٍ، لا يستطيع أن يرى نفسه، من الزاوية ذاتها التي يراه فيها الآخرون، ولا يقدر على التفكير بوضعيته المستلبة هماً للخلاص، ليس إلّا.

بينما الناظر إليه من على الضفة أو الشاطىء، يُتاح له مشاهدة تمأزقه بتمعن، بغية إنقاذه عبر سبل هادئة لا يعصف بها هياج الغريق؛ على هذا، كل منا يحتاج إلى الخروج من أزماته ومشاكله عبر النظر إلى ما يقوله الآخر فينا، أو بالأحرى، من النظر إلى أنفسنا عبر مرآة الآخر، حتى ولو كان في نقده لنا شيء من المغالاة، لا بدّ من أن نأخذ ملاحظاته مأخذ الجدّ لكي نتخلص من علائق تخلفنا الحضاري؛ ذلك، أن الموضوعية صفة للنظر المحايد من على مسافة بعيدة. فالسؤال الذي ينبري في هذا السياق، أيمكن نقض الاستشراق كله باعتباره متحاملاً علينا؟!!

صيغة تكافل لم تُنْجَزْ...

أنجع علاج للسوداوية، مشاركة الناس بياضاتهم، إذ إنَّ الفردانية الأوروبية إنجاز يتباهى به الغرب حيال المجتمعات الأبوية...، ورغم أنها أعطت للفرد هامشاً فعّالاً لحرية ضرورية، إلا أن فيها أدران كآبة تجتاح الكثير ممن لا يحتاج إليها، ولا ينتفع بها، فالناس لا تشعر بالدفء إلّا بالمشاركة والانتماء إلى ما يجعل من تكافلهم دواء لداء فردانيتهم.

أمن الممكن إيجاد صيغة مثلى لاستعادة الفوائد السيكولوجية للحياة القبلية، عبر المحافظة على ما تمّ إنجازه من حرية التعبير الفردي في الأنظمة الغربية؟ سؤال صعب، ينتظر فيلسوفاً، لم تلده أمه بعد.

ليس عداء للسامية

ما يحيِّر المراقبين الدوليين، جهلهم بالأسباب الكامنة وراء سرّ ازدياد عصبية الطائفة اليهودية، في أكثر المجتمعات الأوروبية قدرة على إعادة دمج الغرباء وتذويب اختلافاتهم ضمن بوتقة مجتمعية، طالما تغنّى أصحابها (أحفاد الثورة الفرنسية) بإنجازاتها الإنسانية المُسندة إلى مبدأ فصل الدين عن الدولة لحماية التعددية الثقافية والدينية.

ولأن المجتمع المدني في الغرب، كان قد سمح بحرية التعبير والتحزب، استغل اليهود هذه الحرية، لإحياء عصبيتهم الدينية، مواربة، عبر التسلل الممنهج إلى المراكز ـ المواقع المؤثرة جداً في صنع القرار السياسي هذا المسُتلب إلى اعتبارات المنفعة الاقتصادية والدعاية الانتخابية. وكلاهما في أيدي اللوبي اليهودي الذي صار يجاهر علانيةً بهويته الدينية من خلال دعمه السافر للكيان الصهيوني؛ أما لماذا بقي اليهودي يهودياً على هذا النحو، في الوقت الذي خفتت فيه عصبية المسيحيين... والمسلمين مع وقف التنفيذ؟ لربما يعود السبب إلى انعدام مبدأ التسامح والقبول بالآخر في ديانتهم، أو لعله، نتيجة إحساسهم بغبن أفضليتهم كشعب اللَّه المختار، فكان لكمونهم التاريخي بعد أن اضطهدتهم السلطات المتعاقبة تلك التي ضاقت ذرعاً بتكبرهم واستعلائهم على العالمين، أن تحول إلى قنبلة افقجرت للثأر التاريخي من البشر أجمعين.

كرسي الاعتراف

إذا ما كنت محموماً بإخبار ذنب يؤرقك، فاذهب واختر أن تفضي به إلى شخص يتسع صدره لسماعك بحكمة العارف. إنَّ لكلٍّ منا ذنوبه.

صرخة نيتشه تحذير لنا من السير إلى الهاوية

الاكتئاب يصيب أفراداً حلموا، فأيقظهم حلمهم من سبات التسليم بمشيئة قدر إنساني ـ إلهي لصيرورة وسيرورة القطعان البشرية، المنساقة برضى الإيمان لما آلت إليه حالهم القانعة بما لا يُقنِع حال الناظر إليها، وإلى مرعاها من قمة معرفته بأسباب خنوعهم إلى ما هم فيه.

لهذا، راح نيتشه يصرخ من أعلى التل إلى القعر، علّ في صدى وادينا ثمة ما «يُجفلنا» فيوقفنا عن السير إلى حافة الهاوية.

لعنة تمرد العبقري على استقامتهم

لحياة البشر مستلزمات، لا تتعدى شروط المعرفة بتقاليد ـ أعراف ـ عادات ـ قيم...، تُشكِّل كلها معايير للاستقامة الاجتماعية، وكل من زادت معرفته عما يتبعه الناس في حياتهم الاعتيادية ـ الطبيعية، ازداد تشكيكاً «بطبيعيتهم»، ليخرج بالتالي عن مسار استقامتهم إلى حيث سوداوية تفرّده بمعرفة، لا يشاطره فيها، إلّا قلة ممن يعيش فردانيته أيضاً.

فكم يستطيع المبدع أن يصمد؟ وإلى أي حدّ هو قادر على مواجهة سوط الأحكام المبرمة بحق تمرّده على ما تحيا به الجماعة، كي لا يجنح أكثر فأكثر نحو ما أُصيب به نيتشه من هذيان جنوني؟

ضلال التحليل

فذلكة التحليل والاجتهاد قد تؤَوِّل ما يجري بأكثر، أو أقل مما يجري في واقع الأمر، وقد تجعل من موضوع النقاش علّة للاسترسال بعيداً عما ندّعي تناوله؛ لذا، غالباً ما يقع سجال المؤدلجين في مطب الخلط بين إسلام الشافعي وإسلام الرسول، بين ماركسية لينين وماركسية ماركس، وقس على ذلك، الكثير مما يتمّ تناوله بالجملة.

همّ الفلسفة في إعادة القضية إلى بساطتها

أتريد أن تنتصر للحقيقة؟ أعد القضايا المعقدة إلى رحم ولادتها، وردّها إلى ما كانته في الأصل، واخلع عنها الأقاويل التي أحاقت بساطتها بتعليلات وتفسيرات، أضلت بها، فأضرّت بنا، عبر إزاغة بصرنا عن لبّ القضية إلى قشور أعمولنا الاجتهادي في لبّها؛ لهذا قيل: إن الأسئلة الفلسفية يتفوّه بها الطفل، قبل أن يُسدَّ فمه بمعجنات تدجيننا التربوي له.

من نيتشه... إلى أفلاطون

قوّض نيتشه بنيان العمارة الأفلاطونية في الفلسفة، بعد أن

اتضحت له ركاكة الاعتماد على مأمول التصورات المتفائلة، تلك التي يتأدى عنها تشوهات، زادت من تشوّهنا البنيوي في الأصل.

«بينيات» حائرة

ما لا نقدر على رفضه، قد لا نستطيع قبوله أيضاً، هكذا ينشطر وعينا هماً حائراً في البحث عن ملاذ آمن، للاستكانة بما يجب أن نكون عليه؛ وكي لا نُصاب بلعنة الانفصام بين منطق أمورنا، وأمور منطقهم، وكي لا نبقى عرضة لتجاذبات الصراع بين رغبة «الأنا» ورغبة «الهُمْ»، بين ما نتوق إليه، وما هو عليه حال توقنا، بين ما نريده، وما لا إرادة لنا به. علينا القيام بتسوية. ذلك أن في «البينيات» هذه، تكمن علّة الخلل، أو بالأحرى، سبب التوازن في شخصيتنا الاجتماعية.

ليس من كبائر أكبر من حقيقة موتنا

القادر على حلّ مشكلة اجتماعية عالقة، هو نفسه عالق في أكثر المشاكل تعقيداً، ليس لأنّه متورط عنوةً في مشاكل «الغير»، بل لانعزاله عن الآخرين قرفاً ـ استهزاءً مما يعتقدونه أمّ الكبائر، في حين أنه من صغائر الأمور، إذا ما تذكرنا أننا ميتون لا محالة.

إلى اللامنتمي

لا تستعجل الحكم على ما كنت فيه، ولا تتسرّع في نبذ ما تأصّلت عليه، حينما كنت متلقياً ومنفعلاً بما لا طاقة لك على رفضه وأنت صغير، لأن تحولك من طور الانفعال إلى طور الفعل..، وتمردك على ما أملته إرادة الآخرين فيك، بالانتقال إلى ما تقرّر بإرادتك أنت، ليس بالوضوح إياه الذي ظننته حينما غدوت ناضجاً وواعياً بالأسباب التي أبقت تفكيرك الراهن مُستلباً إلى ما تربيت عليه وتدجّنت به.

إذ إن تعقّلك لأخطاء ماضيك، لا يكفل تصويب حاضرك، بل يذيب في جبلتك شعوراً بدفء الماضي، المرفوض من صقيع وعيك لما في ذاك الماضي من أدران تنشئة بنيوية، كمنت فيك شعوراً لا تقوى على هجرانه أبداً، لهذا السبب بالذات، ربما يستأنس من تجاوز وعي ملته بالعودة الأبدية للانتماء، أقله بدفن جسده وسط ملته.

توقع غريب

إن من يكره نفاق الدبلوماسية لا يقبل أبداً التسويات أو أنصاف الحلول، ولا يساوم على صرامة تحولاته الجذرية في تاريخ طفراته الفجائية. فابشر أيها القارىء إذاً، بنهضة روسيا غير السوفياتية، ولو بعد حين...

تماثل الاختلاف

بين الغرب والعرب اليوم، فرق حضاري شاسع، لا يسمح لنا، لا بالمفاضلة، ولا بالمقارنة بين هذين الحسودين التاريخيين، لاسيما وأن مفاعيل جسد الحاضر العربي لا تتماثل أبداً مع مفاعيل جسد الحاضر الغربي. لهذا السبب ربما، اتُّهم العرب المسلمون عندهم كإرهابيين وأعداء للحضارة الغربية المتَّهمة هي أيضاً عندنا بفسق وبربرية إملاءاتها العاملة على تطويع جيوب المقاومة بأساليب فاسقة، تستوجب لمواجهتها شحذ الأدوات والسبل التي كان قد انتصر فيها العرب على جاهليتهم بثورة ذاتية ـ (الإسلام).

لا تعايش بين الجوع والشبع

ما لم توفر العولمة المزعومة، الحد الأدنى من الإنصاف في تقاسم الثروة البشرية، سيشهد عالم العولمة الأميركية حروباً دموية وكارثية، لا تُهدّد استقرار دول هي في الأصل غير مستقلة بسبب فقرها، وقد لا يستقر عوز هذه الدول على ما يمليه عليها غنى الدول الصناعية الكبرى، الأمر الذي يجعل من المصالحة الهشّة بين تزايد الفقر وازدياد الغنى، بمثابة قنبلة تنذر بتفجير هذا التعايش المفروض على من تخطّى بوعيه (الطبقات الفقيرة) قدرته على القبول بشرائع القرون الغابرة،

كشروط صندوق النقد الدولي، أو الخنوع إلى ما سنّه أقوياء النظام العالمي من قوانين عصرية حول احترام حقوق الإنسان والديموقراطية فهذا من شأنه تأجيل فتيل الانفجار، لا نزعه.

فالاندماج غير المتكافئ للعولمة يؤدي بها إلى أن تحفر قبرها بيدها إذا ما استمرت بتجاهل ألم بطون الجائعين، هؤلاء الذين يعانون من تخمة القاطنين في جوار أكواخهم المنهكة من وزر المشهد البائس لرمي مأكولات كلابهم على علب بيوت الفقراء. فمن يمتلك ذرّة عقل منهم، عليه ألا يغفو بأمان شبعه، بينما جاره جوعان.

إلى الأصدقاء جميعاً

الصداقة الحقيقية تجعلك بحلٍّ من «تابو» الالتزام الأخوي مع من تربطك بهم صلة رحم، كما تصيِّرك حرّاً في اختيار ما يناسبك ـ ما يُعجبك ـ ما يريحك في الصديق، وهذا ما يضفي على علاقتك الطوعية راحة، حينما تريد الانسحاب منها، لحظة تشاء.

نرجسية مفرطة

لا تسأل لماذا يمتدح الشعراء جمال الأنثى في قصائد غزلية أجمل، من دون أن يقترنوا بها؟ فالجواب بسيط جداً، لأن الفرق بين

الجمــال والأجمــل هــو فــرق بيــن المُتعيــن فــي امــرأة محــدودة ـ مكتملــة، مـن جهـة، والمتصـوَّر لامـرأة دائمـة التشـكل فـي متخيلـة شـاعر يرغـب فـي ألّا ترتسـم ـ ألّا تكتمـل، إلّا علـى النحـو الـذي يتفـق مـع متغيـرات مشـاعره حيالهـا، مـن جهـة ثانيـة.

لذا، قد يتزوج الشاعر امرأة قصيدته اللامكتملة في مرتسمات امرأة متعينة، لحظة إعجابه بإحداهن؛ فالشاعر إذاً، مزواج للمرأة المتجسدة في قصيدة أناه المتغيرة على الدوام، ولا تنسى إذاً، عجزه عن تجاوز امرأته المتجسدة في قصيدة ذاته ـ تصوراته، الأجمل من جمال أي امرأة أخرى.

فلا تصدّق شاعراً يتزوج امرأة واحدة؛ والرسامون هم كذلك أيضاً.

من ابن الرومي إلى فان غوغ

يتساءل الكثيرون، عن علّة العوز والفقر المادي لمعظم أعلام الفن والثقافة المبدعة في حياتهم، وغناها بعد مماتهم.

ألأنهم كانوا طيوراً تغرد خارج سربها؟

أم لأنهم تخلوا عن منطق المساومة على مساحة حريتهم الخاصة، تلك التي تجيز وحدها فعلاً إبداعياً جريئاً، خلاقاً وجديداً؟

أم...؟

أم...؟

لكن ما لا «أمْ» حوله، ما لا خلاف عليه، هو حاجتهم إلى التفرغ الكلي وانهمامهم أو توقدهم الكامل بميادين، لا تسمح بتشتيت تركيزهم المطلق على ما يوائم بين المصلحة من التفكير والتفكير بذاته.

فالرسام الخلّاق، لا يهتم بالمردود النفعي المباشر لحظة وقوفه أمام لوحته، أو لحظة اشتعاله بومضة ما؛ والفيلسوف المبدع لا يفكر بالمكاسب المادية ساعة يتوحّد مع حيوية تفكّره بالذي يخطه على ورقة صماء ميتة.

إذ لا تسوية ممكنة بين انشغال المبدع والربحية من انشغاله، إذا ما أراد أن يتجوهر عمله ويسمو إلى ما فوق المتعين، ويتشذّب من علائق المادة الزائلة حتماً مع مرور الزمن.

آية نيتشوية

الوسواس الخنّاس الذي يوسوس في صدور الناس، هو صوت حقيقة النفس الأمّارة بالسوء، إنّه جوهرٌ للذات التي تخلّت عن الاعتبارات الاجتماعية، حينما باتت بحل من معايير الاستقامة التي وضعها البشر للصلاح والأصلح، في الدين والمجتمع على حدٍّ سواء.

فالحرية المقنَّنة تغيب كلياً عن الأيديولوجيات التي تنحو باللائمة على من أطلق العنان لجسده في أن يكون!! ولرأيه السياسي في أن

يكوِّن حشداً ضاغطاً، كلاهما سيزعزعان أسس الانضباط الصارم في طقوس تابو الأولين، أي في القواعد التي سنّها السابقون. فلا تكن قاسياً بحق الأولين إذا ما خانتك قدرتك على الالتزام بشرائعهم الموجودة كانت منذ زمن لا يشبه زمننا، وذلك لكي تتماشى بهدوء مع ضرورات المغايرة عما يستلزمه الانضباط بحيثيات واقعنا المختلف حتماً.

سكرة العارف

ليست مفاجأة، أن تجد مثقفاً مبدعاً في حضرة مجلس من أدعياء النشوة بدخان حشيشة الكيف، بعدما راعه اكتشاف كمٍ هائلٍ من السخافات التي أرهقت كاهله فيما مضى، أي قبل أن يستنفد إيمانه بعظمة مساعيه الرومانسية لتغيير العالم؛ ولا هي صدفة، انسجامه أكثر مع من بات يسخر من نفسه بالسخرية على دونيته الوضيعة في حياة، لا تستحق بذل مجهود لتحقيق ما يلهث وراءه معظم الناس. ذلك أن ملاذ المقصيين هو من استنشاق حرية سكرتهم والتفلّت من احتشام المُمَتنَنين بأدب الكلام ولياقة الأصول الأخلاقية؛ فراحة المهمشين هي من الاستئناس بتداعيات العودة إلى براءة الأصل، عبر هذيان قول لا تقوله لباقة المدجنين بمعايير الاستقامة الاجتماعية، ولا تتفوّه به تربيتهم المعمولة من أجل مراكزهم المصنوعة.

إذ إن بين من تكشف اطلاعه على تاريخ الثقافات، فتأزّم، ومن لم

تسـنح لـه فرصـة التحصيـل المعرفـي، فتنكّـر، شـيءٌ ممـا لا يشـاركهم فيـه، لا أنصـاف المثقفيـن، ولا موظفـي الطبقـة الاجتماعيـة الوسـطى، إنهـا عدميـة حـال مـن أوصلتـه ثقافتـه إلـى افتضـاح أوهـام الحقيقـة، فتشـاركها. مـع مـن منعتـه حالـه المُعدمـة مـن الارتـواء بقطـرة مـن تلـك الأوهـام.

إحذر ممازحة الأغبياء

حينما تتجاوز حدود التعامل العرفي (المتعارف عليه)، بكل ما تستوجبه لباقة ولياقة السلوك المُعتاد، عبر سخرية لطيفة على أوضاع الشخص الآخر، حتى إذا ما ضربت موضعاً موجعاً، فلا تتوقع من ممازحتك إياه، أن تُقابل بلطافة التقدير، مِنْ مُتألم أعطى لنفسه حق الردّ عليك، من دون داعٍ وجيه، وذلك بغية الثأر والانتقام من جرأتك على الغوص في دفائنه، من دون إذن مسبق. فإذا كانت لمداركك سلطة من شأنها أنْ تتحكم بلباقة ممازحتك له، إلا أنها لا تتحكم بغباء ممازحته لك، ولا بحدود انتهاكه الفظ لشخصك.

الإرباك في التقليد

الخبـز اليومـي لثقافـة الفرنسـيين فـي النصـف الثانـي مـن القـرن العشـرين، كانـت «الفلسـفة الوجوديـة»، هـذه التـي صبغـت فنهـم وأدبهـم

بسوداوية الموت المحتَّم لكل من ولد على هذه الأرض التي لا حياة بعدها، وكما انتقلت عدوى مفاهيم الثورة الفرنسية إلى باقي أقطار العالم الغربي، متكاملة ومتسقة بصيرورة تطورهم الحضاري، وإلى العالم الثالث متشذرة في تأثيرها وتأثرها بالمعوقات التي أربكت تخلفنا، أكثر فأكثر.

أيضاً وأيضاً، أصيب مثقفونا بداء أزمة وجودية، وهم يعيشون في واقع يحيا مأزق تأخره عما أرسته مبادىء المواطنية في ثورتهم الفرنسية؛ مع أننا أحوج ما نكون إلى ثقافة متفائلة لإنجاز ما أنجزوه في السياسة والاقتصاد والاجتماع، قبل التشاؤم بالمفاعيل المُحبطة لثقافة الإنجاز تلك.

نفاق صحفي

نفاق الكتابة العربية في الصحافة، هو من مواربتها في قول الحقيقة كما هي: مرّة ـ جارحة ـ مؤلمة؛ فبداعي عدم استيفاء شروط نشر المقالات الطارقة لقضايا الناس بفجاجة ألمهم منها، تُرفض أهم المقالات وتُعاد إلى أصحابها المُحبطين من عدم تعلّمهم وتدجّنهم على ما تدجّن به الصحافيون المرموقون، لكي ينالوا شرف قبولهم من السياسيين المحترمين.

الأمـر الـذي يجعـل مـن المقـالات المتّزنـة، أي المتّسـمة بوشـاح التقديـر مـن قبـل سـادة السياسـة، أمـراً مخزيـاً بحـق مـن يداهـن، مراعـاةً

وتبريراً لأخطاء، عليها تقوم مؤسساتنا الإعلامية، وعبرها تتمرّر خطط كسر النفوس، لكسب المناصب والفلوس. لهذا، لم أتشرف بكتابة مقالة انتسابي إلى هذه الوظيفة، لاسيما وأني لا أجيد الغزل بأرباب الصحافة، ولا بأربابهم السياسيين... ولحفظ خط الرجعة عن إحجامي هذا، طبعاً أستثني بعض الصحفيين، عفواً السياسيين.

الذوق المكتسب

الذوق مكتسب أكثر مما هو فطري، هذا ما بيّنته رغبة والدي في أن يقترن أولاده بزوجات سمينات، فتأكد رأيي برفضهم لذوقه ـ لطلبه، طلباً لأيدي من هن على شاكلة عارضات الأزياء والإعلانات التلفزيونية..

الإيمان بالشيء رضوخٌ له

لا تصدّق غيب التنجيم، ولا تؤمن بما يُطالعك به بخت السحرة والمشعوذين، وذلك، لئلا يسيطر عليك إيمانك، رضوخاً إلى ما يتوقعونه هم لك، أو بالتسليم إلى مشيئة قدر صادق، إذا ما صادقت عليه أفاعيلك المأخوذة استلاباً إلى ما قدّره الآخرون لك. لأن مجريات الأمور لا تحدث من تلقاء نفسها، إنما بإرادة إيمانك بها ترتكبها...!

الآخر في عيون العقائديين

إذا ما كانت خواص الشيء تستمدّ وجودها من اختلافها عن الشيء الآخر، (بالظن «الديريدي»)، فالوعي العقائدي لأية جماعة قائم إذاً، على المغايرة والاختلاف عن عقيدة الجماعة الأخرى، وببساطة، فالانتماء أياً كان مصدره أو موقعه، ينظر إلى من لا يشاركه قناعته، بعين معيارية، هي السبب في الانغلاق والتقوقع على ما يجعل من التسامح أمراً صعباً.

إنها قاعدة لم تتفلت من براثنها مزاعم حقوق الإنسان في النظام العالمي الجديد، حيال المتدينين، وبالعكس، رغم أن ثمة تسامحاً عند الطرفين ما زال استثناءً.

الخوف من الشيء يجعلك تبحث عنه

إذا ما أخافك شيء ما، لا تغالي في تجنّبه، كي لا تبقى غارقاً بالبحث عن خوفك منه. هذا ما حصل معي وأنا أخط واحدة من بنات أفكاري في ظل شجرة، خمّنت أنها بعيدة عن جحر الأفاعي، فإذا بها تسعى بقربي.

السيِّـــد والعبد

على القوي أن يأخذ من الضعيف ما هو متاح، أي ما يقدر الأخير على إعطائه، وذلك كي لا يهتاج ضعفه بشراسة أكبر ضد من يؤذيه، فالضعيف لا يتأذى بخسارة ما لا يمتلكه؛ والعبد المُهان بعبوديته، يتحمل الإذلال بطاقة وصبر لا حدود لهما، ما لم يتخطَ سيده حدود استعباده. أما إذا تجاوز السيد الحدّ، كأن «يفقأ» عينيه، أو يقطع رجله، فالمسألة تأخذ بعداً آخر.

فهل يعتبر الأميركيون؟

التعلّم والتعليم

عندما تنسى حرفية ما علموك إياه، هذا يعني، أنك غدوت قادراً على تعليم الآخرين؛ فالنضج الفكري مرتبط بمدى تمثلك وهضمك لما عَلِمْتَه، فيختمر فيك قولهم نقداً، هو العلامة على تحولك من طور التأثر والانبهار بتجربتهم، إلى طور التأثير والإبهار بحكمة تجربتك المصقولة يوماً بعد يوم.

والقطعان تلدغ نفسها!!

من قال إن المؤمن لا يُلدغ من جحر الأفعى مرتين، لا يعلم أن ثمة من خُلق للّدغ، وإلا ما كانت الجماهير العريضة (المؤمنة) تَنْتَخب، أو تعيد انتخاب أفاعيها.

الأهلية في استصدار الأحكام

من يطلق أحكاماً قاسية على من لا يتصف موقفه بالحزم في السياسة، يعفي نفسه من الغوص في تعقيدات القضايا السياسية، لاسيما وأن في السياسة تشابكاً دقيقاً بين المصلحة العامة من الموقف، والغاية الخاصة منه، بين مقتضيات الظروف، وسبل استبدالها بظروف جديدة، وأيضاً بين الضرورات التي تقتضيها الحالة المتردية، والحاجات الضرورية لإشباع شوقنا إلى حالة سامية.

فمن السهل القول مثلاً: إن هذا القائد قد خان بلده لمجرد إطلاقه موقفاً مغايراً عما يستجديه شعبه، لاسيما وأن العامة لا تكلّف نفسها، أو بالأحرى، غير قادرة على أن تزن الأمور بالميزان السياسي للسيء والأسوأ؛ وكي لا يجنح موقفنا إلى تبرير الأخطاء السياسية كلها، علينا ألّا نسترسل في التعميم، لئلا يُساء الظن في الموقف الضروري من السياسيين المُرتشين.

اختلاط الحابل بالنابل

تريد أن تعرف المُصاب السياسي للعالم العربي، عليك أن تبحث في علّة ثقافتنا التربوية، فلا يغرنك تسييس من لا يجب أن ينشغل بما لا شأن له به، بالقول: إننا نفقه ما لا يفهمه عامة الأوروبيين في السياسة، ولا يبهرنَّك هذا الاهتمام السلبي للجماهير بالسياسة، على حساب ما يجب أن يتفرغوا لتحصيله وتطويره في مجالات عمل كل منهم، لأن اختلاط الحابل بالنابل من شأنه أن يشوِّه حال تركيزنا على ما يجب التركيز عليه، أكان صناعياً في الصناعة، أو ثقافياً في الثقافة، أو سياسياً في السياسة، وذلك كي لا يختلط علينا أمر فهم ما لا نفهمه، إلّا ادعاءً قد يضرّ بصنعتنا وصنعتهم، أي بما تمرسنا به، وما تمرّسوا عليه، فالمجتمعات لا تُبنى إلّا إذا أُعطي كل ذي حقّ حقَّه، إلا إذا وُضِع كلٌّ في مكان إمكاناته، من دون أن يعني هذا، عدم الإطلاع على ما يعطينا الحق في التصويت، لإزاحة سياسيين تخلوا عن حقنا.

العمق السياسي في التربويات

إن الإجابة بـ «نعم» أو «كلا» ـ «صحيح» أو «خاطىء» ـ «حسن» أو «قبيح» ـ «جيد» أو «سيء»، تقوم على معايير تربوية محدّدة من قبل الحضارات التاريخية، إذ إن مقياس التطور الحضاري، قائم على

الوضوح في المعايير عند الشعوب، لرفض ما هو مُشين، وقبول ما هو حسن، وهذا، يستلزم تربية صالحة، لا موارِبة في محدداتها حيال قيمة ما ينبغي محاربته، من جهة، وما يجب الدفاع عنه، من جهة أخرى؛ وهذا يشترط صدقاً لا يتوافر في المجتمعات التي تُعلِّم أبناءها كبت مشاعرهم من خلال التنكّر لحال «أناهم» المرفوضة رفضهم للغرائز تلك التي لم يخترها من قمع نفسه، قمعاً للآخرين.

ولأن ثقافتنا التربوية لم تتصالح بعد مع الحاجات الخاصة للفرد، ما زال الفرد عندنا مُشوهاً في تحايله الدائم، لإيجاد مساحة مشتركة، تجمع بين ما تستجديه رغبة «الأنا» من «الأنا» وما تمليه مفروضات «الهُمّ» على «الأنا»، وبغية رأب الصدع السياسي في مجتمعنا، على العالم العربي أن يعيد النظر بثقافته التربوية، لكي يغدو الطفل طفلاً صادقاً في الالتزام بقيم اجتماعية لا شرخ فيها، بين «الأنا» و«الهم»، بين ما تستسيغه «الأنا» وما يستأنس به «الهم»، وذلك لكي يصوّب حينما يكبر ويصير رجلاً، خصام المصلحة الذاتية مع المصلحة العامة، فيستقام أمر صدقه مع نفسه.

أمن مجيب؟

لكلّ شيطانه وملائكته أيضاً

إن المفاهيم النظرية المجرّدة، ليست مجردة عن أسباب صيرورتها

مقولات ومفاهيم سامية عن الواقع اللامكتمل، وليست متعالية عن نواقص المادة المتعيّنة ـ المشخصنة، أو المتشيئة، ولأن ما نتلفظ به، على ما يعنيه سياق استعمالنا للتعبير الملفوظ من تصورات مستثارة في المخيال، تترسم أمامنا إذاً، أشكال وصور خاصة بكل شخص. ولأن لكل منا فرادته في الاستجابة إلى ما يراه ـ يقرأه أو يسمعه؛ بحسب اتساع مداركه، أو بالأحرى، بحسب العوامل التي شكّلت وعيه بالمرئي والمقروء، أو المسموع، يتعدّد إذاً الكتاب المقروء، ويختلف بتعدّد واختلاف وعي قارئيه، كما المسموع والمرئي أيضاً؛ هذا ما تعلمته من ثلاثة رسوم لشيطان واحد، فأيقنت أن لكل شيطانه، وملائكته أيضاً.

خوف هذياني مُستعاد

في ليلة ظلام دامس، وبينما كنت أتحدث إليها... عما أفزعني منذ سنوات خلت، انتباتني قشعريرة الخوف نفسه، فجفّ ريقي وخفت صوتي من جراء تَمثُّلي بحالة الرعب التي سيطرت على مشاعري لحظة التكلم عن حكاية، حسبتها صارت خلف مشاعري، عندها تأكدت من أنني لم أكن أكذب بما تهيأ لي حينها، ولا بما خلقته لنفسي من خيالات غير موجودة.

رد على رد «كارل بوبر»

ثمة من هو مصاب بمرض التماهي مع عالمه المرغوب، لا مع واقعه المُعاش، لذا كانت اليوتوبيا حكراً على من يعيش مرارة واقع، لا مسرّة فيه، ولا عزاء منه، فشكّلت بدورها ملاذاً ورجاءً أو دواءً، لا بدّ من تجرّعه لكي يستمر الوئام السلبي بين الفقير والغني، والسيد والعبد... إلخ.

ذلك أن من يحيا بسعادة ورضى على ما هو فيه، لا يحتاج إلى أكثر مما هو فيه، وهذه هي حال مُعدمي الثقافة والمتخمين بالمال. أما زلنا بحاجة إلى جمهورية أفلاطون وشيوعية ماركس، لكي نحيا متصالحين مع مساوىء رأسمالية هذا العالم؟ «بالتأكيد نعم».

شخصنة الآلة العسكرية

العسكري الناجح هو من تفبرك كيانه، بما يتلاءم وحاجة المؤسسة إلى براغٍ وأدوات أخرى لدوران آلتها؛ وكي لا تدوسنا جنازير آلتها، علينا أنسنتها عبر السماح للعسكري بشيء من مدنية غير المنخرطين فيها.

معدن السياسة أمام التجّار

تجارة السوق ليست كالتجارة في السياسة، وإن كان للاثنتين سوق، أو بازار للشراء والبيع، إلا أنه يبقى ثمة اختلاف في كيفية تحقيق الربح من وراء تسويق سلع ليست من ذات المعدن.

على السدود أن توجد لكي تُخترق

الشعر المبدع، ليس من بنات فكر الشاعر، ولا من تأمله الميتافيزيقي أو الوجودي، فحسب، إنما يأتي بدافع المعاناة من الحالة البائسة التي يفرضها جهل الرقيب بالممنوع والمسموح في البلدان الخاضعة لحكم أنظمة شمولية واستبدادية، إذ إن تشديد الرقابة على ما يكتبه المثقفون، قد يجعلهم خلاقين في النفاذ من نطاق الفهم السطحي المباشر، إلى ما هو عصي على فهم رقيبهم، وذلك من خلال ترميزات ـ تلميحات وإيماءات، كُتِبَت بطريقة قابلة للتأويل على نحو يسمح للشعراء بإنكار ما تضمنه شعرهم، ساعة تعرضهم لاتهام ما، كمعارضة السلطات المبجلة تلك مثلاً، وهل الشعر غير ذلك؟

ورغم ما توفره الأنظمة الاستبدادية، كأحد طرفي العلاقة الجدلية بين المثقف والسلطة، من مساهمة سلبية تمثّلت بقمعها الذي خلق بدوره قدرة للالتفاف على قمعها، إلا أننا يجب أن ننبّه الشعراء، بألّا يتقاسموا جوائز إبداعاتهم مع أنظمتهم تلك.

من سارتر إلى غوبلز

الحرية الحقّة، لا تُعرّف إلّا من وراء القضبان، لهذا، تغنّى الفلاسفة بالحرية السارحة خارج قضبان العقول السجينة في نطاق فهمها الأيديولوجي المحدود.

بنيوية معكوسة

لم يمت الإنسان في القرن الثامن عشر، إنما افتُضح أمر موته، حينما اكتشف فلاسفة الريبة (ماركس ـ نيتشه ـ فرويد) استلاب وجوده إلا ما لا تقرّره إرادته، فتقرّر سلفاً بإرادة مُدجنة في تربية ـ لغة وواقع أقوى منه. لهذا، كان «السيستام» الحاكم لمنطق الانخراط فيه، أو التمرّد عليه، قد اتخذ بُعداً ميتافيزيقياً، لم يخرج عليه، حتى فوكو نفسه.

لكن يبقى السؤال معلّق ههنا، عما يحكم إرادة الحيوان في الانتظام بعالمه، رغم ما قيل عن غريزة حب البقاء؟

في كل امرأة رجل أيضاً

جشع الرجال ورغبتهم بوصال النساء، غير المفهوم منهنّ (كما يزعمن)، ونهم الذكور الفاحش في توطيد أواصر الودّ بالنسوة، لهو دليل على ما يشي به حياؤهنّ من رغبة عارمة في الاستئثار بكل

الرجال، إذا ما كُشف الغطاء عما يختبىء في أناها من أنا ذكورية توّاقة إلى تسجيل انتصارات، بالموافقة منهن ـ عليهن، لتوكيد رجولتهنّ، أو بالأحرى أنوثتهن.

خيال جنسي ــ عفواً «نرجسي»

داء التماهي الجنسي هذا الذي يغتبط به مرضى العادة السرية، يعود إلى ما أطلق لعنان متخيلة تعمل على استجلاب ما لا يستطيع الحصول عليه في واقعه المليء بالتابويات الكثيرة والممنوعات الأكثر؛ فاستحضار ما تشاء، وكيفما تشاء، هو تحايل على ما شاءه لك قدر التزامك شراكة امرأة واحدة، وللإناث رجل واحد؛ ولأن التصور يبقى دوماً مشذباً مما لا ترغبه في الشريك، فتعمل به «تشحيلاً» حتى يتفق وفرادة رغبتك برائحة، أو شكلٍ ولونٍ، أو مؤخرة قد لا تثير فرداً آخر.

فلذّة الممارسة مع من هو غير موجود، إلّا بالتصور، هو الملاذ الأوحد للتحرّر من شريك واحد، أحد.

حرية «سارترية»

إذا كنت ممن لا تغويك بنات الهوى، ولا تستثيرك أجسادهم المعروضة للبيع في الأسواق، هذا يعني، أنك مُصاب بداء التملك.

لكن إذا ما سبرت أغوار تملكك المزعوم لأغراضك الخاصة، ولزوجتك أو لزوجِكِ، تجد في المسألة تشابهاً مريراً، فإذا كنت لا تنتشي من إحساسك بوصال جسد لا تشعرك (بائعات الهوى) بتملكه فلذّتك من إحساسك بتملك كيان الشريك بالذوبان عبر وصاله، ليس سوى وهمٍ، يظهر بعد انفصالك، وانفصاله، لتعود إلى غيريتك كونك، أنت أنت، وهو هو.

كراسٍ مستوردة

لَسُخْرِية أن يتباهى وطنيو بلدان العالم الثالث باستقلال أوطانهم في الوقت الذي يتمرّغ فيه أنف شعوبهم بوحل المذلّة، لا من أنظمتهم التابعة إلى أميركا الراعية لاستقلال البلدان النامية، ولا من الإهانة اليومية لشروط الوصي الوحيد على أمن وسلامة المجتمع الدولي، فحسب، بل لمشهد استقبال رؤسائهم في الغرب، كما لو أنهم قادة حقيقيون لشعوبهم الخاضعة إلى ما تمليه مصلحة بقاء الفئة الحاكمة على كراسيها، ولأن الكراسي مستوردة بمعظمها من الغرب، فطاعة الغرب واجب قومي لإدامة عمر دولة الرئيس.

فـإذا كان المجتمـع المتمـدّن ـ المتقـدم صـادق فـي ادعاءاتـه التنمويـة، فليعتـرف بضعـف أنظمتنـا المُصانـة بقـوة رعايتـه لضعفنـا، بالشـفافية إياهـا التـي يتعامـل فيهـا مـع قضايـاه، وذلـك، كيـلا يبقـى تأخرنـا ذريعـة لوصايتـه

على من يعتبرونه فاقد الأهلية والقدرة على قيادة أو حماية نفسه، أما إذا كان الغرب يؤمن أن بدائية تلك الأنظمة مستمدة من تخلف شعوبها، فليكف عن استقبال رؤسائنا بنديّة، فهذا فيه استخفاف كبير، أقله بعقول الكثيرين ممن يعارض هذه الأنظمة.

دولة الرئيس

إن ألقاب التعظيم التي تُطلق على أصحاب الفخامة ـ الجلالة والسمو في البلدان النامية، فيها تكريس لنزاهة من لا يجب أن يتنزّه عن الأخطاء، مهما علا شأنه، وارتفع مقامه، لأنه يبقى من طينة البشر لا الآلهة، وإلا ماذا تعني مقاضاة من يُخطِىء في إدارة الشأن العام؟

وكيف تتم محاسبة الساهي عن مسؤولياته؟ إذا ما كان صاحب المسؤولية الأولى، مُعفى بلقبه سلفاً من المحاسبة، أو بالأحرى، ماذا يجب أن يُطلق على من تخوله دساتيرنا المزعومة محاكمة أصحاب الفخامة والجلالة والسمو، يا دولة الرئيس، فشكوانا لك، يا مَنْ الدولة أنت، وأنت الدولة.

رحلة واحدة فقط خارج الوطن (إلى بلغاريا)

حينما تخرج من عالمك الذي تربيت فيه، وأُشبِعت بتقاليده ـ

عاداتــه وقيمــه، منــذ أن ولــدت، إلــى بلــد أجنبــي، بداعــي إشــباع فضولــك وللتعــرّف إلــى الآخــر الغريــب خلــف الديــار؛ ينتابــك لأول وهلــة إحســاس غريـب، فيـه مـن الدهشـة بتقاليـد وقيـم الغيـر، بقـدر مـا فيـه مـن لـذّة التشـبع بجديدهــا؛ قبــل أن يســتقر رأيــك، أو دهشــتك بجديدهــم علــى مــا أبــدع منــه ابـن خلـدون نظريتـه البدائيـة فـي الأنتروبولوجيـا، وهـذا مـا كنـت أشـتمّه مـن سـهولهم الشاسـعة وجبالهـم الوعـرة تلـك التـي تقمصتهـا نظرتهـم إلـى تصرفاتـي الغريبـة عليهـم، وعلـى مـا قـد يتصرفونـه فـي حـال كانـوا «هـم» زوار بلـدي.

استدلال نمطي

إذا ما كانت طريقة استعمال الأشياء، تعكس نمط التفكّر، فالأحرى بنا مراقبة الإضاءة المركّزة على ما يحتاجه الانشغال بشيء محدّد في عتمة البيوت السويدية مثلاً، «الغلوب»، بالقياس أو بالنظر إلى انفلاش الضوء وتشتّته على كل الأشياء في البيوت العربية.

في الطلاق سبب أكثر وجاهة من المباح أمام المحاكم

إن كثافـة حبيبـات حفنـة تـراب أثقـل مـن صخـرة، إذا مـا قيـس الـوزن

باستطاعة الإنسان وقدرته على تحمل ما لا يحتمله عند تذرّر التراب في عيونه ـ داخل أنفه ـ فوق رأسه على مسام جسده كلّه؛ عندها يصير معطّل الإحساس محبطاً، وفاقد العزيمة، بالمايجب فعله لكي يكون. هكذا تتحوّل رتابة الحياة بين زوجين غير منسجمين في التفاصيل التي نحسبها مملّة وسخيفة، سبباً لطلاق لا رجوع عنه.

فقد يصفح المحب ويتسامح مع خيانة محبوبه في لحظة صفاء، لكن ما لا يقدر على أن يتعايش معه هو الاختلاف في التصور حول مكان الطاولة في البيت، وموقع المنضدة على الطاولة، طريقة استقبال الضيف وأسلوب وداعه على الباب، لون الباب وشكله، رائحة البيت والمأكل والملبس، وكمية الملح في الطعام.. إلخ. وقس على ذلك من تفاصيل... هي الحياة، والحياة هي.

سيئات التوجس والحذر

قال أحد الروائيين الألمان مرةً: «لأنني أخاف على حياتي، حياتي تبقى دائماً مهدّدة بخطر»، وهذا يشمل معظم الخائفين على حياتهم من أن يتفوهوا بحقيقة ما تراه عيونهم وما تسمعه آذانهم.

مما يعني، أن التوجس من اتخاذ موقف حازم من الأمور التي تعنيني بقدر ما تعني الآخرين، فيه قلّة دراية، بذريعة حماية رأس النعامة من القطع، إذا ما وضعت رأسي في عداد الرؤوس المهدّدة بالقطع.

وهذا ما رمى إليه كل من سن قانوناً يبيح إعدام المعارضين السياسيين في الساحات العامة، وهذا ما ابتغاه حذر جموع الخائفين على رؤوسهم، فبذلك فقط استتب نظام معظم الدكتاتوريات في التاريخ.

لكلٍّ قناته

الشعر النثري الحديث، يُخفي عيوب شعراء جهال بالمؤدى الإبداعي لتضافر موسيقى التعبير، وأيضاً جهال بالمعنى المقصود في الكلمة المنتقاة، حتى إنه أباح للكثير ممن لا يفقه تركيب جملة بسيطة، أن يختبىء بجهله وراء تنقيط (...)، استعمله جهابذة الشعر، بعدما استنفدوا اللغة في الأصل، أسلوباً في التعبير عما لا تقدر أن تقوله اللغة، عما لا يحتمله قالبها المحصور في نطاق المألوف والاعتيادي؛ فالقصيدة النثرية هي في الأساس، ثمرة اقتضاب أحد كبار الشعراء الذين تجاوزوا الانفعال باللغة، فانفعلوا بالحيز المتروك إلى ما قبل وما بعد كلمات السطور، وهذه منتهى الصوفية، عند معظم المبدعين الكبار، كتلك التي أوصلت بيكاسو إلى الرسم التكعيبي، وغيره إلى التشكيلي أو السوريالي.

فكم من الغشاشين يغمز من القناة الإبداعية لشعر السياب مثلاً، ورسم بيكاسو، من دون أن يشعر بحاله ـ قناته هو.

الرواية الناجحة إرهاص لفلسفة ما

كنت أتساءل يوماً، من أين استمد هايدغر عناصر فلسفته الوجودية؟ ودريدا فلسفته التفكيكية؟ إلى أن قرأت رواية «البحث عن الزمن المفقود» لــ «مارسيل بروست»؛ فإذا ما صحّ المثل القائل: «وما الليث إلّا عدّة خراف مهضومة» فإن «بروست»، كان من ضمن الخراف التي هضمته فلسفتاهما، فتبخرتا على مسرح التنظير المتخم باللحم الشهي والطري لروايات من سبقهما، لا سيما وأن الفلسفة لا تتغذى بالتأمل والمراقبة للواقع فقط، إنما أيضاً من التمثل بعالم الروايات وأحاديثها، عمّا لم يكن مُدشناً قوله من قَبْل.

هكذا كان بروست بالنسبة إلى دريدا، مثلما كان بلزاك روائياً ملهماً لماركس الذي اعترف بفضل بؤس الرواية البلزاكية على إبداعه بؤس الفلسفة.

ذرّة إحساس في رواية خير من قنطار دواوين

قال بروست في «روايته الشهيرة» البحث عن الزمن المفقود:

«أما جسمي الذي كان يحسّ في جسمها حرارتي أنا فكان يبغي الانضمام إليه فأستفيق».

وإذا شئتها شعراً.

«أما جسمي

كان يحس في جسمها

حرارتي أنا

فكان يبغي الانضمام إليه

فأستفيق».

فهل من مأخذ للشعراء؟؟...!!!

عالِم الفلسفة ليس أستاذاً

بين أستاذ الفلسفة المدرسية وعَالِمُها، بون شاسع، لا يعلمه إلّا من عانى بأستاذيته من حدود القوالب الجاهزة في كتب سيئة، ألزمته بأن يقف عند حدها؛ إن استرسال المعلّم أو المفكّر وتبحره إلى حيث لا معلومة واحدة، بل آفاق رحبة، سيورطه بمشكلة مهنية، لأنه عندها سيطرده القيمون على أمر نجاح التلامذة، لأنه أستاذ فاشل، وهذه علامة جيدة لنجاحه الفلسفي.

المدرسة والجامعة ضدّ الفلسفة

لكــي تتعــرّف إلــى ماهيــة الفلســفة، عليــك أن لا تخــزِّن معــارف ومعلومــات عــن أفلاطــون وأرســطو، ولا أن تتقيــأ مــا قرأتــه عــن ديــكارت

وهيغل، بل عليك واجب التمثل بالرائحة التي تفوح من استرسالاتهم، لكي تغدو عالماً بمقصودهم «هم»، «لا مقصودنا منهم».

فأين مناهجنا المدرسية والجامعية من الفلسفة؟ وكيف لنا أن نضع معايير ثابتة لتصحيح مسابقات الفلسفة التي وجدت هي أصلاً لكسر المعايير كلها؟

التدخين عزاء الشكّاكين

التدخين ليس سيئاً، لأنه يشعرك بلذة التفريط بما تملكه حرقاً. كما يشكل ملاذاً لتنفيس ساديتنا العاملة على إفراغ، أو تلطيف إحباطاتنا من عدم امتلاك أنفسنا المملوكة إلى موت مؤجل؛ لكن السيء هو الرئة التي تخذلك، حينما تتفحم بلذائذك اسوداداً، يجعلك تمتنع عن هذا العزاء لحظة الشدة أو لحظة الاسترخاء والاغتباط. أمن سيئات أخرى في الحياة، غير ذلك؟

ثمة من يفهم نيتشه

الوظيفة تقبض على أنفاس المهموم والمتعب من سجن وعيهم وأفكارهم المنغلقة على ما وضعه الأقوياء من قوانين لاحتواء ضعفهم الذي يمارسونه بقوة اعتقادهم وإيمانهم، أما اعتقاد القوي فيتمثّل

بضرورة الخروج من متاهة الالتزام بوظيفة لا تبرّر وجوده، ولا تشبع رغبته في التحرّر من بين القطعان المنساقة برنّة جرس الكراز، لكي يكون.

تطور الإنسان نهاية له؟

أيمكن القول أن الزلازل هي لعنة تصيب الإنسان، كلما أمعن في تحايله المعماري على الطبيعة؟

فالأبنية الشامخة لا تجنِّب قاطنيها من خطر الهزّات الأرضية، بقدر ما يتجنّبه نصب الخيام أو الإقامة في الكهوف كوسيلة مثلى لسكن الشعوب البدائية التي تصالحت مع الطبيعة؛ فكافأتها بسعادة السعي وراء ملذاتها الفطرية، وعاقبتنا في البحث عن الزمن المفقود.

في الرضى سعادة

الشعور بالإحباط لا يُضاهي كربه شعوراً آخر؛ لا لأنه يعتِّم عليك بريق ما كان منتظراً ومتوقعاً من الآخرين؛ ولا لأنه يحتلّ كيانك، بحيث لم يعد من متسع لرهان على انتظار أو توقع آخر، فحسب، بل لخيبة نفسك من نفسها الحالمة كانت بتحقيق الأمر الذي ظننته كافياً للرضى على النفس، فتحقّق ولم ترضَ.

امتحان صداقة

في المرّة الأولى أصرّ صديقي المزعوم على أن أختار «أنا» طعام وليمته؛ في المرّة الثانية، سألني اختيار ما أشتهي، وطلب لنفسه شيئاً آخر؛ في المرّة الثالثة، لم يستأذن ذوقي فطلب لكلينا ما يرغب بتناوله هو، وكيلا أمتحن مرّته الرابعة، إذا ما كان من مرّة رابعة، رحلت، فأدركت عندها مفهوم الصداقة الحقيقية بعيداً عمّا اتصفت به مـن غيرية ـ تضحية وما إلى هنالك من مغالط في قاموس تربيتنا الرومانسية، تلك التي كان نيتشه قد كشف النقاب عنها بجرأة العارف لما تخفيه الصداقة الحب والقرابة من «أنا» مفرطة في «أناها».

تحولات بغيضة

يبقى الصديق صديقاً في حالة واحدة فقط، أن لا تتغير حياله أبداً، أي أن لا تتبدّل على الإطلاق، وهذا من المستحيلات التي يستجديها، أو بالأحرى، يشترطها الصديق على صديقه. ولأن التغير والتبدّل هما سمة إنسانية لن يقفا عند حدّ علاقة ثابتة، فإذا ما استمرت صداقة اثنينِ، شكّك بالأمر، وابحث عن ردّ جميل أحدهما، أو فتش عن المصلحة المشتركة لكليهما.

الإيمان بالتقمّص حالة لم تشملني استذكاراتها

تستوقفني أحاديث لم أفهمها من أشخاص كُثُر، وهم يزعمون أن ما وقع عليه نظرهم هنا، كانوا قد رأوه في مكان ما، أو أن ما شاهدوه لأول مرة، كان قد مرّ على نظرهم في السابق، حتى إنهم يُسهبون في الكلام عن العلاقة التي تربط جديد مشاهدتهم بقديم معرفتهم بصورة ذاك الجديد، من دون أن أجد تفسيراً أقتنع به، لا في تقمّص حياة سابقة، ولا في من يجمع بين حيواته مشعوذي الغيب، سوى أن هؤلاء المستأنسين بتميّزهم في هوية ما حصل ويحصل معهم، ليسوا دقيقي الملاحظة في الفصل بين المتشابهات، فاختلط عليهم فصل شجرة عن شجرة، أو تمييز شخص عن شخص آخر، أو حالة عن حالة مشابهة.

أما إذا صدقوا، فأغتبط لكوني لم أتقمّص حياة أحد أبداً.

أوطان العالم الثالث

مفهوم الوطن في الأقطار العربية، كذبة اخترعها الأقوياء لكي تُسيِّج نطاق مصالحهم بمواطنين صالحين؛ والصالحون لماذا؟ بالطبع للالتزام بالقوانين والشرائع التي سنّها المؤمنون بأن الحياة للأقوى؛ وفي ظرف ساخن قد يُقصي الأقوياء، الأقوى بكونه غير صالح لمواطنيتهم المهددة منه بالذات، عندها، يغدو الوطن ساحة فارغة أمامهم، لا من

حسيب ولا رقيب على ما يستصدرونه من أحكام مبرمة بحق كل من تسوّل له نفسه التطاول على ما أقرّه مفهومهم للمصلحة العامة في الوطن، فيصير هذا الأخير مرتعاً لأهواء وأمزجة طبقة متجانسة في الانقلاب على ما يهدِّد تجانسها المهيمن، وبالتالي على كل ما يحتمل زعزعة استبدادها.

لماذا لا يُبدِع المؤدلج؟

حينما يكون المرء مؤدلجاً، هذا يعني، أنه آمن بحقيقة تعلّمها من فكر عقائدي يتماهى معه يقيناً مطلقاً، فهو الحقيقة والحقيقة هو، فليس من داعٍ للبحث المهموم عما هو أفضل، إذا ما كان مثال الكمال فيما يعتنقه هو، ولا من حاجة للنقاش والحوار، إلا للدفاع عما يتربّص بعقله حقيقة مكتملة، وأي تأويل أو نقد يخالف معتنقاته سيعتبره حتماً مساساً يدنّس إيمانه هذا الذي خلق لحمايته. إنه رجس من عمل الشيطان وجب اجتنابه، وتجنّبه من كل تفسير معتد سيتصنف تلقائياً في خانة التحريف والهرطقة.

لهـذا يسـتكين المؤدلـج مطمئنـاً إلـى حقيقتـه المزعومـة، ويغفـو علـى كتـف يقينياتـه، بينمـا يرتـاب العـارف بأمـر أسـباب التأدلـج بأيديولوجيـا معينـة فـي البحـث عمـا يـروي عطـش اسـتجداءاته لمعرفـة مـا يجـب فعلـه لكـي يكـون، فيشـكّك بالموجـود لإيجـاد الأفضـل، ويُعمِـل فكـره المـؤرق

تنقيباً في كل ما هو متوافر، أكان مقدساً لنا أم لهم، عندها بالذات يبدع قلقه جديداً، خلقه من رَحْم ما أماته من وصايات لكي يخلق هو... لا أن يستظل تحت فيء خالق الإيمان الأكبر.

جريمة ما بعد الحداثة

ماذا تعني الجريمة في العالم المتقدم؟ وما هو التفسير المقنع في مقاربة ظاهرة، طالما أعمل فيها علماء النفس تحليلاتهم تنقيباً عن أسبابها الكامنة في عنف المشاهد السينمائية على المراهقين حيناً، أو العنف الممارس على بعض ممن تشرّد في طفولته عقب انفصال الأبوين حيناً آخر؟ لكن، ما لم يفصح عنه عتاة التحليل النفسي هو علّة العلل، لأنه لم يرتقِ إلى مستوى ملامسة واقع الجريمة بجانبها الخفي، كونها إفرازاً حضارياً، ونتيجة للتفكك الذي أصاب مأمن احتضان أفرادهم في عائلة حنونة. فبات الفرد، متلهفاً إلى ما يعوض انحلاله عن الجماعة بالابتعاد عنهم أكثر بفعلته، قائلاً: انظروا إني هنا، إني موجود.

خفايا القيادة

إن التلهّف إلى سماع ما تُمثِّله المراكز القيادية من مدفن لأسرار خفية، هو ما يضفي على القائد، أو المسؤول الهالة التي تمكّنه من

اختـراع أسـرار يُسـر بهـا المحتشـدين، كـي يتزعّـم، كمـا تمـده هـي بالقـدرة علـى تبريـر أفعالـه بالـرد الحـازم علـى أقوالهـم.

هذا ما عناه «ميكيافيلي» في نصائحه السياسية للأمير، وعلى هذه الارضية تطوع في كتابه لتقديم مشورة مجّانية لأمراء البادية عندنا.

السياسة نوعان!

ماذا تعني الأخلاق في السياسة؟

بكل بساطة، هي الحدّ الكابح لأهواء الأنا وملذة اغتباطها الحيواني بالتعدي على سكينة الآخرين. وفي هذا الصدد، ما فات نيتشه هو التنويه بالأنا المنفتحة على الآخر، لا المنطوية على نفسها، بعدما كان قد عرّى الإنسان من أخلاق «أناه» في السياسة، وفي الحب، وفي كل ما يخفي مصلحة الذات وراء ما اصطلح على وصفه بأوصاف الغيرية والتفاني والتضحية إلخ..؛ حيث يوجد نوعان من السياسيين: الأول يتمثّل بمن حثته أناه على التضحية بفائدة مادية مؤقتة، من أجل أن يتكرّس هو علماً تاريخياً مهيمناً على أنوات من سيعقبهم. فمات فقير المال وغني الصيت والشهرة، كجمال عبد الناصر وفؤاد شهاب.

والثاني يتلبس همّ اللاهثين وراء مكسب آني لأنواتهم، بغية الاستحصال على منفعة تمجيد مرجعيتهم الراهنة، من دون أن يتطلعوا إلى ما قد تؤول إليه أسماؤهم بعد انقضاء حكمهم، فيعيشون أغنياء في حياتهم وفقراء بعد مماتهم، كمعظم سياسيي اليوم.

وبين النوعين الأول والثاني ما يفيد قراءتنا لمؤدى الأخلاق في نوعها، لا في أصلها، بعدما تمّ كشف الغطاء عما تحجبه من أحجية لـ «توضيب» أنا الإنسان في أصله. وإذا ما اتفق على صحة ما جاء به نيتشه، فلنثمّن غالياً أخلاق السياسيين المرموقين كالذين ضحوا بأنا اللحظة، من أجل أنا أطول، فانعكس ذلك فائدة على الآخرين، ولنحذّر من أخلاق سياسيين وظفوا مزاعمهم الأخلاقية من أجل الاستئثار والهيمنة على أنوات الآخرين، فاختزلوها في «أناهم» المهيمنة على التو.

نقطة ضعف الماركسية

لقد نسي ماركس شيئاً مهماً، أصاب مقتلاً من دعوته التنظيرية للثورة على الطبقة البرجوازية، من أجل الإطاحة بها، وإحلال طبقة البروليتاريا بديلاً عنها على رأس النظام؛ فقد غاب عنه الوقوف عند المفاعيل السيكولوجية لاشتياق الطبقة المُضطَهَدَة في الانقلاب على دونيتها والتعويض عن حياتها الوضيعة التي كانت قد استلبت ألباب عقول ناسها وبطونهم، حينما كانوا مُضطَهَدين، بطريقة لا يمكن أن يتوازن فيه انتصارها اللاحق عدلاً بعد جوع، هو الحاكم والمتحكم بأنماط تسويدها لاشتراكية العمال والفلاحين.

وهنا لا نشكّك بصدق الذين افتدوا أنفسهم وضحوا بالغالي والنفيس من أجل تحسين أوضاع تحزبهم الأيديولوجي إلى عدل

ومساواة، سيغدو لعلّة فوق إرادتهم شعاراً للاستئثار بالكبيرة والصغيرة، بالزهيد والثمين، لكي لا يخسروا ما ربحوه بعدما ذاقوا طعم السلطة والسيادة اللتين كانتا حلماً مستحيلاً عند من كان يتمنّى أن ينال رضى بسمة الإقطاعي أو البرجوازي، قبل أن يثأر منه بالعبس الدكتاتوري في وجه الجميع.

فعلى سبيل المثال، كان «ستالين وتشاوشيسكو» صادقين في الانحياز إلى ما وعدت به اشتراكية ماركس ولينين، قبل أن يُستلبا بالرغبة الجامحة إلى ما يحمي سلطة حزبهم، عبر الثأر اليومي ممن هو خارج الحزب، وللحزب شوكة التعصب إلى ما أنجزه الأجداد الفلاحون، قبل أن يستنفد أعضاؤه الجدد سيكولوجيا التعصب لتلك الإنجازات، فاستبدوا بأمر العمال والفلاحين، وبذلك انهارت الاشتراكية.

فوائد الأرستقراطية

في أخلاق المتحدرين من أصول أرستقراطية، ثمة ما يدعو إلى السخرية من ازدرائهم للذين خلقهم اللّه في طبقة أخرى غير طبقتهم؛ وهذه فكرة هندية ـ بوذية قالت بانغلاق الطبقات بالكمال والتمام، إلّا أن فيها أيضاً ما يدعو إلى احترام عفتهم عن سرقة ما لم تحتجه تربتهم، أو بالأحرى معدنهم الغني بما لا يُقاس مع من كان يشتهي لقمة العيش، ونالها بعدما سنحت له فرصة اقتناصها من أمام «الغير».

وعلى ما نعارضه في مبدأ الوراثة السياسية، إلا أننا نجد أنفسنا

مجبرين على إنصاف من يسرف في تبذير ثروته من أجل الحصول على مكسب سياسي، يثمّنه بأفضل من حياة الترف التي كان قد عاشها، ولم تعد تعني له بالقدر الذي يتشوق إلى عَيْشِه السياسيون المتحدرون من طبقات وضيعة، فالأول يعمل على تعزيز رصيده السياسي ببذل المال، والثاني يسعى للحصول على المال عبر المتاجرة برصيده ـ برصيدنا السياسي.

فأيهما تفضّل؟

علّة التحول إلى واعظين

عندما تعجز أحاسيسنا عند الكِبَر، عن التفاعل مع المحسوسات، تُصاب عزيمتنا بوهن التفكير المتفائل بالذي يجب ألّا يفرحنا، لأنه زائل لا محال. ولربما كانت هذه حجّة كبار السن، حينما يبالغون بعقلنة ملذات الشباب، تقنيناً لها، ضمن نطاق حكمتهم الواعظة للذي يجب أن يفرح أسارير جيل المراهقة، ولعل ما يجعل الآباء يسرفون في عقلنة ملذات الأبناء، هو خسارتهم للوضعية التي صيرتهم آباءً واعظين، أو بالأحرى، لفقدانهم طاقة التلذّذ بما تتلذّذ به حيوية أبنائهم. فكان عزاؤهم الأوحد، في ممارسة الوصاية على طاقة الغير، لربما يعوضهم ذلك حسرة ما أفقدهم إياه الزمن «العمر».

العلاقة الجدلية بين الجسد والعقل

حينما تفقد شيئاً، يعوضك الخالق ربح شيء آخر، هكذا تحلّ فيك حاسة التبصّر العقلاني الحكيم، حينما تفقد القدرة على التفاعل مع الملذات الجسدية. ومن هنا، يستعر صراع الأجيال الذي يجعل من جدل العلاقة بين العقل والجسد، بمثابة وقود لديمومة الجنس الإنساني، صراعاً بين الآباء والأبناء.

لماذا قوّض نيتشه الأخلاق؟

ردّ نيتشه تعقيدات أخلاقنا إلى الحاجات اللاأخلاقية في أصلها وفصلها، فأعاد ما أنسانا إياه زمن الأدلجة، منذ أن صار البشر جماعات، إلى نصاب بساطته، مذكراً بأن القدماء هم من خلق فينا معايير أخلاقية لضرورات حفظ البقاء أولاً، ومن ثم تنظيم النوع، فتحسينه، إلى أن تقدَّس، فتصنَّم.

فاخلعوا عن أنفسكم إذاً، قدسية تلك الأزمنة، واصنعوا لأنفسكم أخلاقاً لهذا الزمن.

النشوة الفلسفية من الخمرة النيتشوية

من يخترق رقابة «أناه» الأعلى (الفرويدية)، ويمزّق خيوط

وصايتها الأخلاقية على متوجباته الاجتماعية، هو «السكرجي» المخدَّر بنشوة خمرةٍ، أمسته بحل من الالتزامات القاهرة لرغباته الممنوعة، أو بالأحرى، لأناه؛ عندها يتفوّه بالكلمات الساخرة نفسها التي اكتشفها الفيلسوف بعد طول كدّ معرفي، وبعد أن عانى طويلاً لتعرية أحجيتنا من مغلفاتها المصنوعة من جلد الحمير، ليجد الحقيقة تقهقه من انشغالنا بالذي لا يستدعي أكثر من إعادة الأمور، إلى براءة الأصل.

صدق الرجال بطولة

إن أهم عمل بطولي سمعته، كان في ما رواه أحد رجال المقاومة الوطنية اللبنانية، وكي لا ألعب بأعصاب فضوليتكم المتشوقة لمعرفة إلى أي فصيل ينتمي هو، كان في الحزب الشيوعي اللبناني، حيث قال: حينما أسرتني قوات الاحتلال الإسرائيلي خلال تنفيذي لعملية اعتيادية، ولدقائق، يقول الراوي: امتثلت إلى أمر الضابط المسؤول في الجلوس على الأرض، فوضعت اليدين على الرأس، بوضعية تسمح لي أن أختلس النظر من تحت الإبط إلى وضعيتهم هم، وكي لا نطيل شرح ما لم يدّعِ في كلامه عن انتشار الأعداء من حوله للبحث عن آخرين محتملين، أردف قائلاً: عندها انتهزت فرصة انهماكهم «بالتمشيط»؛ «فقفزت إلى المنحدر وركضت، فتحرّرت».

هكذا وببساطة. فكم برأيكم زاد على ما قد نزيده فيما لو حصل معنا الشيء نفسه؟

أعتقد أننا كنا سنسترسل في الكلام عما قد يجعل من بساطة المسألة هذه، ملحمة بطولية، ولربما، كنا سنسهب في شرح خيالي عمّا أمدّنا بالقدرة الخارقة في التفكير بكيفية النفاذ من قبضتهم؛ في حين أن نفاذ صاحبنا اقتضى منه عدم التفكير مطلقاً.

الرجولة خشونة؟

كنت أسأل مرة إحداهنّ عن مواصفات فارس أحلامها، فتمتمت بأحرف مثل ج ـ ع ـ ش ـ ق، وتفوّهت بكلمات، لا يُستشف منها معنى واضح ومحدّد، فاتضح منها المقصود الألسني من تمتماتها لأحرف عبّرت فيها عن خشونة المواصفات المتمناة؛ وبعد أن تعثّر بحثها عمّا يطابق خيالات استجداءاتها الأنثوية لخشونة رجل قوي، تعصرّت بعد طول مخاض وقالت: «مثل الجحش».

هل في الحرية تحزّب؟

إن جدوى الحوار الفكري بين مثقفي الحزب الواحد، يوازي بأهميته، جدوى الإملاء الأيديولوجي على عامة المنخرطين في الحزب نفسه؛ مع أن هذه مفارقة بنيوية قد تجعل من المصالحة بين مبدأ الحوار ومنطق الإملاء، أمراً عسيراً على الهضم.

لهـذا، فضّـل القيّميـون علـى الأحـزاب الشـمولية اسـتبعاد النقـاش،

لكي يتعزّز التماسك حول ما يرونه مناسباً للحكم، فأُبعد المثقفون، واحتضن الأميّون.

الممكن من اللاممكن

حينما تذيع سراً سياسياً كبيراً أمام صحافي مرموق في مهنة نشر الأخبار الخفية، وتطلب منه ألّا يبوح به الآن، وعلى التو؛ كمن يضع لحماً شهياً على مرأى من عين كلب جوعان، وتنهيه عن أكله ـ التهامه.

تجارة الكلام

من يُبالغ في الترحيب بك أكثر مما تستوجبه العلاقة بينكما، يريد منك حتماً أن تسدّد تسليفاته الكلامية هذه، فترد دَيْن تعظيمه المجاني لشخصك، بأفعال ومواقف باهظة الثمن، وهذا ما يرتجيه في كل ما يقوله تاجر الكلام.

العناد ليس ارتجالياً

مهما كان تأثيرك قوياً على المتصلّب في موقفه حيال قضية معينة، لن تزيحه عن موقفه، ما لم يقتنع هو بضرورة التراجع عمّا أهدر في سبيله وقتاً وطاقة، لا يوازي جهدك المبذول لإقناعه في وقت أقلّ.

رتابة الالتزام

مساء كل جمعة، كانت تغمرني فرحة انقضاء واجباتي المدرسية، بعد أسبوع من الالتزامات المضنية للقيام بما لا رغبة لي فيه أبداً.

لا أن أستيقظ في الوقت المحدّد صباحاً، ولا أدخل على قرع الجرس بعد فرصة مقنَّنة؛ واعداً نفسي في أن أمتلىء غبطة بحرية اليومين التاليين؛ لكن وما أن يأتي مساء السبت حتى يسدل اسوداد يوم الأحد عليّ لأنه كالجرس الذي ينذر بنهاية عطلة الأسبوع. هكذا عانيت اثنتي عشرة سنة من المرارة وأنا تلميذ، قبل أن أعود إليها مرة ثانية، وأنا مدرّس.

الموضوعية عند الكفاية

إذا ما شاهدت من على مسافة بعيدة، انسياب جدول ماء، وأنت ظمآن، تظن نفسك قادراً على أن تغترف منه مقدار تخيلك السابح بماء عطش، قد يرتوي من كوب ماء.

ذلك أن خطأ التقدير هنا، يرتبط بحاجة الذات إلى كفاية نفسها، لكي تكف عن الشرود بتيه النظر اللاموضوعي إلى الأشياء كلها. فلا تطلبن من الجوعانين ـ الفقراء، الموضوعية في النظر إلى الشبعانين الأغنياء.

الرغبة في الشيء ليس كفعل تلبيتها

عندما تصادف شيخاً عجوزاً، مستلباً بالنظر إلى ما يثير فيه شبقاً جنسياً من جسد فتاة يافعة، تسأل نفسك، هل...؟ كيف...؟ لماذا...؟

وما ترجّحه من إجابات، لا يرقى إلى يقين الافتراض القائل: بأن كل حاسة ميتة، تعوضها حاسة أخرى.

هكذا يجب أن تسمع تصريحات السياسيين

حينما يُكثر الكلام ويتركّز على شيء ما، فلا تعره اهتماماً كبيراً، وابحث عما تخفيه أحجية شدّ الانتباه إلى مسألة عامة، لأمر مصلحة خاصة، عند معظم السياسيين.

والقاعدة هي، أنه كلما زاد الكلام عن الوطن والوطنية، يجب أن ترتاب بالأمر، لئلا يضيع الوطن.

رسم المرأة

غالباً ما يرتعد الباطني خوفاً من أن يُفتضح أمر دفائنه، فيتهذب سلوكه ويعتريه خجل.

لهـذا، كان خجـل الأنثـى بمثابـة فـنّ، التصـق بخُلقهـا، لإخفـاء مـا

لا يجـب أن تظهـره أنوثتهـا المرسـومة بريشـة رغبـة رجوليـة أعملـت فـي ضوئهـا تشـذيباً مـن الشـوائب التـي تناقـض فحوليـة الرجـال، فصـارت رسـماً زيتيـاً فـي زينتهـا، ونصـف إنسـان فـي قمعهـا لأسـارير ذاتهـا، لكـي تغـدو جميلـة وناعمـة.

للتدرج في الوظيفة

ما تمتلكه من إمكانات في مجال عملك، ليس شرطاً لنجاحك العملي، فقليل من الكفاءة يكفي، إذا ما تلقّحت بفنّ التخفّي لتظهر بمظهر العارف المقتدر على ما لا تعرف عنه شيئاً. زد عليها «شيئاً» من دبلوماسية «مسح الجوخ» لرب العمل، عندها تعتلي أعلى المناصب.

كيف يصبح العظيم عظيماً؟

وراء كل رجل عظيم امرأة، ألا هكذا يصير الرجال عبيداً لأضلاعهم المتذرّرة في تقمصاتها، زوجة لنابليون، وأماً لبلزاك، وأختاً لفلان، وعشيقة لعلان إلخ...، فتغدو عظمته، بمثابة تبختر فعل له مفعول بالذي جعل من شخصه وسيلة أو مطية لإظهار الأعظم في دفائنها.

هكـذا تتبـدّل الأدوار، فيتحـوّل الرجـل مـن شـأنه الرفيـع إلـى شـأن

وضيع، وبالعكس، حينما تتولى المرأة المركز الأرفع بإلهامها على ما أبدعه بلزاك، وبرع به نابليون، وغيرهما ممن صادفت واحداً منهم، يسعى ليل نهار إلى كسب المال، من أجل كسب ودّ امرأته التي حفزته على الكدّ والمثابرة، لا باحتضانها أو مساعدتها له، إنما بامتناعها الدائم عن الرضى عليه، قبولاً بظروف واقعه، عندها يبدع في التحايل والسرقة، ليصبح من أصحاب الشأن العظيم في التجارة والاقتصاد.

كما في الحب شفقة أيضاً

عندما سُئل الإمام علي عمّن هو أقرب ــ أحب الأبناء إليه؛ أجاب:

ـ صغيرهم حتى يكبر.

ـ ومريضهم حتى يشفى.

ـ وغائبهم حتى يعود.

ولم يدخل في شرح وتعليل ما فسّره نيتشه حول علّة اقتران حب الآخر بالعطف عليه؛ فالآخر بالمعنى النيتشوي، لا الغريب النائي عمّا تحياه، ولا المختلف المغاير عما تعيشه من ظروف ضمن نطاق تقاليد وقيم جماعة معينة، فكل ما ليس أنت، هو آخر، أكان ابناً أو أختاً أو أباً، حتى من أنجبك رحمها تغدو آخر بعد قطع حبل السرّة، والحب في قاموسه (نيتشه)، هو ما ينتشل من أروقة المشاعر، وما

يتبطن في أحاسيسنا من التباسات، كالحاجة إلى استدرار العطف والاستعطاف ـ الرغبة في الشفقة ـ حب التملك وما إلى هنالك من مقصيات عن قدسية الحب «الأم كلثومي» وسمّوه.

مصاهرة عربية

عندما يغمر المرء حياءٌ قويٌ حيال والد زوجته، من دون داعٍ، وفي كل لحظة، تأكّد من أنه ذو حساسية مفرطة، تقديراً لما قُدِّم له، لما تخلى عنه والد البنت، بالموافقة على نقل ملكيته، إلى الزوج؛ لهذا يشعر الأخير بمنَّة عطاء سخي، لا يوازيه في المقابل ردّ، بأقل من خجل عدم استطاعته على ردّ الجميل، سوى القول: شكراً، شكراً، شكراً على ما وهبتني إياه.

فلسفة الجمال

بعد أسبوعين لا أكثر، ستنتهي معاشرتك للذي كان قد بهرك جماله قبل الاستئثار بجماله إلى حد العمى، عندها ستفقد القدرة على الاستئناس بمسكنك المطل على شاطىء بحر كنت تتمنّاه؛ كما ستنسى جمال الملمح الأنثوي لامرأتك قبل الزواج، ما لم تعش وللحظات ضرورية لإدامة زواجك، «نوستالجيا» حبك لها، رغبتك في امتلاكها، شوقك إلى الاستئثار بلهفة الآخرين لوصالها.

لهذا، الجمال وحده لا يكفي، أو قل: إن الجمال، ضد كل ملكية لأنه يذوي ويذبل مع الوقت، وإلّا اعتدنا على رتابة مشاهدته الآخذة بالبهتان، في حال لم تفاجِىء المرأة زوجها، والرجل زوجته بجمال التجدّد والتغيير، لكي يغذي بدهشة الموقف والسلوك، ما أماتته العادة، فكفنته الملكية.

في الشيوعية عزاء

كلما تحسّرت على ما يترفّه به الأغنياء أمام ناظريك، تنتابك نوبة من النقمة والغضب على قدر تحدّرك من عائلة فقيرة، وقدر ولادتهم في طبقة غنية، أورثتهم الشيء الذي لا يتفق مع عدل مقولة الشيوعيين هذه: «من كل حسب كفاءته ولكل حسب حاجته»، فتدرك عندها أن في الفكرة الشيوعية ثمّة ما يخفّف من ألم التعايش الصعب، بين من يحصل على كل ما يرغب، ومن لا يقدر على توفير أقل الحاجات.

ما يكبح الجنوح

فيما تدعو إليه الأطروحات الواعدة بعدل مطلق، خطب ما، يظهر بوضوح، حينما تجتهد في سعيها إلى ملامسة اشتياقات الذات، تلك التي لا يُقنِّن طموحها انتماء ما، ولا يحدّ من تنافسها انضباط ما، عندها

يظهر خلل في التوليف بين طبيعة الذات الجانحة للاستئثار دوماً، ومبدأ الفكرة الأيديولوجية الكابحة لما تجنح إليه الذات باستمرار.

غنى العباقرة «لعنة»

هل عاش شوينهاور كل هذا التشاؤم المدموغ، انقباضاً نفسياً على أطروحته الفلسفية؟ أم أنه خبر التشاؤم بفكره الفذ، وقدرته الثاقبة على امتصاص تعاسة الآخرين؟

أسئلة، أثارت جدلاً فلسفياً بين المشككين بشؤم من لا داعي لشؤمه هذا غير المفهوم في حياة رجل مُترف بغناه، من جهة، والمتيقنين من أن رفاه الكائن الحساس جداً، لا يحول دون معاناته الوجودية، من جهة ثانية.

ورأينا في ذلك، أن من يمتلك ناصية وقته للتفكير الحرّ بما لا يفكّر به المستلب بانشغالات العمل الوظيفي وهمومه اللحظوية، لا يستطيع الالتهاء عن حقيقته الناقصة تلك التي يتلهى عنها المغتبطون بإنجازاتهم اليومية؛ ساعتئذٍ، يغدو الغنى لعنة، لأنه يتيح لصاحبه التفرغ للإبحار بعيداً عما يؤرقنا، فيغرق أكثر في تشاؤمه.

كيف صار الرجل رجلاً والمرأة امرأة

عرف فرويد كيف يسوِّق فلسفته الذكورية، عندما صيَّرها، وبشاهد عضو الرجل، علماً ثابتاً لنظرية افتراضية. «فالنساء ينقصهن بالولادة ما نبا في الرجل منذ أن كان».

لهذا ربما اشتهر فرويد في تعميم ما يتبختر به فخر الرجال البدائيين، بعدما أضفى على العضو الذكري مسوغات فيها من المنطق الشيء الذي يُظنّ به، علماً مؤكداً لتكريس أفضليتهم على أنثى منفعلة، لا بفعلهم الجنسي فحسب، بل بالمعتقدات الذكورية لإيمائها ولتمنياتها المتمثلة بالحصول على فارس أحلام قوي، يعوضها ضعفاً تاريخياً، لم تحتسب هي علته، حتى الآن.

ثمن الحكمة

مثل أفغاني:

«الدمّ لا يُغسل بالدم إنما بالماء».

السؤال: كم من جريمة شرف ارتكبت، وكم أريق من دماء الثأر والثأر المضاد بين القبائل الأفغانية، لكي ينطق أحد حكمائهم بهذا الوصف الشاعري البارع، ببداهته المنسية عندهم حتى الآن.

الكيفية تحدِّد النوعية

إذا لم ترَ، تخيّل أمامك صورة رجل بدائي، لا بردائه التقليدي، إنما بذهنه المتخلّف عن فهم أوليات عمل الماكينة الصناعية في القرن الثامن عشر، يقود سيارة عصرية موديل 2012، عندها ستجد في هذا المنظر ثمة خطأ فاضحاً، أو بالأحرى، تحدس من هذه الصورة عدم اتساق ـ عدم انسجام وتنافر، فيه وجه شبه مع ما ركبه الشيوعيون العرب في اعتناقهم لنظرية ماركسية متقدمة على الرأسمالية، بعقلية بدوية متخلفة عن الأخيرة، وقسّ على ذلك، الكثير من الاستعمالات التي تتحدّد بكيفيتها النتيجة النهائية، لوضعيتنا، أو لنوعيتنا الحضارية.

ترياق الرأسمالية من سمومها

ما لم يدركه ماركس، في توقعاته لتآكل الرأسمالية بذاتها، أي من تناقضاتها البنيوية، هو أنها من تناقضاتها أيضاً تحيا، ومن تنوعاتها واختلافاتها تستمدّ ترياقاً ناجعاً لمعالجة سموم التناقض الآيل إلى إشعال جذوة الصراع الجدلي، بين أرباب العمل والعمال ـ بين التصنيع والاستهلاك؛ فالليبرالية الرأسمالية أثبتت نجاعة هائلة على امتصاص التحولات الفجائية في سياق تنظيف تلوثات «دماملها» المُحتَقَنَة، بفساد الوجه السلطوي للديموقراطية، وبجور اللاعدل من ليبرالية

.

السوق الحرة، عبر إلهاءات استهلاكية، أضحى فيها الإنسان مستلباً إلى همها المادي، فتدجن بها همّه المعنوي.

نظرة وداع

فيما لو أحسن مهدي عامل توظيف فطنته الفلسفية بغير التبرير لانتمائه الحزبي، فيما لو ارتحل بترحاب فكره إلى فضاء النون، لأمدّه استشهاده زخماً مُضاعفاً، ولكانت قيمة أفكاره أَجَلّ من أن يكرّمه الشيوعيون فقط.

اللاعدل في المساواة بين الناس

من أبرم صيغة هذا التمثيل البرلماني، بمؤدى عملية انتخاب ديموقراطي، لاختيار مجلس يمثّل في عداده عديد الأمة، كان قد توقف فقط عند المساوىء المترتبة على خضوع الأقلية للأكثرية (كأحسن الشرّين)؛ ولم يلحظ، الشر الأكبر في مساوىء الاستبداد «المدمقرط»، هذا الذي أحال الناس إلى أرقام عددية، واختزلهم إلى مجرد أوراق يتساوى فيها العَالِم مع الجاهل، والفيلسوف مع الأمّي، بطريقة تستبدّ بالفروقات والاختلافات، وكل ما من شأنه إعلاء صرح الديموقراطية القائمة على التنوع والمغايرة.

وحتى لا نُتَّهم بنخبوية المطالبة السياسية غير المحقّة في هذا الطرح، قد نتسامح مع مبدأ خضوع الأقلية للأكثرية، وإن كان في التاريخ عِبَر كثيرة، لم نتعلّم منها تثميناً لجديد مقترحات الأقلية، التي بقيت أقلية لهذا السبب، ولِعلَّة بنيوية في الحالة السائدة أيضاً؛ أي ولأن الأقلية في بعض الحالات، وليس في كلها، تخطّت راهنية الوعي العمومي، إلى ما هو أبعد من اشتياقات الوعي التقليدي ذاك الذي تحصّنت به الأكثرية للفوز.

لهذا تسير الأنظمة السياسية اليوم ببطء شديد، وذلك لعدم تماشيها مع التحوّلات التكنولوجية لنخبة من العلماء الذين أتيح لهم توظيف نخبويتهم ـ أقليتهم ببراعة اختراع الهاتف النقّال والكومبيوتر إلخ...

وفي المحصلة، نقترح، كي لا يبقى فصام التوليف بين تخلّف الصيغ السياسية وتقدم المنجزات التكنولوجية هو المتحكّم بأداء الأنظمة الديموقراطية المزعومة، أن تُستبدَل الصيغة، بصيغ تمثيلية جديدة، يُحتسَب فيها صوت بعض الأفراد بآلاف الأصوات؛ كما تلغى من الاحتساب عشرات الآلاف ممن هم مُستلبو الإرادة، لعدم أهليتهم.

امتناع وجيه

مَـنْ القائـل: إن فـي صيغـة الاقتـراع الديموقراطـي الراهـن، ثمـة عـدلاً

حيال من ينتخب، بناء على ما هو غير ثابت، لا في إيمانه بالمرشّح هذا، ولا في اختياره للمرشح ذاك؟

ومن قال: إن اللحظة التي حدّدت اختيار ممثلي السياسة، باقية هي نفسها إلى ما تشاؤه مدّة بقائه في البرلمان خمس، أو أربع سنوات؟

ومن شرّع تجميد وعيي وتثبيته في ما ظننته صحيحاً بنفسي، حينما اقترعت لصالح من اعتقدته مناسباً؟

من يجرؤ على تذويب الأنا بالآخر على نحو اختزالي، لتقرير ما يجب أن تكون عليه أنواتنا اليوم وغداً؟

ومن قال: إن اعتبارات تمثيل الآخر لي، متطابقة مع اعتبارات انتخابي له؟

الإجابة عن هذه الأسئلة، منعتني من أن أقترع في انتخابات الدورتين الأخيرتين.

خلاف ناشىء

في الانطباع الأول، تتحدّد علاقتك بالآخر، وفي اللحظات الأولى لهذه العلاقة تختبر صواب انطباعك عنه؛ و... و... وفيما بعد، تمتحن انطباعه هو لك ـ عنك، عندها يبدأ العراك.

تعاسة ما بعد الامتلاء أو الولادة

عادة ما يشعر المرء بأحاسيس ملتبسة، فلا هي متعينة بخوف على شيء ـ من شيء، ولا هي محددة بالفرح أو الطمأنينة على حاله، ساعة استشكال أمر اغتباطه بفقدان ما كان يخاف فقدانه، أو حزنه، عقب امتلاكه الشيء الذي كان يُسعِد سعيه إلى حيازته، فهذه المسألة بقيت عصية على فهم سائل الحبيب والمحبوب عن حزنهما بعد الزواج، وعن أرق الفيلسوف بعدما أتم إنجاز ما كان يرغب بنشره.

كأن يُسألان، أو يُسأل: هذا ما كنتما تسعيان إليه، أو هذا ما كنت ترغب به، فما بالكما، أو ما بالك «زعلان؟».

المسافة بين التصّور والتجسّد

بين المتصوَّر والمتجسِّد مسافة، هي المساحة التي يتصارع فيها وعينا بين ما نتوق إليه، وما لا طاقة لنا عليه؛ فبين ما نرغب به، وما لا قدرة لنا على تحقيقه، ثمّة فضاء مليء بالتجاذبات الفلسفية والمشادات الأيديولوجية، كتلك التي تنسى أن الأحلام تلك المكتملة في الرؤوس، مغايرة تماماً عمّا في الواقع المجزأ والناقص أبداً.

الحب باقتضاب

من تحبّ ليست هي ـ هو من تجد، لأنه، عندما يقع اختيارك على الشخص الذي أيقظ فيك مشاعر ملتهبة، لحظة رؤيته، تنتابك دهشة من ملامسة صورة المحبوب لصورته المتخيلة عندك، قبل لقياه؛ من دون أن يتطابق ما تخيّلت مع ما شاهدت، وإلا ما كان سعيك إلى محبته، سعياً إلى معرفة من يكون.

التدجين آفة التفكير الحرّ

تُعلِّمنا الأساليب التربوية الحديثة، ألّا ننهي الطفل، حينما يسترسل في الأسئلة عن بداهة فهمه الأولي لعلاقة السبب بالمسبب، إلا أن مجاراة صدق أسئلته البريئة، تعيدنا إلى ما تناسيناه، أو بالأحرى، إلى ما أنستنا إياه المُدجّنات التربوية تلك التي صيرتنا كباراً عارفين بالذي لا يعرفه الصغار، أو قل: متمرسين بالمواربة، هرباً من الذي لا يعرف أن يتهرب منه الصغار.

إما أن تتقدم بذاتك وإما لذاتك

في الناس أنواع عدّة، لكن الأحمق منهم هو من يتلطى بزيّه الخارجي لإخفاء عيوب نفسه ـ ذاته الداخلية، وبذلك تتقدم ثيابه،

أو بالأحرى، حذاؤه على ذاته تلك الغارقة في همّ الترتيب ـ التلميع ـ التنظيم... إلى حدّ، لا مجال فيه للاستغراق في التفكير بدقائق الأمور الأخرى، فإذاً، لا تؤاخذنَّ الفلاسفة على إهمال مظهرهم، ولا وجهاء المجتمع على سذاجتهم، أو كسلهم الفكري.

تبدّل الأدوار

سيء أن يستجدي الضعيف شفقة القوي، لكن ما هو أسوأ، أن يتبجّح هو (الضعيف) استعلاءً وتكبّراً على من ليس أهلاً للشفقة، عندما يستحصل بضعفه على فتات قوة، ليست له.

الصراع على الشفقة

بقيت الشفقة ضمن جملة المقولات الأخلاقية، إلى أن جاء نيتشه الناقم على منّة الأنبياء والقديسين، وشفاعتهم على الناس أجمعين، فأضحت الشفقة في فلسفته، هي الغاية من علاقات البشر فيما بينهم، وهي الهدف من صراعهم المعنوي حول مَنْ يشفق على مَنْ.

ولربما قد أدرج الصراع الطبقي، كوسيلة لإرضاء النفس الإنسانية وكفايتها بالشفقة على المحتاجين، عندما أشفقت نفسه العارفة... على فقر جسده، بالشفقة على الأثرياء الذين لا يعرفون أنفسهم أبداً.

شذرة أنتروبولوجية

بغضّ النظر عما آلت إليه التفسيرات والتحليلات التي تفترض وجود ما لا نعرفه بالتمام والكمال، عند قدماء المصريين، أو الفينيقيين، أو..، أو...، في الحضارات المنصرمة، يتساءل الجميع عن كيفية معالجة الشعوب القديمة لمرضاها، أو بالأحرى، للأمراض المستعصية اليوم على تكنولوجيا لم تكن متوافرة من ذي قبل، والمرجّح في اعتقادنا، هو أن القدماء كانوا قد برعوا في علاج العلل الناجمة عن مسببات لا تتماثل مع علّة أمراضنا المضطردة باضطراد إنجازاتنا التي توازت فوائد الصناعة فيها، مع مضار التلوث البيئي، الأمر الذي جعل لكل عصر أمراضه وعلله، لا على الصحة البدنية فحسب، إنما أيضاً على عافيته الفكرية الآخذة بالتأزّم مع كل اكتشاف جديد.

الهدم النيتشوي افتضاح بنّاء

دكّ نيتشه أسس الأخلاق، ليشيد صرح إنسانه الأعلى، فصبّ جام نقده على القطعان المنساقة بقوة جهلها بأمر الآخرين، وأيضاً لعدم درايتها بأمر نفسها، وحتى لا يؤخذ عليه جنوحه إلى هدم وتقويض ما «كان»، من دون مقترحات تفيد ما يجب أن «يكون»، رشح من نزعته العدمية ـ التشاؤمية تفاؤل خافٍ على من لا يدرك الجدوى من تعرية

الإنسان، وفضح عوراته ليغدو «كما خلقتني يا رب» مكشوفاً من كل المظاهر الغشاشة في أصل أخلاقه وفصلها.

وبذلك، أعاد الإنسان إلى براءة أصله، علّه يعيد ترتيب نفسه، وتأليفها بأحسن ما يكون.

الحياة للأقوى

النظريات التي دعت إلى انتقاء الأحسن للبقاء أو لديمومة النوع، لم تختر بمعظمها أفضل الناس، فوقعت أسيرة النظرة العنصرية الضيقة في مفاضلة عرق على آخر؛ من دون أن تولي اهتماماً جدياً، إلى ما تتحدّر منه سلالة البشر ككائنات «برمائية» في تكوينها الفيزيولوجي المتحلِّل بالضرورة مع انقضاء الزمن.

فالكل سواسية إذاً، أمام موتهم المؤجل حتى تحين الساعة، والكل خاضع إلى ما يخضع إليه قانون تعاقب الأجيال؛ فالتداور اللاثابت في نقل الموروثات من الأب... إلى الابن...، من السابقين... إلى اللاحقين...، رغم أن الانتقاء الطبيعي، كان أحسن من الانتقاء العصري هذا المصنوع من كيميائيات الأدوية السرطانية، على سبيل المثال لا الحصر، في حضارتنا هذه الذاهبة إلى إطالة عمر الإنسان، أكثر مما تحتمله سنونه المنقضية بانقضاء حياة كل منا.

وكي نوفّر على علماء الجينات جهد اكتشافهم ترياقاً لعلاج

الأمراض الوراثية، نقترح أخذ خزعة «جينية» لاستنساخ إنسان معافى من أمراض العصر، وهذا لا يتأمّن إلّا من رجال القبائل البدائية التي تعيش اليوم خارج العصر.

حقيقة مرّة

«الحياة للأقوى» صرخة، لم تغيِّر أو تبدِّل بحال من الأحوال شيئاً، سوى أنها ردّ واقعي على يوتوبيا الفلسفة الأفلاطونية، فكانت أن تصدّت للمزاعم الرومانسية الحالمة والجميلة، لمبدأ المساواة بين حقوق الإنسان وواجباته، وبذلك، أعادت المسألة إلى واقعها المرّ، بأن لامساواة بين الضعيف والقوي، ولا عدل بين القوي والأقوى، رغم أنف ليبرالية الثورة الفرنسية، واشتراكية الثورة البلشفية.

سيوران ابن عاق لنيتشه

لم يكن سيوران عادلاً بحقّ نيتشه، حينما أشفق على جنوحه المجنون نحو عظمة «إرادة القوة»، باعتبارها فعلاً تعويضياً، وذلك لاستدراك ضعفه المسكين، لأن الإشفاق يفضي بصاحبه إلى الامتلاء ثقة بالحياة وتفاؤلاً، لم نعهده في حياة سيوران القلق من تداعيات خروجه على الزمن، أو سقوطه خارج الزمن.

بهذا المعنى، لا نفهم من إشفاقه على نيتشه ونعته بالمسكين، سوى أنه داء للتداوي من عضال علته النيتشوية التي أصابت، وتصيب، وستصيب كل الأحاسيس المفرطة بإنسانيتها، سوى أنه تخطٍّ لأبوّة أستاذه ومرشده نيتشه، وذلك للارتقاء نحو العظمة المتواضعة لسيوران الذي عانى هو أيضاً من بلاهة محيطه.

لفتة فيلسوف

إن تنميط حياة البشر في دورة استنزافهم الاعتيادي (إنجاب ـ عمل ـ استهلاك)، يضفي معنىً خاصاً على معايير نجاحاتهم في الانخراط الجدي بملهاة هذه التراجيديا، أو بالأحرى، الكوميديا الإنسانية.

لذا، قلّ ما نجد فيلسوفاً مبدعاً لا يسخر بالقهقهة على مسرحية حياتنا الهزلية، المتتالية فصولاً أزلية.

خيبة نيتشوية

فيما لو كان نيتشه يحيا في عصرنا هذا، أي في زمن الاستنساخ، على ماذا كان سيحكم، بعدما استنفد تبشيره بالــ «ماسيكون» عليه إنسان القرنين المقبلين؟

لعله كان سيتراجع عن دعوته للاتساق مع إرادة القوة عند إنسانه الأعلى، هذا المستلب بقوة غير مسبوقة في التاريخ، إلى إنجازات تكنولوجية حبست تفكيره في نطاق ضيق، بما لا يُقاس مع رحابة إنسان ماقبل العولمة.

تحية إلى ماركس

لم يشهد التاريخ من قبل، مثل هذا الكمّ المركَّز من التدجين على إنسان، يخضع ومنذ ولادته، إلى ما يجعل من شخصه مُختَرَعاً بما يتلاءم وحاجة السوق، ليغدو مسلوب الإرادة والحرية، تحت غطاء حماية حرية التنافس بين مالكي السلع، بغض النظر عن مفاعيلها السيئة على المستهلكين.

وبهذا قد تمّت إعادة صياغة مفهوم الحرية، كيما تصير أسيرة تنميط حرية السوق.

حاملو الأمانة ليسوا أمناء

أمَّـن اللَّـه علـى البعـض بنعمـة الغبـاء، وبراحـة التسـليم إلـى تقليـد مـا كان بـه يحيـا الأسـلاف، تكـراراً ببغائيـاً، لا يتمثّـل بالأسـباب التـي حـدت بالسـابقين إلـى الالتـزام بمثـل هـذا القـول، أو ذاك الفعـل، إنمـا يمتثـل إلـى

نغمة المنطوق، وإيقاعه المنقول إلينا برتابة ترتيله، كما لو أنه من خارج التاريخ، حتى إنه يغدو بلا قيمة، إذا لم نتّخذه شاهداً حيّاً على الحيثيات والظروف الاجتماعية لأهله؛ والمشكلة في أن قيمته من صيرورته عندهم رمزاً مقدساً على موت أهلنا ـ أهلهم؛ فيتلفعون برداء التراث طلباً لدفءٍ نوستالجي، علّ ذلك يقيهم صقيع الخروج من البيوت القديمة، إلى حيث يجب بناء بيوت جديدة.

جدل غير بيزنطي

يستبسل الحرس القديم في الدفاع عن الهيكل لحماية أنفسهم من لهيب نار التجديد، فالنار لا تلتهم الأخضر، إنما تتغذّى بيباس العقول التي لا تَحُوْل دون احتراق الهيكل، بل العكس، فهشيمها يُمهِّد لامتداد الحريق إلى عقر دار «البراز» ـ عفواً البذور اليابسة.

للاختصار تكملة

تريد أن تنقّب عن العلامات الدالّة على تفوق الحضارة الغربية الراهنة، فلا تجهد نفسك بالبحث الأكاديمي عن علّة التأخر أو التقدم، عند هذا أو ذاك، ولا عمّا إذا كانت الأزمة الوجودية تؤرقهم أكثر مما تقلقنا أوضاعنا الاجتماعية والاقتصادية.. إلخ، وما عليك إلّا أن تنظر

بتمعّــن فــي إيمــاء وجوههــم وملامحهــا حتــى تجــد نفســك أمــام شــعب مختلــف، لا بالمعنــى الاستشــراقي التقليــدي، إنمــا بمــا تســتوحيه مــن نعيــم اطمئنانهــم الظاهــر علــى ســيماههم وهدوئــه، مقارنــة مــع الإحبــاط ـ التوتــر والخــوف الدائــم مــن الغــد الــذي يعتمــل فــي نفوســنا.

إحالة الواقع إلى صورة

لماذا يكره الأتراك العرب، في حين لا نضمر لهم الشيء ذاته، وبالقدر نفسه؟

ولأنني لست تركياً، أخمن الجواب، عبر افتراضات ليست جازمة، وإن كانت مُسنَدَة إلى ما لا يعرفه معظم الأتراك عن أمتهم المتشكلة من لفيف أوروبي كان يرتزق عيشه من خدمة الخلفاء العرب، منذ أمد ليس ببعيد. وككلّ أمة مهجّنة ويافعة، شذبت الأمة التركية نفسها من العلائق التاريخية السيئة، تلك التي قد تشكّك التركي بهويته المجيدة، ليغدو من الطبيعي أن يعتمل مقصها قضماً ـ حذفاً ـ زيادة لتفصيل ثوب يتفق وحاجة شعوبها إلى التماسك والتكتل حول قدسية الانتماء إلى إطار أيديولوجي فيه:

ـ الخوف من الآخر (العرب) يعزز الانتماء التركي.

ـ والتكبّر على العرب يغذي إحساسهم بتفوق استعماري مجبول بمهانة تأخر اقتصادهم، إلى أقل من تخلّف اقتصاديات البلاد العربية المحكومة كانت من قبلهم.

ويجب ألا ننسى، بأن وعيهم محشو بصور وأقاويل حكواتية عن العرب، من شأنها أن تتحوّل في دفائن لاوعيهم إلى ما يشعر به التركي من غرور حيال العربي.

وبأسوأ التقديرات، نعزو المسألة إلى أن من لا يحب نفسه، لا يمكن أن يحب الآخرين. أمن حاجة للإضافة بعد؟

ملاحظة: ثمة نهضة اقتصادية وسياسية في تركيا اليوم، تعود إلى أسباب انتماء الأتراك إلى هوية «نيوإسلامية»، فإحكام الإسلام، كما المسيحية، يشدّ منبته إلى صرامة آلت في الأطراف الأوروبية والتركية إلى مرونة من شأنها إعادة دفع هذه المجتمعات بقوّة أكبر.

صحافة غبيّة

إن أطرف سخرية دراماتيكية، هو أن تخضع إلى تقويم جاهل بأدق الأمور، وأكثرها حساسية على موقفك السياسي، فبين نقدك لسياسة الحريري مثلاً، لصالحه، أو انحيازاً إلى مشروعه، من ناحية، والتبرير لأخطائه السياسية المضرّة بمشروعه، من ناحية ثانية، فرق هو الذي يفصل بين الكلام عن إسرائيلية أميركا، من جهة، وانحياز أميركا لإسرائيل، من جهة ثانية.

فـإذا كنـت ممـن لا ينحـاز بالمطلـق إلـى كليشـيهات سياسـية، فـلا تبعـث بمقالـة سياسـية إلـى صحيفـة مُوجَّهـة، كـي لا تَحشُـر مقـصّ المحـرّر،

فتجبره على اختصار ما لا يمكن اختزاله إلى ما يتفق ومساحة إخراجه لصفحته الموقّرة، أو بالأحرى، إلى ما يتلاءم ومساحة وعيه أو فهمه لمقصدك مما كتبته.

خنوع الالتزام بالضوابط كلها

إذا كان ولدك ممن يكره الالتزام أو الانتظام في قوانين مدرسته، فما عليك إلا أن تغتبط من سرّ عافيته البدنية والفكرية، تلك التي تنحو به إلى التحرّر من سجن الواجبات المفروضة عليه بقوّة الإرغام، فهذا دليل، على أنه يمتلك حساً حيوياً مرهفاً، لا يطيق تكرار الجلوس على المقعد ذاته، ومرافقة الأشخاص ذاتهم، والنظر إلى اللوح ذاته أو الأستاذ، والاستماع إلى الأصوات ذاتها، التوبيخ والنهي، و...، و...

أما إذا كان يستأنس بهذه الاعتيادات، ففي المسألة خطب ما، عليك أن تعالجه بالنظر إلى ما في أمره من خنوع ـ قبول ليس في صالحه، حينما تنتهي مدّة تدجينه التربوي.

ذلك أن محبي المدرسة وهم صغار، يغدون عند كبرهم حراساً شرسين للمدارس الاقتصادية ـ السياسية ـ الثقافية السائدة، ومن لا تسرّه ضوابطها يصير طامحاً ـ متمرداً على ما تفرضه القيود المؤسساتية، من أجل شيء آخر أفضل بالضرورة لأقرانه. فلا تبالغ في محاسبة ابنك إذاً، على كسله المدرسي، إذا ما خاب اكتشافك لنجاحه غير المدرسي.

ـ قلائل هم من لا تصح عليهم هذه المعايير.

مفاضلة

إن خسارة الحضارة الغربية للدفء الناجم عن سيكولوجيا الأمان الجماعي، لصالح حرية فردية، أثمن بما لا يقاس مع ما نتهم به تلك المجتمعات من تفكك سوسيولوجي، بمنظور فهمنا للتماسك والتكتل الأهلي، هذا التماسك الذي استعاضت عنه مجتمعاتهم بالتآلف حول حق الدولة في حماية الفرد، لا الأهل أو القبيلة.

فأيهما تفضّل؟؟!!!...

شوينهاور قبل نيتشه

من يريد أن يفهم «مبدأ العلّة الكافية» عند شوينهاور، عليه أن يعرف كيف تمثلت «اللغة» عند نيتشه، كخيوط عنكبوت مانعة للمعرفة التي تدور في نطاق العقل، كما يدور السنجاب في العجلة، على حد تشبيه شوينهاور.

ومثلما ربط شوينهاور امتثالاتنا لأي موضوع خارجي، بذات العقل وقوانينه الفاعلة قبل أن تنفعل، أيضاً وأيضاً، اتسمت المعرفة البنيوية عند نيتشه بِبُعد «شوينهاوري»، حينما علقت بشباك لغته ـ لغتنا أصلاً.

أسير التنميط

إن مبدأ العلاقة الجدلية بين الهيولي والصورة عند أرسطو، كان هو المدخل المنهجي في تفسيره لموجودات الوجود، أياً كانت طبيعتها ـ جماداً أم كائنات حيّة، مع أنه خصّ الإنسان بميزة تعقله لعلّة وجوده عبر إدراكه لموضوعات ذاته العاقلة، إلا أن الأمر، لا يقتصر على ما آل إليه رأيه الفلسفي في أسباب وجود الموجودات، بل تعداه إلى ما يفسّر ارتقاء وعينا وتحوّله، من الجهل إلى العلم، من المعرفة بالقوة إلى المعرفة بالفعل؛ وهكذا دواليك، صارت الصورة هي المبتغى لمعرفتنا الآخذة بالتطور مع كل اضطراد في علاقة الهيولي بالصورة، وحتى لا تؤخذ علينا إعادة تكرار ما قاله أرسطو، نُضيف إلى ما لم يقله: إن صورة الموجود الإنساني لا تضطرد إلى ما لا نهاية، إذا ما استأنس الشخص إلى الصورة المعطاة له من قبل الآخرين، فيدخل بها ويتلبسها حتى يغدو أسيراً لسماتها وناطقاً بما يمليه عليه رأي الآخرين بها، وتوقعاتهم لها.

الفلسفة أبسط من «فذلكة» المنظرين السذّج

حينما يتجسم الكلام النظري في صور تطبيقية، تستثار شهية البسطاء الذين لم يعتادوا على التجريد النظري، لافتقادهم مفتاح فهمه؛

ولأن الفلسفة تتّصف بهذه السمة، على المعلمين والأساتذة أن يقاربوا تجريداتها الجافة، بأمثلة عينية ومباشرة، لئلا تبقى حكراً على نخبة تدرك في قرارة نفسها، أن نخبويتها متأتية من التفرّد في الاختباء وراء الهيكل العظمي لكلمات مجردة وجافة، وذلك كي نضفي على الفلسفة هالة غير صحيحة، تستبان فيما لو كشفنا النقاب عن محتجباتها، بكلام أسهل وكلام أدق.

طفح الاسترسال

إن الاسترسال في نقاش المسائل الفكرية ـ التاريخية، يعتبره البعض شططاً، قد يضيِّع الطرف المتلقي ويشتّت دخوله في لبّ القضية المقروءة أو المسموعة، لا بذاتها، إنما لذاتاتهم التي لا تتسع إلى ما يستطرد إليه المفكّر الموسوعي، وذلك، لأن مساحة وعيهم غير مؤهلة لاستيعاب روابط الاسترسالات الموثقة مع الحلقة المركزية، ولا هي أيضاً بقادرة على متابعة الصلة العضوية بين الموضوع الرئيس، واستطراداته المتمظهرة كما لو أنها موضوع بذاته.

فلا تساجل إذاً، يا أيها المفكّر، عقول البسطاء بأكثر مما يفهمه ـ يريده السذج من إجابات محدّدة وجازمة، وللتوفير، لا تُجِب بأكثر من «نعم» أو «لا».

صمت الجهال ليس كصمت العارفين

ثمة نوعان من الصامتين، الأول، من لا يعرف ويعرف أنه لا يعرف، فلاذ إلى الاحتيال على جهله ـ جهلنا به بالسكوت والإحجام عن المشاركة، كما لو أنه يدقّق في منطق الآراء «المقوولة»، والثاني هو من فاضت معرفته عن الحدّ الذي يسمح بنقاش مسائل، هي بالنسبة له، بداهات لا تستدعي جهد مشاركته، اللهمَّ، إلا ببعض التعليقات الساخرة.

التمييز بين الصنفين، ليس بالأمر السهل.

في الفن كُمونٌ فلسفي

إن في ملمسة النظريات الفلسفية في رواية أو لوحة أو مقطوعة موسيقية، نكهة خاصة، يتذوقها عارف الفلسفة بلسان فنان أصيل، بينما يتذوقها الآخرون بشفاه فاغرة وعيون مشدوهة إلى براعة ما رواه نجيب محفوظ في «أولاد حارتنا» مثلاً، بحسّ الفلسفة الوجودية، وألبيرتو مورافيا في «أنا وهو» أيضاً، تجسيماً لعلم التحليل النفسي، «الفرويدي»، ذلك أن اختمار الوعي الفلسفي في ذهن الفنان يجعله يبدع ما لا يفهمه أشباه الفنانين ومقلديهم.

فابحث إذاً، عن الفنان الأصيل والمبدع، والتقط من إنتاجه دوماً، الأثر الفلسفي.

تعرية الذات

يؤُجل المُحبّ كشف نفسه دوماً أمام المحبوب، لكي يصير بدوره محبوباً، ولأن العملية تطلبت احتجاباً، لئلا يُصاب الأحبة بخيبة أمل مما كان يتوقعه أو يظنّه كل طرف بالآخر، وطالما لا قدرة على تقنين طاقة كلٍّ منهما في المساومة المتبادلة تلك التي يجيدها الأحبة قبل الزواج، فإنهما يتعريان من خفايا حبهما لحظة دخولهما القفص الزوجي، لتغدو لعبة المفاجآت والخيبات المتبادلة، هي مسرح مشاكلهما التي قد لا تنتهي إلّا بالانفصال.

لهذا قال أحدهم: إن الزواج مقتل الحب.

صراحة صعبة

يستهدف المرء إثارة الإعجاب بردائه، أو بارتدائه الشيء الذي يحسبه قادراً على استمالة ذوق الآخر، الذي هو من الجنس الآخر في أغلب الأحوال والأحيان، فيتلبس شخصه سمات ليست له، ولا تعكس حقيقته، فيتأجل انكشافها حتى يحين موعد عريه التام من

الألبسة التي كانت قد صيرته جميلاً في عين الآخر. فالزواج يفتضح العورات التي يجهد المرء لإخفائها عن الحبيب، بنيّة ليست سيئة، إنما لظنِّه بأن حبه يشترط إخفاء ما لا يرغب به معشوقه. ففي ماقبل الزواج مساحة ـ مسافة توفّر له حرية استجماع الطاقة حتى يكون بالحلّة التي يريده فيها الآخر، وما بعد الزواج يفتقد القدرة على أن يكون غير نفسه.

فكن إذاً، أنت نفسك، منذ اللحظة الأولى، تربح.

فرق حضاري بيننا وبينهم!

أي متى يكون المرء هو نفسه؟

ففي الشتاء يرتدي جسده ثياباً سميكة حتى يتقي من البرد القارس.

وعند الخوف يحتمي بالاختباء مخافة أن يتعرّض لخطر محدق؛ أما في الحالات الأخرى، فيدفعه الدفء إلى أن يخلع الأغطية الحاجبة، ويحثّه الاطمئنان على أن يُبدي رأيه بحرية، تتيح لنفسه قول ما لا يسمح به، لا الصقيع، ولا الخوف.

في الحذر المفرط ضعف

إذا أُجبرت على التعامل مع من لا يمتلك ما يخسره، فهذا يعني،

أنـك قـد وقعـت بمعضلـة الخـوف مـن خسـارة محتملـة، سـتفقدك هـي مهابـة الإقـدام علـى مواجهـة، كانـت قـد تحصّلـت مـن خلالهـا قوتـك ـ احترامـك المهـدد، لا مـن الآخـر فحسـب، إنمـا مـن قلقـك ـ خوفـك أنـت علـى مـا يجـب أن تدفـع ثمنـه، خسـارة أقـل مـن خسـارة أسـباب اسـتهدافك أو تعرّضـك.

حذاقة التمظهر

تُصادف أحياناً فئة من البشر، وهم غالباً من أصحاب الوظائف الكبيرة، أو المراكز الحساسة، متعجرفين، بعدما أصابتهم الثروة بغرور احتكارهم لها، وتفردهم في كيفية تحصيلها بسهولة استئثارهم بمفاتيح الكسب السريع؛ أكان على مستوى علاقاتهم، أم لناحية تمرسهم في هتك مصالح الصغار، وذلك عبر التلطي خلف مقدساتها.

فهؤلاء يجيدون الالتفاف على المحرمات، من خلال تحايلهم الديني، الذي يتوازى مع قدرتهم على التهرب من دفع الضرائب، فيتكلمون باقتضاب العارف بالذي لا يعرفه الآخرون، وبترفع استكباري، فيختصرون أجوبتهم إلى ما يُفهمنا، بأنهم هم أصحابها.

ولا تنسَ السياسيين أيضاً.

متلبسو ثقافة المبدعين

إن من يُجهد نفسه من أجل تقديم ذاته بصورة المميز عن الباقين، يستجدي شيئين: أن ينال ثقة الآخرين، بالذي يؤمن به، وأن يستحصل منهم على اعتراف بهوية معرفية، لم يقدمها إنتاجه، فأراد «مَنْتَجَتَها» بكلامه، وهذا دليل على أنه لا يمتلك علّة الإبداع التي تُنتج ما يفرض نفسه عليهم، فتسبقه إليهم بالقوة إياها التي تعفيه من أن يتقدم هو عليها.

جموح الرغبة الشبابية

الفجع لا يقتصر على نهم البطون الخاوية، ولا على من ضاقت فيستنفرون بعينه حتى أرغفة الفقراء، فحسب، بل أن الرغبة الجامحة للشباب الذين استزادتهم مناسبات الفرح بشحنة توتّر، تفوق قدرتهم على إشباعها من خلال الموجود.

ذلك أن تقنين الطاقة ليس من يمّ المتوقدين حيوية واشتعالاً، فيستنفرون بغية استنفاد المرغوب باندفاع ودفق قوي، لا يتفق ومحدودية كفايتهم في الارتواء من كوب ماء، لا النبع كلّه.

أبهذه التجارب يصير الشباب حكماء قانعين بالاقتران من شريك واحد، لا من النساء كلها؟

على الشاطىء

في الوهلة الأولى تأخذك الدهشة من اتساع البحر وامتداده أو عمقه.

في الثانية، ازدراؤه من تأملك فيه على هذا النحو.

في الثالثة، يثير فيك أسئلة صعبة عن سرّ جهلك بماهيته ـ ماهيتك الوجودية.

بعدها ترضى باسترخاء جسدك على ما تلفظه أمواجه، لتشرد في أفقه المحدود بحدود نظرك الأضعف من أن يحيق امتداده في إطار مشهدي ـ صوري محدّد.

نيتشه فيلسوفاً حتى في ممشاه

سيرة حياة نيتشه مليئة بالمواقف غير الاعتيادية، كتلك التي لا يألفها البشر العاديون.

السؤال: ألهذا الحدّ كانت تجليات سلوكه صادقة في التعبير عن فلسفته؟ أم أنه كان مستلباً في ممشاه غير الاعتيادي إلى ما قالته فلسفته غير المألوفة؟ جدلية ماركس قالت بالمسؤولية المتبادلة بين المسألتين.

أما هو فمات مجنوناً.

فينومينولوجيا على «الماشي»

إذا كنت غارقاً في مراقبة أمر نملة تمشي باتجاه ما، قد يأخذك التفكير إلى التساؤل عمّا تفكر به، عما تريده أو تشعر به، وبالإذن من أصحاب النظريات التي ردّت سلوك الكائنات الأخرى كلها إلى الغريزة.

فهم ليسوا نملاً حتى يعلموا علم اليقين، فيجزموا بغرائزيتها.

فإذا كنت تتأمل بهذا الذي يعتقده الناس أمراً تافهاً، ولم يسترع انتباهك الصخب المثار حول قصف البناية المجاورة، فأنت إذن، «فينومينولوجي - ظواهراتي» بامتياز.

أدلجة وإبداع

المتفلّت من «التابويات» المستحكمة بالعقول التقليدية، قد تتفتح من أمامه مساحات مُغلقة؛ فتنفرج مداركه على فسحات رحبة تدعوه إلى التحرّر من شرانق فكر الأقدمين، هذا المُتَّبع كأيقونة بالذي يجب أن نفكر به.

لذا، كان الإبداع ولايزال وسيبقى صفة ملازمة للشخص الذي طلّق الأيديولوجيات، فأضحى وعيه من دون مسبقات في النظر إلى ما اتصفت حقائقه المطلقة بتبجيلات، جعلت من صاحبها أعمى البصيرة ومقلداً ببغائياً، لا يلوذ إلى أكثر من تكرار النغمات القديمة.

«رومانسيات» ضرورية

يستنبش قلم جبران خليل جبران من قارئه، هياماً رومانسياً عند محاكاته تمرد الشباب وزهوتهم الحالمة، قبل أن يقعوا من علياء أمنياتهم وتصوراتهم الجميلة، صرعى على أرض الواقع المرير والملوث بتناقضات، في فهمها أو استيعابها يصيرون حكماء في النظر الموضوعي إلى أمور حياتهم الناقصة أبداً. تماماً، مثلما يستثير صوت عبد الحليم حافظ في أذن سامعيه صفاء عشق نقي خالٍ من المشادات والاختلافات بين أحبة، لا يفقهون من الحب أكثر مما يحيونه في مشاعرهم وأحاسيسهم الملتهبة، قبل أن يفتضح الزواج أكذوبة ذوبان شخصين في شخص، أو انطفاء كيانين منفصلين في حالة، ليست هي سوى تعبير مرحلي عن مدى توقد الشباب وإقبالهم على ما تجاوزه الناضجون، حينما تصالحوا مع حقيقة أن لكل محبوب «أناه».

فيلم سينمائي يُدخلك في مناخ الفلسفة!

مـن محاسـن الاختيـار، أن ينتقـى يوسـف شـاهين مـن بيـن الفلاسـفة العـرب المسـلمين الكثـر، ابـن رشـد، لا الغزالـي، لإخـراج فيلـم تاريخـي صـوّره بعدسـات عيـن عصريـة، أحـال مـن خلالهـا أزمتنـا الحضاريـة اليـوم، إلـى محطـات ظلاميـة تاريخيـة، رافقـت ومنـذ أمـد بعيـد كل الأصـوات التـي

حاولت استكمال نهضة الأمة، عبر نشر أفكار حوارية نيّرة، تمثّلت في أهمها بالرشدية التي كان لهزيمتها، أن انتصر الوعي العربي المأزوم، هذا الذي تعود إليه إخفاقاتنا المتتالية، حتى هزيمة حزيران 67، إذا أردت.

فحينما تشاهد فيلم «المصير» من منظور فهمك وعرفانك المسبق بالفلسفة الرشدية، لا تدخل بمقارنات، إنما تستأنس بالمقاربة الفلسفية التي حرص شاهين على أن يحاكيها بروعة تجسيمها الفنّي في فيلم سهل، وليس عسيراً على هضم الوعي العمومي الذي يتوق في لاوعيه للانحياز إلى ما يمثله فرح الرقص والغناء في الفلسفة، لا إلى الغم النظري الذي عاداه الناس، معاداتهم ما يجهلونه عن الفلسفة، فالأفلام السينمائية المبدعة هي من النوع الذي يستحيل على السرد، وإلا أضحت متقطعة متشذرة، كحكاية تشذرنا الصعب، والأصعب منه، نقلها بصور سمعية وبصرية، لا رابط مباشراً فيما بينها سوى ما يشد وثاقها بإيحاءات رمزية، قد تخرجك عمّا تظنه بنفسك إلى ما أنت فيه، إلى ما فيك من أثر، قابع خلف ما مررت به منذ ولادتك اللاواعية، حتى وإن كانت محسوسة بلذّة تذوقك لفيلم «المريض الإنكليزي» «The «English patient مثلاً.

وفيلم «المصير»، هو أيضاً مما يسمح لك بأن تشتم رائحة مرحلة تاريخية، بصفاء ورخاء لا تعكرهما أبداً، التباسات موضوعها الفلسفي.

لكلٍّ نطاقه

الفنان المبدع يُجيد تثوير الناس بالتأثير في مشاعرهم من خلال موسيقاه، أو مسرحياته الهزلية الساخرة، أو... أو... إلخ؟ فهو إذاً، من يقود الحس التغييري، ويوجِّهه في مجتمع قد يحصد سياسيوه ما يراكمه الفنان، أو ما يؤسسه من حالات هي بمثابة إرهاصات أولية، عند أي تحول مجتمعي.

هكذا مهّد العصر الباروكي «باروك»(*) في إيطاليا للنهضة الفكرية العلمية في أوروبا، وهكذا كان أدب ڤولتير الفرنسي سباقاً في إعلاء شأن إنسان الثورة الفرنسية، فالفنان قد يؤثر بفنه في مشروع سياسي بأكثر مما يؤثره ربما كلامه السياسي المباشر.

أمن ناصح لزياد الرحباني بالصمت وعدم الثرثرة، أي بعدم الخوض في كلام السياسة، بل بمسرحته؟

من ماركس... إلى الشيوعيين السوفيات

لم تتوافر لماركس وإنجلز لذة ممارسة السلطة على أتباعهم هؤلاء الذين استزادهم الحصاد الفكري المزروع، براعة في مخاطبة تابعي الأتباع، كأمناء جديرين بالوصاية على ما يجب أن يفعله جمهور

(*) باروك: أسلوب في التعبير الفني أدباً وبناءً يتميز بالحركة والحرية.

المحازبين؛ ولربما كانت هذه، سمة الفيلسوف المهموم بالبحث عما يريح الآخرين الذين يرتاحون إلى ما تأمّن من راحة لسطلتهم.

حسرة وجودية

على حافة بحر هادىء، وعند مغيب يوم صافٍ، يغمرك إحساس غريب، قلّ ما تشعر به بين جدران بيتك، حيث تمتزج فيه غبطة تأملك الرومانسي في جمال المشهد الأخَّاذ بالحسرة الوجودية على خسارتك المقدَّرة لهذا المنظر بموتك المؤجل، عندها تدرك أن لرومانسية شوينهاور، أبوّة منبثّة في عدمية نيتشه وتشاؤمه، كما ينبث هو أيضاً في وجودية سارتر، وهايدغر أيضاً.

فنّ التروّي

كي لا تغرق عليك ألّا تخاف، وكي لا تخاف عليك ألا تغرق بالأوهام التي تستنفد جهدك ـ قوتك بأسرع من المتوقع، فتقنين الطاقة عند السباحة، فنٌّ للخلاص من الأمواج العاتية أو التيارات الخطرة، فبفضلها تنطلق بأقصى سرعة للوصول إلى خط النهاية في سباقات الجري، وهي نفسها تمدك بالصبر للنفاذ من المواقف الحرجة في المجتمع.

بين الفلسفة والعلوم التطبيقية

كم فيك من قوة حتى تستجمع ما يحيط بك من أشياء لا تعنيك، بقدر ما يعنيك الاهتمام بواحد منها؟

سؤال، أجاب عنه منطق العصرنة بالتفريع والتخصص في العلوم التطبيقية.

أما في العلوم الإنسانية كالفلسفة والأدب وغيرهما، فمازال السؤال معلقاً بتعليق الجواب عن ماهية الفلسفة وحدود الأدب، أو علم النفس، وما إلى هنالك من قضايا تستدعي برأينا سؤالاً آخر أدق:

ماذا لو غدت الفلسفة أرقاماً، وصار الأدب معادلات رياضية؟

بالتأكيد، لأصابهما ما أصاب الرياضيات والفيزياء أو الكيمياء من نجاح في صياغة ذوق البشر وصناعتهم، وذلك من أجل استهلاك منتوجاتها الحسية، ولأن مفاعيل الإنتاج المادي على النفس بحاجة إلى الأنسنة، نحتاج اليوم، أكثر من أي وقت مضى، إلى أن تبقى الفلسفة حرّة، والأدب طليقاً من نطاق الحصر العلمي في تقدمه السريع، لئلا يغدو البشر أرقاماً وأعداداً، لا تعبّر عن جوهرهم الملتبس والمعقّد بما لا يقاس مع وضوح اللغة الرياضية وتحديداتها.

فالفلسفة تخوض في نقاش الحيِّز المهمل في الإنسان، بعدما تركته العلوم التطبيقية عرضة للقياس الكمي. ذلك أن نوعنا أعمق من أن يُسبر غوره بمقياس أدوات اختراعاتنا المحدودة.

همّ العبقري ليس كهمّ الموظّف

لعل في نسيان الأمور المشتتة تَعمُّق في أمر ما، ليس إلّا، وإلّا ما كان ليتميّز معظم المفكرين الكبار بصفة النسيان ـ الاستهتار وإهمال الأشياء التي تحتلّ حيّز المهمومين بشراء المساحيق لتنظيف البيت وترتيب الهندام الاجتماعي، بينما يستغرق المبدعون في التركيز الكلّي على أمر، التعمق فيه، يصيِّر كل ما عداه أموراً شكلية، لا تستدعي أي اهتمام مِنْ شأنه أنْ يشغله عن موضوع تفكيره، لحظة بلحظة.

ولربما هذا قد يتفق مع النظريات التي قالت إن معظم الناس فلاسفة، فيما لو امتلكوا صبر الفيلسوف وجلادته، وكل الناس شعراء، فيما لو استغرقوا في التأمل العميق بانفعالاتهم النفسية حيال المحسوسات. ولأن في الاستثناءات المتمثِّلة بأسماء كـ غوته ونيتشه وغيرهما ما يكذّب هذه القاعدة، فمن الأخطاء الفادحة الموافقة على تنظيرات المعرفة الطبقية، ومساواة الأفراد، كما لو أن كلاً منا «غوته» بالقوة.

سارتر فنان فلسفي

لكـي يكتـب سـارتر سـيرته الذاتيـة بهـذا الأسـلوب التفكيكـي المُمتـع، لا بـدّ مـن أن يكـون قـد خـرج مـن ذاتـه المنفعلـة كانـت بتمثيليـة طفولتـه ـ

شبابه تلك التي أعاد مسرحتها بفعل إخراجي ـ مشهدي، قل ما تشاهده عين فنان عادي.

أدوية الوعود

إذا لم يكن من حيلة أمام الشعوب المقهورة سوى التعايش مع ما يُمارَس عليها من ظلم واستبداد، لا بدّ من أن تسعى هي بنفسها إلى تخدير أوجاعها، عبر ملاذات سيكولوجية، تضاهي مفاعيلها فعل الضغط اليومي عليها. وفي هذا السياق، عليك ألا تعجب من كثرة النبوءات النابعة من أفئدة الشعوب المقهورة، كتلك القائلة مثلاً، بأن ريحاً من الشمال ستأتي لتقتلع جيوش الأعداء من الجذور، أو أن أحداً سيظهر بسحر ساحر ليطيح بجبروت قوة الأعداء و...، و...، إلخ.

حتى إن الكثير من الروايات تُستَنْبَش، إما بتأويل رمزي لما تنطوي عليه الاستمارات التاريخية، وإما بالاستدلال الباطني، من ظاهر الأقاويل القديمة، تُستنبش كتوقعات جازمة، وإن تأجلت يوماً بعد يوم، فالتأجيل هو من سر تلطيفها لأيامنا التي لا تُطاق، وآخر ما وقع عليه نظري هو أن القرآن ينبىء بدمار الولايات المتحدة وغرق الجيش الأميركي.

أما زلت بحاجة إلى معرفة الأسباب الوجيهة؟

استقراء فوتوغرافي

إذا تَأَمّلت في صورة «شوينهاور» الفوتوغرافية ملياً، ستجد صلة مضمرة في العلاقة الواضحة بين ملمح بصره الحاد، وموقف بصيرته الثاقبة. كما يمكن أن تستدل من إيحاءات وجهه على فرادة فلسفته وتميزها المنبثّة في الميزات الفريدة لتقاسيم وجهٍ عتيقٍ قاسٍ وغير دبلوماسي، يروم إلى ازدراء المكاسب السياسية، وشهرة أنصاف الفنانين، وقد يأخذك هندامه إلى أن تَشْتَمّ رائحة فلسفته التي تشبه روحه المهمومة «بالمابعد»...!

فضولية مبرّرة

حينما تقرأ بعمق ورويّة لأيٍّ من الفلاسفة المبدعين في التاريخ، أمثال سقراط وأفلاطون أو أرسطو، ممن أثاروا بإبداعهم فضوليتك لمعرفة أسلوب حياتهم الخاصة، كيف كانوا ينامون ويأكلون؟ ما كان موقفهم من هذه القضية أو تلك، فيما لو كانوا أحياء؟ أو... أو... إلخ، ستغوص في بحر المتخيل وفضاء البِدَعْ، لكي تتمثل فلسفتهم بالامتثال لسلوكهم، فترتسم عندها صورة كل منهم من خلال وعيك أنت، فهمك أنت، تخيلك أو توقعك أنت، لما ينجم عن أفلاطون المثالي من عفّة أخلاقية إزاء المرأة، ولما يمكن أن تخطه أقلام مخيلتك من براءة في ملامح صورته السديمية.

الحشرية بداية المعرفة

الفضوليون هم أكثر المستفيدين مما لا شأن لهم به، وأكثرهم تدخلاً بما لا يعنيهم كي يتجنبوا أخطاء التورط بما تورط به الآخرون، وهذا ما قد تدفع ثمنه أيها الفضولي، بادىء ذي بدء، اتهاماً بحشرية ستجعل منك هي نفسها، مرجعاً عارفاً بحل المشاكل الخاصة للآخرين.

للعتق هالة

تُحاط الكتابات القديمة بهالة عتق المعالم الأثرية المتأتية عظمتها من إصرارها على البقاء حية رغم أنف الزمن، لكن بين حركية المكتوب التاريخي، وجمود المعلم الأثري، فرقٌ، هو الذي يميّز فائدتنا من العقل الأرسطي عن إجلالنا لمقدسات الدين.

التجوهر في التخفّي

تتضاعـف قيمـة الاسـتمارات التاريخيـة عنـد المعاصريـن، مـا لـم يقتـرن عرفانهـم بهـا، بصـورة صاحبهـا أو اسـمه، ففـي النـزوع إلـى شـخصنة المكتـوب فـي إنسـان ناقـص البصـر والبصيـرة، ينعـدم الاكتمـال

الميتافيزيقـي الـذي يمـد الاسـتمارة برهبـة انوجادهـا، مـن «صفـاء الفـوق»، لا مـن «وحـل التحـت».

انطلاقاً من هذا، كلما غاب الشخص عن إنتاجه، أمدّه بزخم ميتافيزيقي، ليتخذ طابعاً فوق عادي، وكلما قنّن الفنان ظهوره، تجوهر إنتاجه، كما لو أنه من صنع إلهي لا إنساني، هكذا صارت فيروز بصوتها الجميل، عفواً بغيابها، ملاك المستمتعين.

فلسفة القبح

ليس من إنسان قبيح بالمطلق، ولا الجمال أخّاذ بذات الشيء الذي يفتنني «أنا» لا «أنت»، «هو» لا «هم»، وبما أن فلسفة الجمال قد قالت رأيها في الجميل بذاته والجميل لذاته، انطلاقاً من مبدأ الاعتراف بعلة التغير في أذواق البشر ومعاييرهم الآيلة إلى التبدل بتبدّل وعيها ـ تجربتها ـ دهشتها بالشيء المحسوس، بقي لفلسفة القبح حيّز هام، للتطرق إلى ما أهملت قوله فلسفة الجمال.

على هذا، فالشخص يغدو قبيحاً باستلابه إلى صورة مرآته التي تغمره بالحزن والشؤم من مظهره غير البشع، فيما لو لم تغرب عن نفسه الفرحة والمرحة والواثقة مما هو فيه ـ عليه ـ به.

أسباب الإيمان أقوى من حجة الإلحاد!

ساذجٌ من يعتبر أن الإيمان العقائدي، أياً كان نوعه ولونه، قد يواجه اهتزازاً تشكيكياً من جراء الأفكار النقدية المعارضة له. لا بالعكس، فالنقد قد يعزز فهمه، عبر زعزعة إيمان العامة بقشور فكرها العقائدي المطقسن (من طقوس)، لاعتبارات، تدخل في صميم حاجاتها المادية إلى اطمئنان نفسي ودفء معنوي في حقيقة مطلقة.

ومهما قال القائلون عن إلحاد هذا، وارتداد ذاك، ومهما قيل عن الخطر المتأتي من بعض المثقفين الجاحدين في تطاولهم على مقدسات أهلهم، يبقى المعتقد، إلى حدٍّ ما، بمنأى عن التأثر باستنتاجاتهم النخبوية، وذلك نتيجة عدم التكافؤ بين ضعف الحجة النظرية للنقد، حتى وإن أصاب، وقوة التعلّق الوظائفي، نظراً إلى حاجة الجماعة إلى الارتباط بالمتجذر التقليدوي في المعيوش الجماعي، حتى ولو كان مخطئاً.

فكم من الشيوعيين المتحمسين ضد الليبرالية قرأ الماركسية؟ وكم من المؤمنين التقليديين تعمق بأصول الأحكام الفقهية، عند حكمه على من هو مرتد وخارج عن الملّة؟

فالمسألة إذاً، لا تمت إلى منطق المحاججة بصلة، حينما يغدو الحكم على الآخر من ضمن الطقس العقائدي لحماية دفء الجماعة من صقيع الأفراد.

قد لا يكون الحيوان مُسخَّراً لنا!

من هو القادر على الجزم بأن الكائنات كلها سُخِّرت بشحمها ولحمها من أجل راحة الإنسان ورفاهه، سوى العلي القدير...؟!! ما عدا ذلك، لا تصدِّق الاختبارات العلمية تلك التي رجّحت الفرضية القائلة: إن كان للحيوان أحاسيس ومشاعر فانفعالاتها ليست من النوع الذي يستدعي حرصك ـ احترامك شفقتك أو مراعاتك لها.

لهذا ربما، دعت البوذية مؤمنيها إلى الالتزام بتعاليم إلههم الذي خصّ فيها حتى الحشرات برحمة متساوية مع رحمته للإنسان.

صخب ريفي

الحياة في الريف ليست كما يحسبها الزائر الغريب عن دياره العامرة بتقاليد صاخبة، صخب ضجيج «عجقة» المدن تلك التي يتمتع قاطنوها بهدوء «فردانية» ناقصة عما يتلهف إليه ابن المدينة، من نسيم الضيعة وسكونها أو نأيها الذي يفتقد هو أيضاً بدوره إلى مدنية العيش المستقل عن شؤون وشجون الجماعة (شر هذا من خير ذاك، وخير ذاك في شر هذا). وإلا لكان متوسط عمر القاطن في الريف، أضعاف عمر الساكن في المدينة.

لا تغتبط بنجاحك كيلا تفشل

لا ترتقي حجّة الخائبين إلى مستوى الإقناع بالمنطق إياه الذي يحتكم إليه الناجحون المعفيون بنجاحهم من اللجوء إلى تبريرات عدم النجاح. لهذا، يبذل الخائب جل ما عنده في التحليل والتنقيب عن العناصر الخفيّة لعلّة إخفاقه، فينجح... ويحتفي الناجح بغبطة النتيجة مما تحصّل عنده، فيفشل...

محاسن الطلاق أحياناً

ليس جديداً القول، إن الطلاق هو أحسن الخيارات المُتاحة أمام أي زوجين فقدا الرغبة في مشاركة أحدهما الآخر في السراء والضراء؛ ولا هو استنتاج سيكولوجي فذّ، اعتبار أن تأجيل البتّ في الأمور العالقة بين الزوجين، هو بمثابة تجذير لمشكلة مُنتَظَرة في شخصية الأطفال عند الكبر.

لكن ما لم يُفهمنا إياه دخلاء المصالحات الزوجية، هو منطق إقناعهم الزوجين المتحاربين، بضرورة الوئام لا لأجلهما، إنما لفائدة قد تعود على أطفالهما المحتاجين إلى حنان أبوّة، لا تتوافر، ما لم يتأمّن تفانٍ محطّم، لحظة بلحظة، على صخرة أنوات الأبوين المتخاصمين دوماً.

كنْه النفوس

براعة المرء ليست في الإفصاح عما يفكر به علانيةً، إنما بالتطرق إلى فهم المضمر عنده، هذا الذي يحياه من دون أن يدركه.

التحول من شباب الجسد إلى شباب النفس

تفضي عملية استنفاد اللذّة الجسدية، مابعد العقد الرابع إلى تجاعيد في الوجه، وترهل في البشرة، ووهن في البدن، ومردّ كل هذا ليس نقصاناً بل كفاية فيزيولوجية، تبدّل فيها حماس الجسد وحيويته إلى توقد في شباب النفس، هكذا هي جدلية العلاقة بين النفس والجسد، كلما اشتعل البدن، خفتت النفس هذه التي من شأن توقدها أن تخمد سعير الجسد الآيل إلى الانطفاء مع كل تقدم عمري، يحنّ دوماً إلى طفولة ـ مراهقة صار المرء متخطياً لملذاتها بالضرورة.

فلا تشمئز إذاً، من نظرات كبار السنّ المتلهفة إلى تذوّق لقمة من مآكل الصغار، بين الحين والآخر.

استجداء المديح

ثمة شبه إجماع بين كبار الفلاسفة على أن الذي يستجدي مديحاً

من الغير على ما يقوله هو، يدلّل على أن في عمله وضاعة حيال العقول الحرّة، لا العقول الوضيعة تلك التي تنفرج أساريرها فرحاً وتهليلاً، لمجرد التقاطها ما تحسبه مميزاً، بينما هو في الحقيقة أقرب ما يكون إلى الترداد الكلامي الذي يقلّد فيه زيّ العباقرة ببراعة تكراره لشيء من كلامهم غير المعروف عند السذج، وهذا يعني، أنه يبغي افتتان البسطاء من أجل شهرة مكسبية، ولا يبغي احترام الأذكياء العارفين، حتى ولو استدعى ذلك سرقة موصوفة.

حدس الفيلسوف وصبره

تجد البعض ممن يمتلك حدساً فلسفياً دقيقاً أو ذوقاً فنياً رائعاً، لايمتلك جلادة الفيلسوف ولا صبر الفنان، بينما الكثير ممن لا يمتلك تلك المؤهلات ـ المواصفات قد صار بصبره وإصراره متفلسفاً علينا، وملحناً لأغانيهم.

معيار ذكوري

لست ممن يتهم النساء بالثرثرة، إذا ما أكثرت هي الكلام من دون داعٍ، ولا الرجال بالاحتشام أو الإحجام، إذا ما قنّن هو كلامه، واختصره إلى أقلّ مما يستوجبه النقاش.

ذلــك أن المبالغــة فــي الإكثــار مــن الــكلام عندهــا، يقابلــه مغــالاة

في الاقتضاب عنده، بينما المسألة معكوسة فيما لو استنفدت المرأة ثرثرتها اليومية، قُبَيْل عودة زوجها من مشاغله التي لاذ بعدها إلى صمت الشابعين من الثرثرة.

تفريغ الغضب علاج فعال

إن نصائح الأطباء النفسانيين بضرورة تدرّب أصحاب الأحاسيس المفرطة في إنسانيتها على مواجهة الصعاب النفسية، عبر الارتقاء أو العلو إلى ما فوق الصدمات الموجعة، لهو سبيل ناجع للبعض، لأن البعض الآخر يعالج نفسه بنفسه من خلال تفريغ شحنات غضبه على مسبباتها ـ مسببيها، من دون مراعاة لحساسية الآخرين، ولا لألمهم الناجم عمّا يشتكي منه الغاضبون دوماً.

عبقرية نيتشه من إنسانيته

أصحيحٌ أن نيتشه قد صيّر نفسه مترفعاً عن رأي «الغير» به، أو عما يقوله الآخرون عنه؟

لربما نستطيع أن نستخلص من فلسفته، ما قد يقنعك بذلك، لاسيما وأن في كلامه، ما يدلّ على حاله المتعبة مما كان يعتقد بصوابه الناس، ولم يصدقه هو، فما كان منه إلّا أن هَدَم بمعول عقله الحرّ،

معتقداتهـم الهشّـة والمزيّفـة تلـك غيـر المؤهلـة لتقويمـه، وذلـك لعـدم كفاءتهـا فـي سـبر غـور مـا تعمّـق فيـه.

لكن السؤال هو: إذا ما كان انوجاد المرء، أياً كان وعيه، لا يتمّ إلا إزاء شيء محدّد، ينفعل برضاه، ويتحسّر على فقدانه، ما الذي كان يتشوق إليه نيتشه؟ وإلى أي صوت كان يسترق سمعه؟ لنجد في دعوته إلى الاتساق بالإنسان الأعلى النقي الخالص من علائق «الإنسان الأسفل»، إجلالاً إلى ما تعلمه من إنسانه هذا المضمر عند كل عباقرة التاريخ.

ورغم ذلك، نجد عنده ثمة عقدة نفسية، لا من المرأة الجميلة فحسب، بل من صديقه ڤاغنر الذي أخرج (إنسانه الأعلى) عن طوره الصوفي العالي، ودنسه بوحل الغيرة الإنسانية.

السخرية حاجة للفلاسفة

لكي ترتاح، عليك ألّا تتفهم دوماً إساءة الآخرين لك، من دون وجه حقّ، لأنه إذا ما احتقنت شرايينك غيظاً من فظاظة الأغبياء، ولم تردّ الصاع صاعين، سيجد غضبك متنفساً له في أعصابك أنت.

ولا تخف من تصنيفات القاموس النيتشوي، ولا من ضمّه ـ شمله ـ حشره لك في خانة القطعان، إذا ما كان للقطعان فضلٌ في درء المخاطر النفسية عنك، على غرار ما أجاز لنفسه نعت جموع الناس بالقطعان.

ألم يجد هو متنفساً له في ذلك؟

للقمّة حساباتها

خلصت حكمة الساسة، كما رجال الأعمال والتجار إلى التحذير من ضرر العواطف، إن أُقحِمَت هي في مجريات أعمالهم الهادفة إلى كسب رأسمال ـ مادي ـ بشري، على حدٍّ سواء.

فلم ينصح الناجحون منهم بتقنين مشاعر الغيرية حيال الآخرين فحسب، بل دعوا إلى إنكارها جملة وتفصيلاً، إذا ما أراد أيٌّ منّا الوصول إلى القمّة.

على هذا، غدت قممنا مكسوَّة بجليد الإرادات «الغائوية»، على أن يبقى يتدفأ مَنْ يحيا في قعر الوادي بنار عواطفه ـ عواطفهم الجياشة.

التلهف إلى المستقبل كالحسرة على الماضي

إذا تأملت في الكيفية التي ستصير عليه حال البشر في الألفية الرابعة... ستصاب حتماً بالإحباط، ما لم تؤمن بقدر موتهم ـ نسيانهم هم أيضاً، إزاء من سيعقبهم في الألفية الخامسة... وإذا أردت التخفيف عن نفسك أكثر، ثِق أن فيما تعيشه اليوم، فرادة مرحلة لا يحياها الآتون مِنْ بعدك، تماماً مثلما تتلهف، تتحسّر أنت، لتذوق فرادة من عاش قبلك.

داروين على حقّ؟!!

معظم فلاسفة القرنين السابقين، انتهوا إلى ما يشبه الإقرار بضعف النوع الإنساني وعجزه عن طرد الهواجس الوجودية تلك الموجودة في فكره، أو بالأحرى، المهيمنة على حاله القلقة من نقصانها، إزاء امتلاء النوع الملائكي بحقيقة سرمدية غرّرت بنا للاكتمال على شاكلتهم، لاسيما وأن في الكائنات، ثمة من هو أضعف منا، فحسبنا أنفسنا مكتملين من دون أن نعترف بأن اكتمالنا هو صحيح إزاء النوع الحيواني، فإذاً، هو نسبي ولم يخرج عن نطاق الانتماء إلى ما يشكّل أعلى درجة عند الكائنات الناقصة.

«داروين» هو فقط ليس منهم.

11 أيلول 2001 عليك أن تموت غيظاً وأنت تبتسم

«11 أيلول»، سيمتد تاريخه إلى مابعد نهاية التاريخ الذي احتفى بانغلاقه (فرنسيس فوكوياما) على «انتصاروية» أميركية، بُعَيد انهيار البرج السياسي (الاتحاد السوفياتي) الأعلى بكثير من برجي مركز التجارة العالمي.

ليتدشن عقب هذين الانهيارين افتتاح التاريخ ومن جديد على ما يصيِّر أميركا إمبراطورية متفردة في قمع الجيوب الخارجة عن إرادتها،

بالهيمنة على الأمم التي كانت الظروف السياسية تسمح لها فيما مضى، أن تشتكي بالصراخ والندب على فقر حالها، فصار ممنوع عليها حتى أن تقطب حاجبيها غضباً ـ حزناً، لئلا تَخْدش الأحاسيس المرهفة للغزاة الجُدد، الأكثر وحشية في مطلبهم هذا، أن تموت غيظاً وأنت تبتسم.

فأي إنسانية هذه التي يرعاها رعاة البقر الأميركيون؟

ذوق النساء أجمل

في الأمم التي مرّ على حكمها نسوة، ومعهن الإمبراطورة «كاترين» بالتأكيد، لا بدّ من أن يكون قد تطعم تاريخها، بدمغة من شفاههن الناعمة على أخاديد ذكورية مليئة بنتوءات الذوق الخشن والقوانين الفجّة.

على هذا، إذا ما أدهشك الذوق الرفيع في بناء الأهرامات المصرية، فابحث عن الملمس النسوي عليها في خفايا مطبخ الزواج الفرعوني، وإذا أُعجبت بفنّ تصميم القلاع اليونانية أو الرومانية، تيقن من أن فيها حساً أنثوياً، ليس متوافراً في بناء المآذن، ولا في ناطحات السحاب لنيويورك.

الخسارة الأكبر تفريط بالثقة

يلوذ البعض إلى تبرير إحجامهم عن الوفاء بالوعود التي قطعوها على أنفسهم أمام «الغير»، إما لضيق الوقت، وإما بحجة انسداد السبل أمام الذي كان ينوي فعله فعلاً، لكن الظروف شاءت أن تعرقل... إلّا أن تكرار الذرائع تلك التي غدت لكثرتها بمثابة الخبز اليومي لصاحبها، تُفْقد المصداقية، فتنعدم الثقة التي تستوجب لاستعادتها معرفة إمكاناتي وظروفي، كي ألبّي لهم ما أرغب أن يلبيه الآخرون لي.

ولو كان في الأمر بعض الجهد، عليك أن تحرص على ما لا يجعلك شخصاً كاذباً لا يُطاق، ولا تُعزِّي نفسك بنية متوافرة للقيام بما لم تفعله.

بصيرة فيلسوف

حينما تفتّقت عبقرية هيراقليطس عمّا خلص إليه اكتشافه الفلسفي الشهير، «من أن كل شيء في حراك وتغير جدلي، كالماء من الماء الجاري يتحوّل فهمنا بتبدّل موضوعه الصائر ـ السائر إلى حيث لا ثبات أبداً».

ولحظة خَطَرَ على باله، قياس ما يذهب إليه تدفق الماء في النهر الجاري من تحوّلات ـ وتبدلات، على ما يؤول إليه انقضاء زمن الإنسان من متغيرات، دعته إلى القول: «نحن لا ننزل إلى ماء النهر مرتين».

كان بالتأكيد يجلس على حافة نهر لا ليغتسل، بل وحيداً بالضرورة في استغراقه ـ تأمله الوجودي بالذي لا يهتمّ به المسرورون ببرودة مائه العذب.

السفسطائية تجاوز للعصر

أكثر الإغريق تحرراً من كوابح الثبات الماهوي، كان هيراقليطس ومن ثم السفسطائيون الذين ذهبوا بجدلهم إلى ما توصل إليه فلاسفة مابعد الحداثة، من أن البحث عن الحقيقة الثابتة والجوهر الماهوي والمثال المطلق، خواء بخواء. ورغم ذلك، ما زالت السفسطائية تهمة تطلق على كل جدل عقيم، فلم يُرفع الظلم عنها، وإن بتقدير بسيط لحصرية حقّها في اكتشاف ما اكتشفناه بعد قرون من زمن انقضائهم.

لربما كان علّة ذلك، هو الوفاء لتضحية سقراط بنفسه من أجل إحقاق غيرية أخلاقية نحتاجها اليوم، بما يمنعنا من إعادة الاعتبار إلى فلسفة أعدائه السفسطائيين، هذه التي فيها وجه حق، تهمَّش بحسب رأي البعض، نتيجة قولها باللاحقيقة، قبيل أن يستنفد عقلنا قدرته على اكتشاف الحقيقة، والحجّة، أن في عصرهم كان التنوير يستدعي الانحياز إلى الثبات السقراطي، لا التغير والتبدّل السفسطائي، والبعض الآخر اعتبر أن عبثيتهم أتت مما قبل التجربة... أما سارتر وألبير كامو فقد جاءا بعدها...

أهذا يعطينا الحق بشتيمتهم، تقديراً لسفسطائيتنا الأكيدة!!؟

لهذا... شكسبير عبقري

قال «بروست» في البحث عن الزمن المفقود: «توقفت عن مساءلة نفسي عما ينبغي لي أن أفعل لأستطيع أن أفعل شيئاً». وكان قد سبقه شكسبير، حينما أخرج هاملت من حيرة تفكّره بالمردود المحتمل والمترتب على هذا الموقف أو ذاك، بأن حسم أمر تردّده عن الإقدام، من أجل اتخاذ موقف، أو بالأحرى، للقيام بفعل ضروري لكي يكون.

وهنا تكمن عظمة شكسبير، أي في توغله في مساحة لم تطأها قدم غيره من قبل، فتهافت بعده الكثيرون عليها، ممن صيّر هاملت كشافاً لما تختزنه النفس الإنسانية من حيرة، من شأنها إشعال جذوة الصراع المُقلق في الذات. فكما عشق ماركس شكسبير، فألهما دريدا عشقاً أكبر، عندما أدخل هذا الأخير شبح هاملت على بيان ماركس، ليتشيأ مسرحه بياناً للحياة السياسية، وتماهى شبح البيان، شبحاً لشكسبير المبدع بهاملت مسرحاً للبيان الشيوعي.

أيضاً عشقه بروست كثيراً.

اللائقة في الإغواء

الأشخاص الذين يستهوون لعبة الإغواء، فيستلذون بانتهاك مشاعر العاشق، من خلال سرقة نظرة إعجاب من المعشوق، هؤلاء

ينقصهم الإحساس بالغيرية، كما يفتقدون إلى ما به يغدو المرء واثقاً بنفسه، حيث لا يحتاج المرء عندها إلى استجداء ما يؤكّد تميزه أمام كل نساء العالم.

الفلسفة ضد التصنيف

عملت التصنيفات الكلاسيكية في الفلسفة على وضع أرسطو في موقع العلّامة الروحي للواقعية، إزاء نقيضه المتمثل بأفلاطون المثالي، بطريقة جازمة؛ ورامت إلى مخاطبة العقول القادرة فقط على تمييز الأبيض من الأسود، والصحيح من الخاطىء، والمثالي من الواقعي إلخ...، بينما من شيم العقول الفلسفية النظر إلى ما في الأبيض من اسوداد، وإلى ما في الخطأ من صواب، وإلى ما في المثالية من واقعية، وأيضاً إلى ما في التصنيف من تمييع.

أهذا يستوجب وقف تنفيذ الأحكام على مثالية ذاك، وماركسية، عفواً مادية هذا، مثلاً؟

وصفة فقير

الإكثار من تناول المأكولات النادرة والغالية الثمن خلال وجبة واحدة، قد يخفّف من رغبتك بها فيجعلك تكتفي بالتقيؤ والغثيان من طعمها ربما.

إنه علاج فعّال لتقنين شهية الفقراء، الذين لا يستطيعون شراء ما ينعم برغده الأغنياء.

بلادة عقل معلمي المدارس

لم أدرك الأسباب الوجيهة لتفوق بعض زملاء الدراسة ممن هم بليدو الذهن... عليّ أنا، إلى أن قطعت شوطاً لا بأس به في معاشرة واقع حال معظم المدرّسين، فوجدت نوعهم من صنف هؤلاء التلامذة الصالحين، بكونهم مادة طيِّعة لتلقينات مباشرة، أجهزت على من يعصى فروضه المدرسية وواجباته حيال متوجبات استفراغه للمحشو في عقله. ولأنني كنت ممن يتحسّس من الحشويات تلك، أذكر بأن إجاباتي على أسئلة المسابقات المطروحة، كانت متهوّرة في بحثها عمّا ليس مطلوباً، عمّا لا يتطابق ومعايير النجاح المدرسي؛ وغالباً ما كنت أصاب بالخيبة بعد النتيجة، لظنّي، بأن التعمّق في الإجابة سيثمن بتنويه، لم أحسب أنه محدود بحدود وعي المدرّسين هؤلاء.

الفيلسوف الناجح سياسي أنجح

إن إخفاق بعض جهابذة الفكر السياسي في التقاط علّة الوعي المغلوط في مجتمع ما، يعود إلى غياب الحسّ الشمولي في قراءتهم الأيديولوجية تلك الشاملة لما لا يحيقه جانب مختص بمسألة محدّدة؛

ولأن الفلسفة تختصّ بالذي يختلف عليه المتخصصون العارفون بشيء محدد، لا يتعدّى نطاق عملهم، بقيت لها المهمة الأصعب، لأنها غير محدّدة في مجال، ولا محدودة في إطار. وإذا ما كانت أم العلوم ومنبعها، قبل أن تتفرع هذه الأخيرة، قد صارت بعده مصبها حيث تحوّلت إلى حيّز لجمع غلّة العلوم والتنسيق فيما بينها، وذلك من أجل الخروج بمحصلة عامة حول ما يجب فعله من أجل غدٍ أفضل في السياسة وفي غيرها. ألهذا، نجد ربما أحسن المفكرين السياسيين تلامذة فلسفة؟

الأيديولوجيا شرّ لا بدّ منه

إنّ علاقة السياسة بالمجالات كافة الاقتصادية والاجتماعية والفنية والثقافية، ليست تأثرية بالمعنى الماركسي، فحسب، بل ترتبط فيما بينها بروابط عضوية، تجمّدت حركيتها الجدلية في الأيديولوجيات التي آثرت احتلال هوامش الديموقراطية، بالإطباق على ما يشيد صرح فهمها للثقافة، كي يعتلي مفهومها للوئام الاجتماعي سدّة تخمينها للنمو الاقتصادي.

ولأن صيرورة المجتمعات أقوى من إرادة الجماعات الحاكمة لها، ففنّ السياسة هو من مراقبة واقع الحال، بغية إدخال جرعات تغييرية، لا تروم إلى استئصال العلّة، كي لا يموت المريض.

ولأن الأيديولوجيا في المجتمع هي كالقلب من الإنسان، فاستئصال قلب المعتلّ ليس علاجاً، إنما هو نحرٌ له، ليس إلّا.

سياسة عشائرية

في المجتمعات المتأخرة يمتزج كثيراً الخيار السياسي للفرد، «عفواً» للجماعات المتكتلة في قبائل ومذاهب أو عائلات، بالهوى الاجتماعي الأقوى رسوخاً وتجذراً في أقبية العقول المنحلّة لصالح قيم معنوية أعلوها على مصالحهم المادية المنتهكة بفنّ تظهير السياسيين لها، سبباً لوجودهم المادي، لا نتيجة له.

فالساسة عندنا متمرّسون في استقبال أعيان القبائل والعائلات بحفاوة، قل ما تستوي مع حفاوة استقبال المفكرين الغرباء عن اللعبة هذه، لعبة زعماء الدولة وزعماء العشائر.

السياسة فن التعامل مع السائد

ما لم يلامس الحزب السياسي حاجات الجماهير ووعيها إلى ما به تحيا عقيدتها، سيؤول مصيره إلى ما آل إليه إخفاق الشيوعيين في روسيا الأرثوذكسية، ودعاة المجتمع المدني بين التجمعات الأهلية.

كيف تذوّب السياسة أشخاصها؟؟

عندما يتأكد الساسة من دنو ساعة غيرهم من السياسيين الأفاضل، وحينما يتيقنون من أن زميلهم المزعوم لن يُشفى من مرضه، ولن يستعيد عافيته أبداً لمقاضاتهم في السياسة على إهمالهم لشخصه وامتناعهم عن مواساته بالاطمئنان على صحته، حتى إذا ما جزموا بأن لا فائدة مرجوة لما بعد زيارته، ولا مكسب سياسي ـ انتخابي في مابعد موته، سيعاملونه كما لو أنه ميّت قبل أن يموت، عندها تطفو حقيقة الأسارير المدفونة كانت على وجه العلاقة الدبلوماسية الكاذبة كتلك التي كانت تتمظهر كما لو أنها صداقات إنسانية، لا تحالفات «مصلحجية» من على الشاشات وفي الصحف، في كل ما من شأنه إظهار ما يراد لنا فهمه أو تصديقه.

فإذا كانوا مع بعضهم كذلك، فكيف هم من الناس البسطاء العاديين؟

عبقريٌّ مهمل

فات نيتشه أن يختتم تقويضاته الرائعة، بأروع عبارة قالها مواطنه «ياكوب لنتس»: «إن العالم ملتو كالقلاووظ، غير أن الناس يتطلعون إلى الأمام باستقامة»، وهذا وحده يكفي برأينا، لكي نتساءل عن علّة تحامل نيتشه على العقل الألماني؟!!

تصويب خبر

أكثر الأبحاث غرابة، تلك التي خلص إليها باحثون أميركيون من «أن للتعليم أثراً مهماً في التمتّع بصحة جيدة، إذ كلما ارتفع مستوى التعليم أصبح المرضى أكثر مقدرة على تناول الأدوية بالجرعة والطريقة الصحيحتين»، وخطأ هذا الخبر المنقول عبر وكالة «رويترز»، من أنه قد يثير حفيظة كل المتعلمين الذين أصيبوا بعلّة نفسية، وداء عصبي من جراء حساسيتهم المفرطة وعلمهم بالذي لم يبتلِ بمعرفته البسطاء المرتاحون ـ الراضون ـ القانعون بما قدّر لهم العيش فيه.

وفي اعتقادنا، إن التعلّم يدفع بالمتعلم إلى تناول أدوية وجرعات، لا تقاس فوائد تناولها بطريقة صحيحة، مع عدم الحاجة إلى تناولها.

اللهمَّ إلّا إذا كان البحاثة هؤلاء يقصدون الأمراض العضوية ويستثنون الأمراض النفسية، وهذا ما لم يحمله الخبر، فوجب التصويب.

تسوية الحضارة الغربية

انتقت النهضة الأوروبية من جذرها الديني (تراثها المسيحي) ما يسمح بتوليف معتقد مدني، فيه من التسامح المسيحي إزاء أصحاب العقول الدينية المتزمتة، القدر الذي يتيح مقاضاتهم في حال اعتدوا

على أصحاب النزعة «العلمانوية»، وفي الوسط يحيا معظم الأوروبيين من خبز المصالحات «التسووية»، بين المغالاة الدينية والمبالغات العلمانية.

صرخة تحذير من موت الثقافة

حمّية الخائفين على عالم الكتاب من الاندثار، هي هواجس مشروعة، أمام هذا التآكل الثقافي المتزايد لصالح ثقافة هشّة، كتلك التي تصنعها الشركات الإعلامية والإعلانية في التلفزيون والإنترنت، وغيرها من الوسائل التي تعيد إحياء الإنسان وبرمجته بآلتها بعد موته السريري، أو بالأحرى، بعد أن افتضح «ميشال فوكو» موت عصره المليء كان باشتياقاته إلى تحررٍ، أتاح له إدراك مستوى استلابه وشوقه إلى اكتمالٍ، سمح له بمعرفة نقصانه الأكيد.

ومثلما انتهت مرحلة وتدشّنت أخرى، ومن دون مفاضلة بين ما كان يحث الإنسان للبحث عما يريحه من قلق وجودي، فكان الكتاب، وما صار عليه بحثه بحثاً عما يُنسيه موته المقدّر بالتلهي، فكان التلفزيون والإنترنت. فموت الكتاب هو من انعدام السبل، بعد انتفاء الأسباب، أو بالأحرى بعد موت صانعيه الأوائل.

ضد الفيلسوف السياسي

السياسي الناجح هو من أنعم اللَّه عليه بجلد تمساح، كي يحمي نفسه من الخدوش ويقيها من الجروح السيكولوجية، كتلك التي يتعرّض لها أيّ منهم خلال حملاته الحربية ضد منافسين لا يتوانون عن قدحه وذمه بألفاظ قاسية، ستصيب حتماً بالإحباط والاكتئاب أصحاب الأحاسيس المرهفة كالشعراء والرسامين، أو الفلاسفة والفنانين.

وهذا ما لم ينتبه إليه أفلاطون في دعوته إلى رياسة جمهوريته من فلاسفة، فغدت مثالاً يستحيل تحقيقه، حتى في الجانب الممكن منها.

ذاكرة الانفعالات

تخيّلوا معي إنساناً من دون ذاكرة في الأصل، ولا أعني هنا فاقداً لذكرياته بفعل حادث طارىء على ما يجعلها خزنة فارغة، مما كان قد حصل.

حتماً ستجدون أنفسكم أمام كائن أشدّ غرابة مما هو متوقع، أمام كائن خالٍ من الانفعالات التي تنعقد بها الألفة بين الكلب وصاحبه، وبين النمر ومروِّضه...، بين العاشق ومعشوقه...

فالحزن والفرح والضحك والكرب، هي انفعالات نابعة من بطن الحنين إلى ما يصيِّر ذكرياتنا نافذة ومتنفذة على المذكور الراهن، في

مزحة، ينفعل بها هذا أكثر من ذاك؛ حتى إن وعينا قد يستجيب إلى حلّ لغز عصي على عقول آخرين، وهذا يعود إلى محتوى الذاكرة تلك التي أعلى من شأنها فلاسفة العرب ومن قبلهم الإغريق، حينما وضعوها في مصاف الرافد المغذي للمتخيلة التي أمدت تخيلنا بهذا التفسير دون غيره .

شباب الفلسفة الدائم

بعد أن فُرِّغت الفلسفة من حشويات الكلام الإغريقي، كَثُر الحديث عن موتها على عتبة عصر الأنطولوجيا الغربية، حتى وصل الاعتقاد بالبعض إلى حدّ تقويض الأسباب التي كانت قد جعلت من الفلسفة أم العلوم؛ باعتبار أن العلوم نمت بإنجازاتها واستقلت في تفرعها، تاركةً الأم العجوز هائمة في البحث عما يواسيها في وحدتها.

لهذا، يشفق العلمانيون على عناد المتفلسفين الجدد، وإصرارهم على إحيائها بتجديد حلتها تلك التي وإن أخفت تجاعيد بشرتها، إلا أنها لن تستر روحها الهرمة، ونظراتها المنهكة من تعب سنينها الطويلة.

وإن كان في هذا التوصيف وجه حقّ، إلّا أن الوجه الأحقّ، هو أن التجربة التي صيّرت الفلسفة مسنّة، زوّدتها بحكمة عجوز، أدركت ما في «المحبة» (محبة الحكمة) من حماس شبابي.

عمى جنون العظمة

حينما تقف أمام مَعْلَم تاريخي قديم، كالأهرامات مثلاً، أو القلاع والحصون الأثرية، تشعر بضعف الإنسان، لا بعظمته، وإلّا ما بقي الحجر حياً ينطق بلسان حال ما كانوه، وهم أموات.

لهذا، ربما أفضل علاج للمصابين بجنون العظمة، سوقهم لينظروا بأم العين إلى شموخ الأعمدة في قلعة بعلبك، وليقفوا لحظة أمام هرم خوفو، علّهم يعتبرون...، فيشفون!!

كيف تجيب الطبيعة
عن أسئلة العقول الحائرة والبطون الجائعة

الخروج إلى الطبيعة ليس كالدخول فيها، إنه الفرق بين تأمل الرومانسيين المتعبين من ضجيج مدنهم، من جهة، وعمل الفلاحين المجبولين بعرق ترابها، من جهة ثانية. ومع ذلك، تبقى هي الملاذ الوحيد للإجابة عن أسئلة العقول الحائرة والبطون الجائعة على حدٍّ سواء.

السبب الأكثر وجاهة لانفصال الأزواج

تتحوّل علاقة مَن يفهم ويعتاد على المكنونات الباطنية لشريكه إلى كرب وغمّ، وذلك لانعدام فرصة تمثيل الأدوار المتنوعة التي يستهويها الزوج بزوجته، والعكس، بعدما تعرّى جسداهما من «ورقة التوت» تلك التي حفزّت خباياها للتلذّذ بوصالها أو بوصاله، قبل أن يعرّي وصالها مثلاً، وَهْمَ مبتغاه؛ فإذا ما ألحق هذا الشيء ضرراً شديداً بالقفص الزوجي، فالضرر الأشد هو من تقويضه، بعد تصدعه، عقب مشاركة نفسيهما السراء والضراء، في الصغائر والكبائر، وفي كل ما يجعل من كليهما مملاً في تكراراته المحفوظة غيباً، عند كل ردّة فعل.

أمن حاجة بعد لتبرير علّة الطلاق؟

كنّ أنت تصبح جميلاً

مهما حسبت نفسك بارعاً في اتقان ما ظننته قادراً على أن يستدر إعجاب المحبوب بشخصك، أكان خُلقاً أم خلقاً، يبقى فيك شيء فضفاض على ما لبسته بمقاس رغبتك لأن تغدو جميلاً عندها، أو عنده؛ فإذا ما أردت أن تكون موضع إعجابهن وليس احترامهن، (فالاحترام يُلزمك بأصول الترحيب الاجتماعي بمن لا تستسيغ حتى مشاهدته)، عليك أن تستعيد ثقتك بما أنت فيه، لا بما يريدونه منك ـ بك.

فكن مثلما أنت، تكن جميلاً.

الاجترار الحسن

تعيد الحيوانات اللبونة مضغ ما تخزّن في جيوب معدتها عند القيلولة، حتى لا تنقطع شهيتها عن الأكل.

إنه تقنين فطري، كي تدرّ حليباً أكثر، وتستمر في مسعاها بطاقة أكبر من المتوافر في المرعى؛ بينما يعيد المحازبون التقليديون تكرار المحشو في لفائف عقولهم لكي نصدّق ما آمنوا به، بعدما انقطعت شهيتهم المعرفية عن الاستزادة بأكثر مما تعلموه.

وهذا هدر للطاقة، وتقويض لعقل يتسم طبعه بالرغبة في التهام الحقول المعرفية الخصبة، والفضاءات الرحبة، هذا إذا ما اقتدى، فتشبَّه اجتراره باجترار بطون الماعز، لا عقول الأيديولوجيين.

المستتر بين الريفيّ والطبيعة

درجت العادة على امتداح الظروف الطبيعية لعلّة تفوق الريفيين على أبناء المدينة في الشعر والموسيقى والفلسفة وغيرها، لكون هذه تشكل سبباً وجيهاً لانهمام القروي في التأمل الرحب بما لا يهتمّ به تجار المدن، ولا عمالها المستلبون إلى منغلقات، تمنع ترحال النظر إلى أبعد من بناية الجار، كما لا تسمح بتجوال الروح في ماوراء المتعيِّن.

لكن ما نُسي ذكره في كل ذلك، يتمثّل في ما يقوله شعر الرومانسيين عن غنى الطبيعة وتنوّعها، وفي ما يُفصح عنه أدب الروائيين، وما يستنبشه التأمل في خفايا الطبيعة من خبايا كامنة في النفس الإنسانية، وأيضاً في ما يستوحيه الرسامون والموسيقيون الكبار من نغمات ساحرة في رنين صوتها وبديع لونها.

إنه سرّ التصاق الريفي بترابٍ، منه خُلقنا وإليه نعود، وهذا ما يستثير تفكره بالميكانيزمات البسيطة لصيرورة الكائنات الطبيعية المنسية صارت، بعدما تعلم منها الأوائل دروساً عن المبادىء الأولى للوجود الموجود فينا ـ أمامنا في معادلات نظرية، لا تؤثر في متعلميها، كالأثر الذي أحدثته في عالمها، حينما عايش المدني بتجربته ما يعيشه الريفي بفطرته، ورغم الفارق ثمة شيء مشترك بين الاثنين.

تثبيت الذوق هدف تربوي

يُعدّ التثبيت من الأركان الرئيسة في مفاهيم علم النفس التحليلي، حتى إن نسبته إلى رزمة المفاهيم السيكولوجية الحديثة، كنسبة الجندي المجهول إلى باقي عناصر الجيش المعروفة، هذا إذا ما أدركنا أن التربية هي بمثابة تدجين للأحاسيس، كي تتثبّت على ما يجب أن تستَحسِنَ وتَتذوّق في لاوعيها.

لهـذا، ربمـا يسـتلذ البعـض بحلـو طعـم، بينمـا يستسـيغ الآخـرون مـرّه،

مثلما تستثير الأبدان الممتلئة الشهية الجنسية للقدماء، بدلاً من الرغبة بالأجسام النحيفة لعارضات الأزياء، عند أصحاب الذوق الإعلاني الحديث.

فإذاً، كل واحد منّا هو عبارة عن مجموعة تثبيتات كامنة في الأثر المتبقي، لما حدث معه ذات مرة، ذات طفولة!

علّة انهيار الإمبراطوريات

الأمة التي تخوض بخيرة أبنائها حروباً توسعية، سيصاب توسعها بتخمة الانتهازيين الجبناء الذين يتكاسلون عن القيام بواجب حماية انتصار الشجعان، هكذا تتهاوى الإمبراطوريات، ويُهزم المنتصر.

قوة الأيدي من ضعف العقل

العقل الراجح ليس في من يتجنّب فظاظة الأغبياء، بل هو في من يدفعهم إلى الصمت بالإصغاء إلى ما لا يستطيع أن يتفوه به عقل الضعفاء، فتكفلت بقوله أياديهم وأرجلهم.

القدرة على التحرّر من الاستلاب إبداع

اعتبر نيتشه أن ما ننطق به، ليس ما نريد قوله بالضرورة، وما نبغي

الإشـارة أو التدليـل عليـه، ليـس متعيناً فـي كلمـات، ولا حـدود اللغـة، برأيـه، مطواعـة إلـى الحـدّ الـذي يسـمح مـن خلالهـا بالتعبيـر عـن فـرادة إحساسـنا وتفكرنـا باللامحـدود.

فاللغة مكتملة في نسق محدد وصارم، تمّ الاتفاق بها على ما تعنيه الإشارة إلى هذا الشيء بهذا الصوت أو ذاك الحرف، لا بغيره. ولأن لكل منا شيئه، فالمُراد من الإشارة إلى الموضوع، أو الشيء عبر لغة متشيّأة هي بدورها كموضوع خارج ذاتي، لا يعكس حقيقته فيّ أنا.

لذا كان العظماء ونيتشه بالطبع منهم، هم من ابتكر من لغتهم السائدة (العموم)، لغته الخاصة في التعبير عما لم يقله القدماء.

إجبار الصدق

أمانة الشخص الراوي في نقل ما يجري من دون زيادة، مردها إلى حرصه على مشاعره المجروحة يوم أفرط في الحديث عما لم يحصل أمام أناس معنيين بأمر كلامه هذا الذي لم يحتسب فيه، وقتها، لوجودهم كشاهد على استرسالات بَالَغَ فيها، فكُذِّب بها على التوّ.

ولأنه صار بعدها يتوجس من كل زيادة، قَصُرَ كلامه على ما يجعله محتشماً حيال الآخرين.

أما الذي تعجّن خبزه اليومي بالكذب المتواصل، هو ممن أدمته جروح الخيبة والفشل، فأصبح جسده حاملاً لندوب كذب، لا يأبه إلى ما قد يُقال بعدها عنه، بعدما صارت ندوبه هي من سمات هويته.

نصائح أنثروبولوجية

«اتركوا الناس وشأنهم»، هذا ما دعت إليه الأنتروبولوجيا البنيوية في خلاصة معايشتها الأوضاع الحياتية داخل تجمعات وقبائل، كانت قد صنّفت بالبدائية، انطلاقاً من معايير، لا تصلح لقياس راحة البدائيين في «أستراليا» على راحة مدنييها، ولا الكآبة الناجمة عن مفاعيل التطور التكنولوجي في الغرب على ما ينجم عن حالات شعورية، أقل ضرراً في الأماكن المتخلفة. حتى إذا ما صدق «شوينهاور» و«كيركيغارد»، من أن حقيقة العالم ليست موجودة خارج الذات، فتتعين بتمثلاتي، «أنا». فالواجب يقضي باحترام تمثّلات البدائيين لعالمهم، لاسيما وأننا عاجزون عن التقدم إليهم بأكثر من ملهاة خاوية، فليس لدينا ما نعطيه، لكي نعوض بها إيمانهم الذي خسرناه منذ مدّة.

أما الإنتاج ووسائله فليست هي المشكلة دوماً.

ضرورة الاجتماع النيتشوي

حكاية الالتباس في ما لبسته الذات من أردية أخلاقية أثقلت كاهلها، قديم قدم استشعار المرء صقيع وحدته، فاضطر إلى أن يتجاور ويتقارب مع أقرانه بالصورة التي تريحهم، لكي يستحصل على راحته منهم، هكذا اعتمرت الأرض بالناس، بعدما صار المكان دافئاً بأنفاسهم.

استفراد رأسمالي بشع

يوماً بعد يوم تكشف العولمة عن وجهها البشع، أو بالأحرى، عن الأنياب الشرسة لرأسمالييها الذين انتصروا لحريتها من أجل حرية المنافسة والاحتكار في السوق، ليس إلّا. هكذا بانت حقيقتهم بعدما أصبحوا بحل من الاعتبارات التي كانت تفرض عليهم مجاراة التقديمات الاجتماعية للمنظومة الاشتراكية، سابقاً، بعطاءات لم تكن بدافع العطاء، ولا من أجل تحسين الأوضاع الحياتية لآلاف العمال المصروفين من العمل اليوم، بعدما فقدوا ما كان يشد أزرهم، في نقابات وأحزاب يسارية، فرضت توازناً، اختل عقب انكفائها، أو بالأحرى انكسارها.

ويبدو المشهد أكثر جلاءً بعدما غدا العالم مملوكاً من شركات صارت تمعن في استغلال الحرية المزعومة، تكديساً لثرواتها المتمركزة في أيدٍ، لا تؤتمن على مصائرنا.

فالعالم بات مهدّداً اليوم من شرّ الشركات الكبرى لعمال وافقوا على أن يكونوا خداماً أُجراء في خدمة الأغنياء. لكن هذا لم يشفع لهم قبولهم بالذي كان يتفق في السابق مع منطق: «علم السيد بالذي يجهله العبد». أما الآن فالمسألة مختلفة، أما زلتم يا عمال العالم... تسخرون من شيوعية ماركس، إذا ما كانت الحاجة ماسة لاستدعاء ولو القليل منها؟؟!!

ماوراء العولمة

المجتمعات الغربية تحتاج إلى مرأى صحون طائرة وكائنات غريبة، ومَرْكبات عجيبة إلخ... وذلك، لكي تستعيد ثقتها بوجود عوالم أخرى، لم يحكمها عقل السيد جورج بوش الابن... أما نحن فيكفينا ما عندنا...

ذكاء شرير

ليس من إنسان غبي بالمطلق، ولا يطاول ذكاؤه، إذا ما توافر، المجالات كافة، هذا ما خلصت إليه بعض النظريات الفلسفية مِنْ فحوى تقسيمها البشر إلى أصناف وأنواع، فمنهم من يمتلك ذكاءً رياضياً لا يُقاس على جهله بالموسيقى، ومن يتمرّس بفن إدارة المؤسسات قد لا يستطيع الخوض في المسائل الفلسفية، كما أن العامل النبيه في مضمار ما قد لا يتقن صنعة الرسامين ولا الكتّاب، إلخ...

لكن ما لم يشمله هذا التبويب، هو ذكاء أرباب العمل، لا في اختلاس أرباحهم من بين نوافذ القانون، فحسب، بل في قدرتهم على اختيار مستلزمات إنتاجهم الآلي، وأدواته المشخصنة بأفراد مطواعة تأتمر بأوامرهم، وتنفذ متطلبات عملهم بالخنوع إلى ما تستوجبه مجاراة صمت الآلة.

لهذا نجد الكثيرين من أقوياء النفوس وأتقياء المادة مهمّشين ومستثنيين من عالم الإنتاج في عالم العولمة.

حضارة الغرب تصنع رموزاً وآلهة أيضاً

المجتمعات الغربية المستقرَّة في ازدهارها، تنحو إلى ما يعزّز تقدمها، عبر توجيهات مدروسة لشعوب أنظمتها الليبرالية. وذلك، كي لا تنفر من الاستتباب النظائمي هذا، فتثور عليه بحسبه لجّة راكدة ومملّة، لا تُطاق.

لهذا، وجد المعنيون القيمون على أمر قيادتها في الأميرة «ديانا» ـ على سبيل المثال لا الحصر ـ ملاذاً للتنفيس عن حاجات الناس لإشباع فضوليتهم (حشريتهم) من خلال أخبار، ما أكلته هي البارحة، وما تمتمت به في الحمام، وذلك لإشغالهم أو إلهائهم عن أخبار أكلهم لـ «طعم» ما لديانا لديانا، وما للناس للناس.

فالناس محتاجون في قوامهم إلى كائنٍ أعلى أماته نيتشه، فتكفلت بإحيائه أيادٍ خفية، أو بالأحرى، سيستام قوي بقوّة إذابته لإرادة أفراده ضمن نطاق، أدرك القيّمون عليه المفاعيل السيكولوجية تلك المترتبة على موت الكائنات العليا للناس الدنيويين من ضرورات لخلق كائنات أرضية بديلة لها مقام تعويضي.

لهذا، أتمّوا صناعة ديانا الأميرة، لعامة الناس، و«الهمّ هنا ضمير

مســتتر»، فغــدت الأميــرة بمثابــة أيقونــة فــوق إنســانية، علّقــت فــي الإعــلان والإعــلام علــى نحــو صيَّرهــا صــورة مســتلبة مشــذّبة مــن الإغــواءات والإغــراءات المشــؤومة أو المغلوطــة، كتلــك التــي تتجــاذب أحاســيس النــاس العادييــن.

وحينما قرّرت أن تخرج من إطار صورتها المعلقة أمام أعين الناس وتطلعاتهم خارج ما أريد لهم مشاهدته، وعندما نزلت من علياء تساميهم إلى ما يجعلها إنسانة تحب وتكره، تغضب وتفرح؛ ماتت... لا تسألوا كيف؟ ومن؟ إذا لم تكن في الأصل ملك نفسها، فقد ألحقت بصورة الأميرة تشوهاً حينما قرّرت أن تعود إلى كونها «ديانا» فوجب التصويب!

الألمان غير الفرنسيين

الشعب الألماني أكثر تعصباً في ازدرائه للغرباء الوافدين إليه بسهولة قبوله لهم، مع أن عيشهم ـ سكنهم بقي على تخوم المجتمع الألماني، هذا كلّه إزاء تواضع الفرنسيين في إجراءاتهم المتشددة حيال الداخلين إلى باريس.

حياة واحدة لا تروي

حيــاة واحــدة لا تكفــي كــي تمتلــىء منهــا بمــا تشــتهيه، لهــذا، أجــاد

البعض تقسيمها إلى حيوات متعددة ـ متكاثرة ـ متشذرة بتعدد وتكاثر وتشذر رغباتهم العطشى، لكي يرتوي من أعماق بئرها غير المحدود بحدود أعمارنا القصيرة.

عبثية الكتّاب

الكتّاب الجيدون همّ من صنف الذي جرّب، فتمثلت كتابته بعبرة التجربة، عقب معايشته للأجواء المنبوذة تلك التي يحياها المهمشون بالسخرية من استقامة المعايير الأخلاقية التي همشتهم. لذا، نجد معظم المبدعين يلوذون بسلوكهم العبثي إلى التهكّم من المعارف التي جعلت الناس مؤمنين بقدرهم، كما لو أنهم خُلقوا هكذا، ولأن «الهكذا» هذه، لا تتفق وقناعة العقول الحرّة، يسمح هؤلاء لأنفسهم بانتهاك الكثير من الأشياء التي يحتشم بها الناس.

لكن، لكي تصير كاتباً عليك بالكثير من الجدّية في القراءة، وفي الكتابة أيضاً.

معادلة هشّة

الإفراط في الحرص على حماية ما نملكه، يصيرنا جبناء خائفين، لا نُقدِم على أي خطوة من شأنها أن تهددنا بخسارة محتملة؛ لهذا، تمركزت الشجاعة في طبقة الفقراء والمعدمين الذين قد تصل جرأتهم

إلـى حـدّ المسـاومة علـى حيـاة، ليـس فيهـا مـا يخسـرونه، فـي حيـن يحتمـي الأغنيـاء وراء خدّامهـم، كـي لا يفقـدوا مملكـة اسـتغلالهم واسـتعمالهم لجيـوش المتوجسـين مـن خـوف رؤسـائهم، وأي خلـل فـي هـذه المعادلـة يقلـب الأوضاع رأسـاً علـى عقـب.

الوسيلة تبرّر الغاية

تنأى الأحزاب بنفسها عن عقائدها عند كل استحقاق يتعدى نطاقه مصلحة عناصرها، أو فهم عقائدييها، وكلما ازدادت تمسكاً بالعقيدة، ازدادت معها الحاجة إلى خلخلة ثوابتها، لكي تتسع لمصالح الآخرين المتذررة عقولهم خارج إطار تصوراتهم، للمايجب أن يكون...

من هنا، تنشأ المفارقة القاتلة، بين واقع حال العقيدة، ومقتضيات أحوال السياسة...، فبين ضرورات الحفاظ على ما يحصّن تماسكها الحزبي، من جهة، واعتبارات التخلي عما يجعلها لاعباً مؤثراً في الحلبة السياسية، من جهة ثانية، ثمة مساومة على المبادىء التي كانت قد استقطبت من خلالها، فئة من المعتقدين بسمو نظرية الحزب وأهدافه، قبل أن تُختبر هذه فتقحم في وحل التجاذبات السياسية التي قد تكشف عن تلاطمٍ أكيد بين المصلحة السياسية من هذا الموقف، والضرر الناجم عنه على العقيدة والعقائديين.

لهـذا، تبقـى معظـم الأحـزاب التـي تتسـم عقيدتهـا بالإحـكام المبدئـي،

خارج إطار لعبة التنافس والتحايل الديموقراطي للسياسة. من هنا، كانت القاعدة في حكم الحزب النازي: إما أنا، أو لا أحد؛ فكان هو ولا أحد، فترة وجيزة، ليس إلا.

في الغيرة مواساة

لماذا يحسد الزميل زميله، والصديق صديقه، حتى لا نقول والأخ أخاه، إذا ما تكافىء على صنيعه فتبوأ مركزاً رفيعاً، وحصَّل مالاً وفيراً.

فبدل أن نفرح لفرحه، ونغتبط لنيله ما نفتقر إليه، لما كان يفتقده هو، نشحن غيظنا منه بالغيرة على ما هو فيه، فتتكشف حقيقة علاقتنا به، مبينة ما يختبىء خلف مظاهر الودّ، حيال الآخر، كم فيها من المحاباة للأنا.

ولأن طموحنا يبقى إزاء أقرب المقربين لنا، لا إزاء الغرباء البعيدين عنا، لا نفرح لنجاحات الصديق، إنما نحزن لخسارتنا علّة صداقته لنا، أو صداقتنا به.

إرباك عاشق

حينما تحتشد المشاعر وتزدحم الأفكار حيال من تحب، أو تهوى، قد لا تنطق بكلمة، وقد لا تُظهِر سوى انفعال سخطٍ على ما

أصابك من شللٍ تام، أقعدك عن القيام بما ترغب في تبيانه، لأن ما أنت فيه، أوسع من أن يتفوه به ضيق الفم، وأدل من أن يُحدّد بكلمة، أو جملة، أو حديث مطوّل.

لهذا، يلوذ العاشق إلى الصمت أمام معشوقه، ويرتبك الحزبي أمام زعيمه، حيث إن امتلاء القنينة و«طفحانها» لا يساعدنا على إفراغها بالسرعة التي نستجدي فيها مشاعر المحبوب.

اختلاف التمثُّل بالسِيَر

تسطر أعمال الفيلسوف سيرة حياته المتمرحلة بتمرحل إنتاجه الفكري، فيتمثل بأحداثها كي يُدون فهمه لها ورأيه بها، وكل ما من شأنه الاعتبار بعبرة تفكيكه انفعال ذاته عن مجرى الأحداث الموضوعية تلك التي يلتبس فهمها، على عقول الناس البسطاء.

في حين، يكتب السياسي مذكراته من أجل الصفح، لا الاعتراف، عما ارتكبه بحقنا، حينما كان متسلطاً مقتدراً على حقوقنا، فيلجأ إلى تبرير مواقفه التي كانت، بعدما تعلّم منها الشيء الذي صيّره متواضعاً عما كانه. لهذا، يسطر السياسي سيرة حياته بغية إظهار الوجه الإنساني في مواقفه اللاإنسانية، بينما ينشغل الفيلسوف بعلّة الاغتراب اللاإنساني في إنسانية كلٍّ منا. هذا ما كتبه سارتر، وذاك ما خطّه تشرشل.

دوي صمت الفلاسفة

إن تأثير سكون الوادي على المسامع، أعظم بما لا يُقاس مع الأصوات الغريبة لأيٍّ من قاطنيه؛ فلا زئير الأسود أقوى، ولا عويل الذئاب بقادر على طمس الصوت الصادر عن رهبة المكان الأعمق في التدليل على ما يحتويه وجوده المهيمن على كل الموجودات الصغيرة.

لهذا، كان صمت الفلاسفة أبلغ من كلام كورس الببغائيين الذين يرددون ما قاله فيلسوف، لاذ عند موته إلى الصمت.

الخريف حنين دائم إلى الصيف

فصل الخريف، يستفزّ في البعض، وأنا منهم مشاعر غريبة، يمتزج فيها بؤس الفراق بالحنين إلى لقاء صيف آخر فيه من التمنيات، ما رغبناه ولم نحققه، ما عشناه ولم نقدّره إلّا بعد انقضاء فصل صيفه، فترك فينا حنين شوقٍ، هو الخريف بعينه. لهذا، تُشحذ الأحاسيس وتشتعل المشاعر في الخريف، ليس لأننا صرنا نتشوق إلى ما كناه في ربيع العمر، فحسب، إنما لانقضاء فصلٍ جميلٍ من فصول حياتنا، أدركناه لذائذه بعد فوات الأوان.

التكرار يصنع الحقيقة

تتفق الأغلبية على ما في الذوق من ليونة مطواعة للتهذيب والتسامي، بما لا يُقاس مع ما تتجرعه مسامعنا من «طنطنات» خسيسة في الموسيقى الدارجة.

فالموضة التي تفرض نفسها بقوة التكرار والإعادة، ليست بريئة بالمطلق، ولا هي تتماشى مع صيرورة المتغيرات الإنسانية المُستلبة إلى ما يُقرره لنا أصحاب الشركات بقوة إعلامهم وإعلانهم للمُربح لهم؛ فالقيمون على أمرنا، يستغلون قابلية تبدّل الذوق وتغيّره، عبر توجيهه باتجاه ما يناسبهم.

لهذا، ستجد أن صناعة المشاهير هي من ضرورات تسويق السلع لدى أصحاب الشركات الذين استفادوا إلى أقصى حدّ من الدراسات السيكولوجية التي أدركت كيف أن الجمهور يتدجّن عندما يتمثّل بهندام مشاهيره وسلوك رموزه.

ومثلما أدرك «غوبلز» ما لقوة تكرارالكذبة من تأثير على مَنْ لم يُصدِّق، عرف تجار الأغنية، مستوى تأثير الإعادة على ما يجعل من الناس مستهلكين ومعميين عن حقيقة الأكاذيب الموسيقية.

حصيلة أولية لتوقعات نيتشه

قال نيتشه عن تباشير قرن الآلة: «الصحافة، والآلة، والسكّة الحديدية، والتلغراف، كلها تباشير لم يجرؤ أي أحد على استخلاص ما سينتج منها بعد ألف سنة».

فإليه إذاً، حصيلة المئة سنة الأولى، بعد وفاته:

1 ـ جرّب الاشتراكيون اشتراكيتهم، ولم تنجح.

2 ـ فهم النازيون إنسانك الأعلى على نحو كلّف البشرية عشرات الملايين من الضحايا.

3 ـ انتشرت برامج تلفزيونية «للذي مَنْ سيربح المليون»، إذا ما أجاد الضيف اختيار الإجابة الأصح على أسئلة مثل، هل بتهوڤن وفاغنر أو موزار هم من قادة قوات حلف شمال الأطلسي، أم من الموسيقيين؟؟

4 ـ كثرت الأقاويل عن موت الفلسفة، بكونها أصبحت بالنسبة إلى العقل التجاري، أو المقاول، من المهاترات الكلامية التي لا تنفع في تعداد الدولارات.

5 ـ تطورت الآلة الميكانيكية إلى تكنولوجيا، أثمرت رفاهاً جسدياً، فارتفعت معه حصيلة أمراض السكري والضغط، والقلب إلخ...

6 ـ تفشّت الكآبة بين الناس الذين لا يجيدون الركض لركب عالم

العولمة تلك القابضة على رقاب البشر أجمعين، من خلال وسائل تكنولوجية بشرّت بها الصحافة ـ الآلة ـ التلغراف إلخ...

7 ـ انتصرت أميركا بالعولمة، لعولمة إمبراطوريتها الرأسمالية التي اتخذت شكلاً آخر مختلفاً إلى حدٍّ ما، عما وصفه ماركس.

8 ـ إذا ما قُبض عليك وأنت تكتب، ستجد من يرمقك بنظرة ساخرة على اهتمامك بالذي لا يستجلب مالاً وفيراً.

9 ـ لم يعد للهوية من تأثير في ألمانية هذا، أو فرنسية ذاك، إذا ما تعلّق الأمر بصفقة تجارية مع أي رجل يملك أكثر من مليون دولار.

10 ـ صار راعي ضيعتنا يتهاتف مع نيويورك من على صخرة في وادي السلوقي.

11 ـ...!!

12 ـ...!!

وللباقي تتمة لأحد غيري في القرن المقبل.

طور جدلي في السياسة بين الصقيع والحر

مـن أجـل احتمـال قيـظ الصحـراء وحرّهـا مـنَّ اللّـه علـى الخليجييـن، بمنابـع بتـرول، وفَّـرت لهـم فائـض مـالٍ وفيـراً؛ وعلـى مـن يحتمـل شـمالاً، صقيـع الطقـس، حيويـة ونشـاطاً للاسـتثمار وإدارة شـركات البتـرول تلـك،

أما حال من هم في الوسط، فاعتدال مناخهم وعقلهم، ذهب بهم أدراج التلاطم بين الحر والصقيع؛

أيمكن أن يكون جدل العلاقة بين الحرّ والصقيع هذا الذي يتحكم بمناخاتنا، يتحكم هو أيضاً في سياساتنا؟!!

الزعيم رمز السلطة لا مُصلحها

إذا ما اشتدّ الحرص على عدم التعرّض لرمز النظام أو زعيمه، إبحث عن طبقة المستفيدين من هذا النظام، فهؤلاء هم الحصادون الذين يستحصلون على الغلّة التي زرعها القائد قبل وفاته، ليتقاسمها بعده حماته الأشداء في حراسة الصورة، أو الهيكل، بهدف تكريس الأوضاع التي تبقيهم قيمين على ما يؤمِّن لهم محصولاً أفضل في موسم مقبل.

فالمسألة ليست في شتيمة الرمز، إنما في التعرض إلى ما يهدِّد سلطة بقاء الطبقة المستفيدة تلك.

مات لينين فعاشت شيوعية الكثيرين!!

قرف الإعدام

مَـنْ شـرّع الإعـدام بهـدف التقليـل مـن وتيـرة الجرائـم، لـم يُصِـبْ،

فالإحصــاءات تشــير إلــى عــدم انخفاضهــا فــي البلــدان التــي ســنّت قانونــه، لمعاقبـة كل مـن تسـوّل لـه نفسـه التعـرّض لحيـاة الآخريـن، وإذا مـا كان إعـدام المـرء، لا يسـتهدف تعليمـه هـو كيفيـة التصـرف فـي العالـم الآخـر، فيُقـدم جثمانـه عبـرة لمـن يعتبـر، وقربانـاً لتعليـم الآخريـن السـلوك السـوي والطاعـة الحسـنى.

فلنوقف هذه القرابين، إذا لم نستحصل على المُراد منها، كأمثولة للباقين، اللهمَّ إلا إذا كانت هذه العملية هي بدافع الثأر للضحية التي قُتِلَت ربما، في لحظة انفعال ولمرّة واحدة فقط، في حين نقتل المتهم بإخباره مراسيم إعدامه ألف مرة، وهذا ليس عدلاً، فالعدل يقضي إذا كان لا بدّ من إعدامه، بقتله من دون درايته، ومن دون أن يعلم ساعة موته، ولا حتى أنه سيموت، وهذه رحمة أخف وطأة.

مع أن المسألة كلها تثير الغثيان.

الانضمام إلى الجوقة

قد لا يفلت، حتى أصحاب الذوق الرفيع من تأثير ضغوطات الفن الهابط، لا لأنه يجتاح أماكن وجودنا، من دون إذن سامع الراديوات، ولا الحفلات تلك الواجب حضورها، لئلا تبقى وحيداً، فحسب، لتغدو عندها هدفاً لتسللات خفافيش الطرب «السوقي» هذا الذي يفرض نفسه عليك بقوة معاشرتك لمحيط بشري، يتلقى ما يأتيه

من دون حصانة معرفية-فنية، كتلك التي تحميك من الانجراف إلى حماس جمهور المصفقين.

ولأنك مُجبر على الاستماع إلى ما يثير الفضول في أحاديث معجبيهم، فقد يروق لك أن تعرف من هو هذا؟ وكيف يغني ذاك؟ وبذلك تدخل إلى عالم السوق، وإلى لعبة المفاضلة بين السيء والأسوأ، ومن دون أن تدري بعدها، تتحول مِنْ رافض لهذه المهزلة إلى ما يقحمك في المفاضلة السيئة تلك، بين الحسن والأحسن، فتنضم خلسة إلى الجوقة.

القيادة مبادرة

نجاح القائد يتوقف على مدى جرأته في اقتحام ما يخشى منه الآخرون، الذين يتسلحون بإقدامه للمضي في ما يقرر هو لهم، وما لا يخاف هو من فشله، حتى ولو أخفق مرة، حيث يبقى واثقاً لا يتردد في ما يريده؛ فهو من خفّت عليه مشقة الخوف من الفشل، وهو أيضاً صاحب إيمان مفرط بإرادته على اقتراح مبادرات، بها يتسيّد وبفعلها يغدو فريداً في عيون الناس، أما الزعيم الذي يُبالغ في تقدير قوته على الفرض والإملاء من دون موازنة منطقية بين الممكن والمستحيل، سيؤول مصيره إلى ما آل إليه مصير «هتلر».

إنصاف نيتشه

الخفّة ضد الكآبة، فعندما تثقلك هموم معارفك بالأسباب التي جعلت من هذا الموقف أو ذاك السلوك قيمة اجتماعية سامية، ليتحدّد بها معيار الحكم على صلاح هذا الشخص أو عدم صلاحه، يتكبلك الحذر والخوف من حكم تلك الاعتبارات، مع علمك أنها ليست سامية بالقدر الذي يعليها الناس إلى فضاء أعلى من حيثياتها الأرضية.

لهذا، اتُّهِم العباقرة، ممن تحرّر من الاعتبارات، نتيجة معرفته بما لا يعرفه الآخرون عنها، بالجنون، فغرقوا بحزن اكتئابهم الرازح تحت وابل من الأحكام الغبية.

لا مساواة حينما تتنوع المهارات

الإفـراط فـي التواضـع يُضـرّ بأصحـاب المقامـات الرفيعـة. إنهـا لقاعـدة ناجحــة اتبعهــا الأرســتقراطيون مــدّة طويلــة، فأحســنوا صنيعــاً، واحتمــى بحصنهــا الســيكولوجي، ساســة البرلمانــات الحديثــة إلــى الآن، بعدمــا أثبتــت نجاعتهــا؛ فــي حيــن رمــى ماركــس، هــو والفلاســفة الثوريــون إلــى تقويــض التراتبيــة بيــن الطبقــات والأفــراد، باعتبارهــا إنشــاءً إنســانياً وليــس ربانيــاً؛ لكــن مــا لــم ينتبــه إليــه هــؤلاء الدُعــاة إلــى اشــتراكية المســاواة بيــن البشــر، هــو أن ثمــة بيــن النــاس مــن يمتلــك قــدرات مختلفــة ومغايــرة،

لا يمكن أن يتساوى فيها عقل نيتشه مع عقل «أم حسين البنومي»، ولا ذوق ڤان غوغ مع ذوق آكلي الحلوى.

ولأن البشر متعددون ـ متكاثرون ومغايرون على شاكلة اختلاف المقامات وتنوعها في الطبيعة، كان لا بدّ من التيقظ إلى ما يمكن أن يجعل من الاشتراكية تلك، غير عادلة في تقديم عطاءات متكافئة ـ متوازنة، وذلك من أجل غربلة الرجال عن أشباه الرجال، القادر الحقيقي عمن يستغل قدرة الصادقين، وهذا من شأنه تمييز العقول الراجحة عمن يستعمل مركزه ـ سلطته لتدمير عقول الآخرين، لا أن تُخْلَط المعايير وتميّع تحت عناوين وحجج، فحواها إنساني، ومردودها ليس إنسانياً على الإطلاق.

فالحذر كان يجب أن ينصبّ، في هذا السياق، على ما يمنع مساواة العقول كافة في خانة واحدة، وكأنها عقل واحد، وذلك كي لا يتجرأ الجهال على مطالبة العارفين ومساءلتهم، لماذا أنتم وليس نحن؟؟!!!

كشف ذرائع المعارضة السياسية بعد فوات الأوان

ينصبّ مسعى معظم التيارات المعارضة في الأنظمة الحاكمة، على اقتناص هفوات السلطة وأخطائها، لحزمها في رزمة واحدة، من دون أن تميّز الخطأ الناجم عن ضرورات العمل، عن الخطأ المترتب عن التقاعس في العمل، مع أن ثمة فرقاً شاسعاً بين الخطأين، إذ لا

يُعقل أن تُدرج فيه المطالبة بتصحيح الخلل، مع المطالبة بإقرار ما يمكن أن يرشح عن إقراره خلل أو عطب نوعي أخطر.

يمكن للمعارضة أن تُلاطف الجماهير وتُجاري هواهم، وهي تعلم أن غاية الوصول إلى السلطة تملي عليها تبرير واعتماد وسائل، قد ترتدّ على حكمها الخائب، معارضة أوسع وسخطاً أكبر. وهذا ما لم تدركه «المعارضات»، إلا بعد فوات الأوان.

أياً كان هو القرار وجوده أفضل من عدمه

أراد شكسبير من مسرحية هاملت كلها، القول: عندما تغمرك الحيرة والتردد بالكآبة إياها التي أغرقت «هاملت البطل» بغمّه؛ فليس أمامك من خيار، سوى اتخاذ قرار قد يخرجك من حال الضياع ذاك الذي لا يمكن أن يتساوى معه ألم القلق الدائم، مع وجع بتره، وذلك من خلال قرار صائب بذاته، لا بنتائجه. فتغدو العبرة في القرار، والقرار فقط.

الناس مقامات

حينما تساوي نفسك بالأقل منك شأناً، ستواجه مشكلة تكبرّه وترفعه إلى مصاف تجعلك تندم على «مزاملة» (من زميل)، من لا يعرف حجم نفسه بنفسه، فيتسلق شأنك ليعلوَ عليك.

فطبائع الخلق كلها موسومة بعلة تصديق الإطراءات الكلامية المباشرة، وغير المباشرة كتلك المتمثلة بإلقاء التحية من وزير أو نائب، وهلمجرا، ليتخذها الغبي شهادة كافية على ما صار يظنّه بعدها هو بنفسه، من أنه أكبر من أن يردّ التحية عليك، وأعلى من أن يعاشر شأنك الأخسّ من مقامه الرفيع.

هكذا تصنع السياسة أزلامها، فيزدري المفكرون صنّاع هذه اللعبة.

عاطفة الأم من إنجابها هي للمعطوف عليه (مولودها)؟!!

إن كثرة التفسيرات السيكولوجية عن علّة تعاظم عاطفة الأم على ابنها، بينما ليست هي كذلك عند الأب، أنستنا بداهة فيزيولوجية، أكثر إحكاماً من الشروحات الافتراضية تلك التي أسهبت في تعليل أسباب التباين العاطفي بين الأبوين؛ فعزتها إلى رباطة جأش الرجل بذاته، أي إلى رجحان عقله حيال من يُحبّ، وغلبة عاطفة المرأة على عقلها حيال وليدها!

مع أن المسألة غاية في البساطة، فالأم هي التي تحمل الجنين في أحشائها، وهي من يتألم لمخاض ولادته، ويتوجع لوجعه، بينما لا يحبل الرجل أبداً.

أمن حاجة إلى أكثر من هذا، لكي نوقف هذه الافتراضات الذكورية؟

أستثني قلّة من النسوة، أنجبن وهنّ لسن أمهات.

نصيحة...

إذا ما أردت أن تتخذ قراراً حكيماً، وفّره إلى ما بعد انفعالك، واذهب بخواطرك إلى مابعد ـ ماقبل اللحظة المُعاشة، وذلك، كيلا تتسرع في الحكم على مسبّبي غضبك، ولئلا تتوسل تبريرات واهية بعدما ارتكبت الخطأ وغدوت أسير الحكم نفسه.

إذ إن التمثل باعتبارات العدو كما الصديق، ومِنْ موقع الناظر إلى البعيد كما القريب، يُخرجك من دائرة التلاطمات العصبية بخبرٍ من هنا، وحديث من هناك، فيجعلك تقف على مسافة تتيح لك النظر في خبايا المسرح وزواياه كافة؛ عندها، تصبح أهلاً لاتخاذ الموقف الأصح في السياسة، وفي غيرها.

الموت عند البوذيين طقس لحياة جديدة

ليس بدافع سيكولوجي ما تشعر به من ظمأ في البراري القاحلة-اليابسة، حتى وإن شربت، فلا ترتوي بقدر ما يرويك اخضرار الطبيعة.

لذا، يبعث فيك الخريف، الكآبة من موت المدلولات الحيوية في

ربيع، انقضى بماء عشبه، حتى إذا ما كان الماء رمزاً للحياة، وكذلك جوف التراب رمزاً للموت، حاربه البوذيون بشراسة في طقوس حرق موتاهم فوق مياه النهر المقدّس.

لكل موقع رجالاته

يختار رجل السياسة مساعديه، على أساس كفاءتهم في فهم ما لا يريد قوله صراحةً، فيُحرج، بينما ينتقي القائد العسكري معاونيه، انطلاقاً من إخلاصهم في الالتزام بتنفيذ المتفق عليه، من دون زيادة أو نقصان.

لهذا، قد تنقلب الأمور وتتفجّر الأوضاع إذا ما تبدلت الأدوار، فحلّ رجل سياسي متمرس في كتم ما يضمره، معاوناً عسكرياً، واحتل عسكري، مركزاً سياسياً يحتاج إلى أكثر من مناقبية الالتزام، خلال إدارة التناقضات السياسية.

طموح ساذج

يفاجئك هذيان الطامح إلى مركز ليس من أهله، بكلام، يشحذ فيه كل أفكاره، هذا إن توافرت أفكار عند السُذّج، ممن يحسب نفسه مقتدراً على أن يصير وزيراً لمجرد معرفته بالذي يقوله، أو ممن ظنّ أن

الثروة قد تتحصل بسهولة معرفته بأحد الأغنياء. وباختصار، إنه شخص يُحدِّثك في سهرة «خمر» عن مداركه المتفتحة على ما سيصيره بعد برهة من الزمن، ليغدو وزيراً ثرياً بالقوة، أي بقوة معرفته بخبايا اللعبة وزواياها، فتجد نفسك أمام حضرة غني مُرجأ بوزارته المؤجلة إلى أن يسعفه حظ تحقيقه للهلوسات تلك التي ستجعله ضحية مؤامرة «الغير» باستمرار؛ على هذا الخبز اليومي، يعيش العديد من اللبنانيين.

افتضاح مرير

عندما تَفْهَم ما في الآخر ما يَفْهَمه هو فيك، إرحل، فالمصلحة تقضي بأن تتحررا من سجن افتضاحاتكما، فلا تعاشره إذاً، ولا تقطع معه أيضاً، لأنك تحتاج إلى أن تلجأ إليه في الأوقات العسيرة للاستشارة، والاستشارة فقط.

مدلولات نقد «المابعد»

تعلّمنا في الصغر، أن المغزى من الحوارات التي تدور على ألسنة الحيوانات في قصص «كليلة ودمنة»، هي محض سياسية، ولأن الواقع السياسي آنذاك لم يُتِح لكاتبها نقده صراحةً، تحايل نقده وتبطّن، بالمواربة، عبر حيل ثعالبه الضعفاء، إزاء قوة ملك الغابة ونموره المتسلطة على المسرح الحيواني كله.

السؤال: كم من كاتب أجاد اليوم التحايل على واقعه، عبر نقد ما بعده...! كيلا يُتّهم بالكفر والإلحاد، أو العداء للسلطة، أو خيانة الوطن، أو...، أو...؟

فالصحافي الغبي هو الذي يُصرّ على مساءلة الفيلسوف الفرنسي «جاك دريدا»، هل تؤمن باللَّه!!!...

والأغبى، من يستفسر عن مقصدي من هذا الكلام!!.

المعرفة حدسٌ أولي

إن معرفة أي شخص لا تحتاج إلى أكثر من ساعة حوار معه، لكي تستنبش مضامينه العصيّة على إدراك المعجبين به، أو المقرّبين منه؛ وهذا ليس معياراً للذكاء، فكل من يتجرّد من انفعالاته العاطفية حيال الشخص المُمتحن، يسبر غور نواياه، عبر التركيز على ما ينهمّ به، أو يهتمّ له.

فمن خلال تتبعك لآليات تحليلاته ومراقبتك لكيفية تفكّره وانتقاله بين فواصل الكلام، ستحصل على رؤية شاملة، تكفي لمعرفة ما لا يعرفه هو عن نفسه، ربما.

أما الذي يؤخّر اكتشافك له، فهو استباق صورته إليك، مدموغة بزخرفات كلام المعجبين بشخصه، أو الناقمين عليه.

أنثى واحدة خيَّبت ظني، لا لأني كنت أقل حذاقة، بل لأني لم أرغب بتصديق ما أراه.

النبات هو الأصل

من بين الكائنات الحيّة، النبات هو الأصل، وإلّا ما تغذّت من فضلات السواد الحيواني الذي يُعاد إخراجه إلينا نقياً وصافياً من المضار وذلك كي ننتفع بها، حيث لا ينفع الشجرة التي تثمر بعد «تسويدها»، أي بعد أن نرمي إليها فضلات ما نأكل ونمتص كل ما لا يفيد، لكي نستفيد من ثمارها.

أهذا يستدعي منا أن نجعل من عيد الشجرة عيداً للصلاة والتبتل إليها هي بالذات؟ ولا تنسَ الخضار على أنواعها أيضاً.

مؤثرات فلسفية

لا تتساوى فلسفة المتزوجين، مع فلسفة العازبين من الفلاسفة الكبار، إذ تفوح من فلسفة هيغل وماركس، رائحة الزواج بأنثى جعلتهم غيارى «غيّرين»، فكانت نظرية الأول في الدولة، والثاني في الثورة، أما شوينهاور ونيتشه وغيرهما ممن غرق في بحر الغمّ والشؤم بعدما أثقلتهم نفوسهم المتعبة من نفسها، فكيف لهم أن يحتملوا الحياة مع نفس أخرى، عبر الزواج؟

فتجد في فلسفة الصنف الثاني ثمة ما يشعرك بالوحدة، فلم يكتبوا للغير، وهذا ما نحسبه، بأقل تقدير، نتيجة عدم اهتمام نيتشه بما نجم من كآبة على قرائه الكُثُر.

ـ قل لي ما هي فلسفتك؟ أقل لك إذا تزوجت.

قيمة الأعمال من هالة العقل لا من جسده

عندما تُجسِّم أحاسيسك ما كان في عهدة خيالك، مشذباً مهذباً من لحم الصورة وشحمها، ستتبخر هالته المرسومة كانت بوحي ما كتبه نيتشه، مثلاً، وما لحّنه بيتهوڤن، وكل من أدل على شخصه بعمل فلسفي، أو فني، تركه لنا أثراً على ما كانه عقله النزيه، لا جسده الرذيل. لهذا، إن مات الجسد تضاعفت قيمة أعمال المفكرين والفنانين، لخلوّها من دنس أجسادهم المتشابهة مع جسد الجميع، بينما العقل ليس كذلك.

اختبار حضاري للأحسن

في الشمال حيث تسود القوانين الموجِّهة لسيرورة الحضارة الغربية، يشعر المرء بصقيع الانضباط إلى ما يسنّه قضاة غرباء همّ، وليسوا أقرباء للمحكومين بتنفيذ عقوبة المخالفة.

إنه وجه إيجابي للعدالة، لكن وقعه سلبي على سيكولوجيا النفوس الخاضعة إلى ما تمليه قوانين، لا ترحم، حيث لا قلب فيها للشفقة على من قلَّت حيلته، فخاب فعله؛ في حين، يتولّى أمر الضالين في العشائر، كبير أقربائهم، فيحكم على الضال، مِنْ زاد معرفة المرتكب بالذي يلمّ الشمل ويعزّز الرأفة والتآزر. فالجماعة هنا ترتبط فيما بينها بروابط

دافئة، لا تعكّر حميميتها قساوة حكم القريب، لقربه من المحكوم.

والغرب بهذا المعنى، يرزح تحت برد طقسه وصقيع قوانينه الصارمة التي جعلت من حضارته تتطور، ومن فرده يكتئب؛ بينما تؤثر روابطنا العشائرية في حضارتنا تخلفاً، يعوّضه إشباع نفسي أفضل؟!!!!

الرأسمالية عزّزت ولم تدحض الماركسية

لقد وُضِع مفهوم الهوية على المحك، في ضوء تصعيد العولمة للتقارب الحاصل بين أقطاب الرأسمالية المعاصرة، بعدما ذرّرت وشتّت الناس المستدفئين كانوا بانتمائهم إلى هوية قومية، يجري اليوم تذويبها بالصورة التي تبتغيها مصلحة تحالف الرأسماليين الجدد. فالرأسمالية جعلت من الناس أفراداً متباعدين ـ متفرقين ومتنافسين، تتصارعهم المصلحة المادية للكسب والربح، في الأمة الواحدة.

ربّ قائلٍ، إن العلاقات الاجتماعية والروابط الأسرية منفصلة عن واقع حاجاتها المادية، فإن تغيرت هذه، تتبدل معها مفاهيمنا للكثير مما كنا نعتبره ذا قيمة اجتماعية سامية، لربما هذا صحيح، لكن ما هو خاطىء بالتأكيد، هو هذا الإمعان بتقويض ما انقضت أسباب وجوده، من دون لجم «منقضياته»، لا لاعتبارات أخلاقية فقط، فالأحرى بنا إيجاد كوابح عقلانية، كيلا يتفجّر مليارات البشر ضد المليارات المتمركزة بأيدي قلة سخِرَت من ثوروية ماركس، مع أنها تسير بهدى تفسيراته.

وهنا، لست بصدد نصيحة هؤلاء المتخمين، ولا أدافع عما سيؤول إليه مصير فحش الأغنياء، ولو بعد حين.

ما أرغب بالتذكير به، ههنا، هو أن وجهة نظر ماركس حول أسباب تشكل الهوية، انتصرت بانتصار العولمة، فأفحمت كل من كان يعتقد بمغالاة نزعته «الاقتصادوية».

حُلم يُفسر نفسه

قالت لي خائفة ومتوترة من شيء اقترفناه سوياً! حَلِمْتُ أنّ رأسي عالق بفند شجرة بينما جسدي يسير لوحده.

«تفسير»:

الوعي يتمثل بالرأس الرافض لما انزلق إليه الجسد من رذائل مرغوبة في لحظة صدق، ومكروهة ساعة نتلبس زيّنا الاجتماعي.

إلى متى سيبقى هذا الخصام؟؟!!

رذيلة منسية

أسوأ الرذائل، أن تستدرج شخصاً مندفعاً إلى الثقة بك ثقة عمياء، فتستغل عماه بالوجهة التي تصب في مصلحتك أنت، لا هو.

فليتجرأ أحد القادة مرّةً واحدة، ليقول لنا كم من شهيد قضى مجروراً بعمى اعتقاده.

سكون ما قبل العاصفة

كن حذراً حينما يصمت دوي الرصاص في المعارك، وتيقظ أكثر من هدوء أمواج البحر، على غير عادة استرخاء المستجمين على شواطئه، فالحيطة من ركود الأوضاع واستتبابها، يجب أن تحثّك على الاستنفار، كيلا تغفو عما قد يفاجئك من انفجار بركاني في الأماكن النائية.

وأيضاً، لا تأمن للأشخاص الذين لا يفصحون عن مبتغاهم، لتبطنها وضمورها في قعر نواياهم الأعمق من أن يسبر غورها حوار صريح؛ فشخصية مثل هؤلاء انطوائية، تلوذ إلى الصمت، لعدم تمرسها في استعمال لغة الحوار سبيلاً للمشاركة في تبادل الأفكار والهواجس.

لهذا، تجنّب معاشرة الانطوائيين، كيلا يدهسك جموح ثورانهم في لحظة غضب، لا تعي بوادره ولا تدرك مداه.

إنهم ممن تحتقن نفوسهم بالغيظ، من دون أن يستفرغوه، لا بكلام بذيء، ولا بعراك محدود، إنما بفعل ما لا تحمد عقباه.

التمهل في العلاج أصحّ

لـكلٍّ منـا نقطـة ضعفـه، تطفـو علـى السـطح، وتظهـر فـي تصـرف أهـوج علـى مـا أثـاره الآخـر فينـا مـن غضـب ليـس فـي محلـه، مـع أنـه قـد يكـون كلامـاً عاديـاً، لا يسـتدعي الخـروج عـن طـور هدوئنـا، ولا هـو بحجـم ردة

الفعل هذه، بمعياره هو، لا نحن، وذلك لجهله بغليان النفس وأرقها من مسألة، لطالما كانت موضع قلق حقيقي لحقيقتها التي استرسل في إبرازها الآخر، فأصاب مكمن علتنا.

وفي هذه الحالة، عليك ألا تسدّد بكلامك، ضربات موجعة إلى موطن الداء، لئلا تغدو عدواً بنظر من تحب، وإذا كان من ضرورة لقول ما يؤلم وقع حقيقته، فالصيغة المثلى في هذه العملية الصعبة، هو أن تسترعي الانتباه إلى حساسيته المفرطة من مرّ الحقيقة، فتعمل على أن يتجرعها حبّة حبّة، بعد أن تغلفها بحلو المذاق، وبإطراء معسول لكي يستسيغ المريض مرّه، فيُشفى، أو بالأحرى يصحو.

مصابنا الوجودي هو نفسه عند الجميع

تمخّضت التحليلات السيكولوجية عن علّة إبداع «ڤان غوغ» لرسومات قيّمة، و«بيتهوڤن» لموسيقى لا تُضاهى، و«نيتشه» لكتابة فلسفية فريدة، وغيرهم الكثيرون، بردها إلى النزعة الوجودية عند الإنسان، إذ إن لمثل هؤلاء قدرة استثنائية على محاربة موتهم المقدّر، من خلال أعمال بقيت حيّة إلى ما بعد مماتهم، بينما ليس بمقدور البشر العاديين إنجاز العمل نفسه، فلجأووا إلى محاربة موتهم من خلال إنجاب أولاد، تكاثرت بهم البشرية، فاعتمرت بإبداع عباقرة، اكتفوا بما عندهم، ولم ينجبوا.

لعبة الملكية بين الآباء والأبناء

الأسماء ليست على مسمياتها، حتى إذا ما أيقنت الحوامل هذه القناعة، ستنصرف عن إضاعة وقت التسعة شهور في اختيار اسم مميز لمولودها الذي لم تلده بطنها بعد، إلى مقاربة حدسية لما يمكن أن يختاره هو.

ولأن المسألة مستحيلة باستحالة ترك الأمور على هوى المولود، يتملك الوالدين نزوع إلى التحكّم بمصيره عبر اسمه أولاً، ومن ثم إحاطته برعاية تشريعاتهم للمسموح والممنوع، كتلك التي تشرّع الباب أمام لعبة تملكهم اليومي لما صنعه جسداهما، من جسد آخر، وروح جديدة.

ليل الفلسفة ونطاقها الحر

يخطّ الرسّام ألوان لوحته في وضح النهار، لكي يحمي رسمه من انعكاسات الضوء الليلي، هذا الذي يؤثر بإشعاعات مصابيحه في حدّة الألوان وفي خفوت الظلال.

ولأن اللوحة تستهدف بصرنا، يتحسّس الرسام من أي تبدل طفيف قد يطرأ على ما تحدّده زاوية الرؤية ونورها، فيلجأ إلى رسمها ومن ثم عرضها في نطاق إشعاعي مختلف، محتسباً من ألّا يتبدّل ما فيها، أو بالأحرى، من مقصوده منها.

أما الفلسفة، بحسب التعريف الهيغلي، لا تُكتب، إلا بعد أن يسدل الليل ستار عتمته، فيصمت التجار عن البيع، وأيضاً السياسيون، ويتوقف الصحافيون، كما أنصاف الفنانين عن عرض بضائعهم، لتستخلص بعد ذلك من هؤلاء «النهاريين»، عبرة ليلية واضحة، فتصطاد من بحر الأسماك والحيتان، اللؤلؤ والمرجان وما خُفي على كائناته المعتاشة على نحو لا تفقه معه أسباب عيشها؛ فرؤيتها (الفلسفة) تُخضِع ما نحن فيه إلى مجهر تنظيراتها لما يجب أن نكون عليه.

هكذا صارت الفلسفة بعد هيغل خطاباً للمابعد، انطلاقاً من مراقبتها للماقبل. إنها رسمٌ ليلي، لما يضمره النهار من ليل آت لا محال، ولا ضير من أن تقرأها في وضح النهار، مع أن فهمها أفضل في سكون الليل وصمته.

أمن فرق بين الرسم والفلسفة؟؟!!!

الإنسان كائن زمني

عندما تستعيد ذكريات طفولتك، قد لا يُقنعك منطق البراهين التي رمى من خلالها ابن سينا إلى إثبات وجود النفس، أو روحانيتها، كما قد تُشكّك بثبات النفس، إذا ما كنت أنت الآن ليس هو الذي كان نفسه، هذا ما تستخلصه عندما تتمعن في إحدى الصور الفوتوغرافية لمرحلة من مراحل حياتك التي انقضت منذ مدة طويلة، فتركت بصماتها على شخص آخر مختلف في الملامح، والتفكير أيضاً.

مع أن نسبية أينشتاين أدركت ما يحمله الاختلاف من تطابق مضمر، والتطابق من اختلاف باطني داخل صيرورة الزمن السائر بهدى منقضياته إلى حيث يشاء... ولا تشاء...

على ماذا إذاً، تُذرف دموع الحسرة، ما عليك إلّا أن تنعى فقدان ما كنت فيه، أو على خسارة ما بقي منه أثراً يستثير الحنين لما عشته يوماً.

فلا تأسف إن مات معتقد فلنخلق إيماناً أفضل

الفلاسفة النيتشويون هم من اتّخذ مسافة مع نفسه، لتغدو عواطفه مرئية، وانفعالاته مفكّكة عن ذاته الغارقة في بؤس اللاانتماء إلى ما تنتمي إليه انفعالات الجماعة، فبعواطفه يعشق الحبيب محبوبه، وبمعتقده يحمي الناس ما أنتجه عقل فيلسوف ما.

فلا تطلبنَّ إذاً، من الفيلسوف مشاركتكم إيمانكم، واتركوه وشأنه كي يخلق لكم إيماناً أفضل.

لهذا ظُلم ماركس

لا تعوّل على الأضواء الكاشفة في عتمة ليل دامس في ظلامه الممتد إلى ما يجعل من النور المُضاء نقطة في بحر. هكذا هم الفلاسفة، مصابيح أنوار كاشفة لحيز من بحر حياتنا الواسعة وسع جهلنا بالمستقبل.

فاحذروا من سلبيات إضاءاتهم المعرفية تلك المركّزة على نطاق محدّد، ولا تتخذوها سبيلاً للتعميم على ما يتعتمه ليل جهلنا ـ جهلهم بوعورة المسالك الأخرى. وإلا ستتعرقلون بالكثير مما لم تتوقعوه. فلا تظلموهم بظلم أنفسكم، فهم قبسٌ من نور، وليسوا ظلاميين.

الكرم ليس غيرياً

الإنسان الذي يُكرم ضيفه بافتراش طاولة طعام مُغدقة في لذائذها، ليس كريماً بالضرورة، إذا ماكان يستهدف مكسباً ما، أسماه التجار غداء عمل.

في حين يتكارم الفقراء في تقديم ما عندهم للضيف بإسراف، لا نيّة من ورائه إلى تحصيل غاية تجارية محسوبة، وإلّا لأضحوا أغنياء، وطالما كانت علّة الكرم مرتبطة بحيثيات معيشة الكريم وظروفه الحياتية، يسدّ الفقير بكرمه فجوة من مسارب أوجاعه الوجودية، حتى إنه يواجه ذل علاقته بأربابه، عبر التصدّي إلى خسّة عطاءاتهم التي يعطيها بدفق من دون أسف؛ إنه تعويض منطقي عن حاجاته الآنية، مجبولة بذلّ طاعته إلى مقام رب العمل، فيحولها بكرمه إلى شرف أرفع من سيادة الأغنياء عليه.

والمكتئبون أيضاً يتوقون من كرمهم وإسرافهم في بذل ما لا يجب بذله إلى التخفيف من أوجاعهم تلك التي لا يضاهيها لا مال وفير، ولا مقام رفيع. كان سارتر واحداً منهم؟؟

التيمّن ادعاء

صُدِمتُ مرة لإعجاب أحدهم بأرسطو، من دون داعٍ معرفي بفلسفته، إلى أن تكشفت أمامي حقيقة تيمنّه بتفاحته، لا بعقله.

وقس على ذلك، الكثير من الشيوعيين المتيّمين كانوا بلحية ماركس، لا بجدله.

على تخوم الحقيقة

احذر من أن يدوس كلامك الحقائق تلك المُصانة بصمت الناس وكتمانهم المتواطىء في النظر إليها من دون أن يقولوا فيها قولاً ما. فكل ما لا يستدعي وضوحه حذاقة، نتجنبه لخلوّه من خميرة المبارزة الزجلية تلك التي تثير شوق الكلام ومتعة السجال والغلبة.

فأحاديث البشر تدور بمعظمها حول ما ظُنّ بخفائه وضموره، قياساً إلى ما تعتدّ به قيم تنشئتنا الاجتماعية، فيغدو الأفراد موضع جدل أخذ ورد عن استقامة هذا، وضلال ذاك؛ فيتحول الفرد مادة لعلك الألسن، حتى إن الافتراضات الآيلة إلى التخمين والتذاكي، تهيمن على مجمل تسلياتنا الكلامية التي تلهينا، فتنسينا بداهة الحقائق التي نعيش على تخومها لاصطياد من يقع في حفرتها.

فانتبه من سهام الناس المتربصين بالحقائق والحقائقيين، لكي ينالوا شرف حراستها.

حكمة تقنين الطاقة

فيما لو أجاد الرياضيون المحترفون ممن لم تتعدَ أعمارهم سن الثلاثين، استعمال طاقاتهم وتوظيفها بعقل «الأربعينيين»، وحكمة الخمسينيين، لسددوا ضرباتهم بنجاح أكبر، وصوبوها بجهد أقل مما تبذله الأبدان المشتعلة بحيوية الإسراع والتسرع. فكثير من الطاقة لا يكفي ما لم يلازمها عقل قادر على تقنينها حيث يجب، لإفراغها عند الضرورة.

لكن المفارقة هي التي ترافق مراحل حياتنا المتّسمة بتعويض نقصان هذا، امتلاءً في ذاك، ليس في الرياضة وحدها، فالجنس له نصيبه من ذلك أيضاً.

رحمة الأرض برسائلها فلننقذ أنفسنا إذاً

ضباب الأبخرة المتصاعدة من باطن الأرض، هو من زفير تنفسها الصحي، في حين يخنق الدخان الصاعد من فوهات مصانع إنسانها، نَفَسَها؛ فالأرض ترزح اليوم تحت كاهل حداثة عولمتنا غير العابئة بزفير تعبها، تلوثاً ألحقناه بها، فأحدثت فينا جزعاً ما زال في طور التحذير.

فرحمة الأرض هي فيما ترسله لنا من إشارات على ما ستصيره حالنا مع حالها، فهل نعتبر قبل أن تحلّ الكارثة؟؟

ضحية

مهما عملت لا تقدر على ردّ الجميل إلى من قدّم أغلى ما عنده، فالأعراف الشرقية للزواج ما زالت تُملِّكُك ابنة فلان، زوجة مطيعة لك بأولى مِنْ طاعة والديها، فالوصاية تنقل صك الملكية مِنْ الأب إلى الزوج، وفي الحالتين الأنثى هي الضحية.

عطاء البادئ أكرم؟!

يقهرك عطاء الكريم، مثلما يغمرك عون القريب والبعيد بحياءٍ لهو أَثْمَن من ردّه، في المقابل، عوناً موازياً؛ فالبادىء لا يُملي عليك إعادة ما أخذته، ولأنه لا يشترط إرجاعاً «ربوياً» (من ربا)، تبقى تقديماته أرفع شأناً، وإن كانت أقل تواضعاً من ردودك التي ستبقى ناقصة هي إزاء فعله، لأنها تتموضع في مقابل مبادرته.

وبهذا، يسلبك نشوة العطاء عندما تعيد إليه الوديعة بخجل، لا يمكن التخلص منه، إلا إذا حثثته على البوح بحقيقة مشاعره لإشهار حقيقتها على الملأ، ليس كما لو أنها عطاء مجاني، بل لإظهاره منّة شفقة، ليس إلّا.

الحياة للأعقل

«الحياة للأقوى»، قول فلسفي، طالما ردّده كورس شوينهاور ونيتشه، من دون أن يعتبروا بحيلة الضعفاء، الأقوى من شراسة أنياب الأسود، والأمضى من حدّ سكين الجزارين، وإلّا كيف يعيش الثعلب في غابة الأسد؟ وكيف يسعى النمل في جحر الأفعى؟ وأيضاً العالم الثالث تحت قبضة حكم الإمبراطورية الأميركية؟ وهل في البحر كائن أضخم من الحيتان؟ فلنبحث في البحر عمّن يدفعها بصغر حجمه، إلى الموت والانتحار على شواطىء المحيط الهادىء.

فالقوي قوي بالقياس إلى ما هو أضعف منه، وعليه، يجب ألا يتغرّر القوي بعظمته وجبروته، كي لا تفقأ القبّرة عين الفيل، أسمعتم؟ فاعتبروا يا أيها الأميركيون!!

إلى المكتئبين جميعاً

شاء من شاء، وأبى من أبى، غداً الأربعاء وبعده الخميس، مات «فلان» وعاش «علان»، غداً الأربعاء وبعده الخميس، حزنت على فقيد أم تحسّرت على خيبة، غداً الأربعاء وبعده الخميس، غضبت من فظاظة قريب أو فرحت من نجاح وليد، غداً الأربعاء وبعده الخميس، أحببت أم تركتك حبيبتك، غداً الأربعاء وبعده الخميس، فالحياة لا تقف عند الأفراح ولا الأتراح، ولا تضيق بضيق حزننا، ولا تنفرج أمام مسرّتنا،

فهي هي...، سائرة، لا تلتفت إلى من نغّص عيشه وكدّر حياته بالكآبة، وفي ظنّه أنه يثأر لنفسه منها.

لهذا، فلنتذكّر بداهة واضحة وضوحاً منسياً، مهما كان ومهما صار، غداً الأربعاء وبعده الخميس...، كما أننا لسنا عظماء إذا ما أدركنا حقيقة أننا نقضي في دوامة الزمن حكايتنا القصيرة، لعلّ ذلك يخفِّف من كرب المكتئبين، وأنا منهم.

عقلٌ يطير

تتوافر للطيور خفّة التحليق إلى ما فوق الكائنات كافة، إلا أن أجنحتها تعلو عقلها الذي يحبو في الأسفل بأدنى من عقل الإنسان الذي يعلو بتعقله أجنحتها، فيصطادها. فالعظمة إذاً، ليس في الطيران، إنما في عقل البشر وحيلتهم لإسقاط الطائر، وتطيير المعدن.

الخوف من الموت شعور بالحياة

إرادة الحياة، توقظ فينا مشاعر الخوف من موت، أدركناه ممن سبقنا موتهم، فغدونا منظرين لقدر تتالينا واحداً واحداً.

لكن ما هي علّة تمسكنا بحياة كدّرت عيشنا، بعدما اشتكى من متاعبها الكثيرون؟ فما من متألم على هذه الأرض قد سهل عليه الرحيل، من عالم الآلام إلى حيث راحة الانطفاء المطلق، وذلك

بسبب خوفه من المجهول؛ فالإنسان يأمن فيطمئن إلى ما يعرفه، أما ما لا يعرفه، فيثير فيه مشاعر القلق، هذا إذا ما انتقل من الريف إلى المدينة، فكيف بانتقاله من الوجود إلى العدم؟

وما قاله «أبيقور»: «من أن الموت لا يعنينا في شيء» طالما كنا موجودين، لا يوجد الموت، وإذا وجد، لم نكن نحن بعد بموجودين، ولهذا، لم يعننا عدم وجودنا من قبل، كما يجب أن لا يعنينا عدم وجودنا من بعد؛ فلم يلحظ أن في الإنسان خطباً معرفياً بالذي لا تعرفه الكائنات الأخرى، فالعقل الذي أمدّنا بنعيم السيطرة، وبحيلة الهيمنة، هو نفسه يتسبب بشقاء إدراك موتنا المؤجل، لهذا، كان سعيه إلى التملك وسيلة لمحاربة موتنا، وسبيلاً لنسيان حقيقة عدم امتلاكنا أي شيء.

هذا كلّه، إذا ما حيّدنا الكلام عما يتملك الإنسان من جزع على فراق الأحبة، إلى ما يستشعر به شفقة الأحياء على موته قبل موته؛ إلى ما لم يذق طعم تحلّله في جسد كان قد آلمه جرح، فكيف له أن يصدّق غير شعوره المقترن بعدم اختبار التجربة؟

إن الشعور بمرارة الموت وسوداويته، جعلتنا نتلهّى ببناء ما لا نحسب انعدام ملكيته، أو بالأحرى، انعدام ملكيتنا لأنفسنا.

مصطلح سيكولوجي مفقود

في الإنسان جموح كبير لإسداء النصائح، لا من أجل المنفعة العامة، ولا لتصويب إعوجاجات سلوك أحدهم في لحظة غضب،

إنمـا لتكريـس تفوقـه، والتأكيـد علـى أنـه ليـس كجمـوع الغاضبيـن ينفعـل، فينتصـر بنصائحـه، لكـي يُعلـي شـأن إفادتـه بالـذي لا يفيدهـم بالضـرورة.

إنها نزعة إنسانية مشروعة، إلا أنها ملتبسة، فغابت عن أساتذة السيكولوجيا الذين عجزوا عن توصيف هذه الحالة في مصطلح واضح ومحدد، لعدم قدرتهم على تفكيك التداخل بين إيجابيات النصيحة بذاتها، ورغبة الناصحين بذاتهم في ألّا يُعمل بنصائحهم، لكي يبقوا مرجعاً للمشورة، مهيمنين على ما يجب أن يكونه المعجبون بهم.

الحرية بالقياس إلى...

القائل بالحرية كاذب، ما لم يعش، إما باعتقاله، وإما بقمعه، أو على الأقل، بتهديد السلطة له، تجربة الحبس، عندها يدرك المعنى الحقيقي لحرية، ليست مطلقة إلا فيما ندر وجوده عند أشخاص مثل نيتشه، في حين أن مفهوم الحرية عند السواد الأعظم من البشر، هو دوماً بالقياس إلى ما عايشوه هنا...، وفقدوه هناك...، إلى ما وفّره نعيمها غير المحسوس في هذا النظام...، ما لم ينتقلوا إلى جحيم الأنظمة العسكرية في بلد آخر...

ألهذا، يتحسّس مثقفونا المهاجرون مرارة عيشنا بما لا يشعر به مواطنو العالم الثالث، ممن لم يبرحوا مكان إقامتهم، فلم تُتح لهم فرصة القياس بين ما نعيشه وما يعيشونه؟

فـإذا كان هـذا صحيحـاً، فلنسـهّل علـى ثـوار الحريـة مهمـة التغييـر عبـر

تأميــن أســطول جــوي وبحــري لشــحن المواطنيــن العــرب كافــة إلــى الغــرب، علّهــم يدركــون ظلــم مــا يعيشــونه.

المفكّر قناص لأفكاره

الحوار الكلامي يشحن القدرات، ويستفزّ الكوامن من أجل الاسترسال في التعبير عما لم يعه المفكر قبل المحادثة. لهذا، يحتاج المفكرون إلى إزالة الصدأ عمّا حصلته قراءاتهم، كما تجاربهم تلك التي يختمرها الكمون، قبل أن يتعجنها الفكر، خبزاً للجوعانين، عبر المحادثة والمحادثة فقط

لبرهة، يستوقف المفكر «لمعة» جديدة لم تكن بالحسبان، حينما شرع في نقاش قضية فاجأته، فلم يدرك حدودها المحدودة كانت في طريقة عرض الآخرين لها، فتوسع بها إلى ما بعد المتعارف عليه، بعد أن استفزته على الولوج في حيثياتها، منقباً في بحرها عن جواهر لا تتحصل إلا بالغطس والغوص في خفايا البحار.

أستثني معلمي المدارس، فالأساتذة الناجحون ليسوا مفكرين.

صغائر أمور البيت هي البيت

إذا مــا كانــت المــرأة غيــر العاملــة، أو بالأحــرى العاملــة فــي الشــأن المنزلــي، ســاذجة، حتمــاً ســتحول ســذاجتها إلــى شــرّ فــي التنقيــب عــن

خطط جهنمية للإمساك بزمام المبادرة، فلديها وقت كافٍ للتفكير بما لا يفكّر به زوجها العامل، ولا ضير من ذلك، إذا ما كان فراغ ما بعد إعداد الطعام، أو ما بعد الجلي والغسيل يسمح بتفرغها لمفاجأة الرجل بعد عودته من سعيه اليومي، بتفاصيل صغيرة، أقلّ ما يمكن أن يُقال عنها إنها سخيفة، إذا ما وزّعناها وفرقناها واحدة فواحدة. لكنها تغدو مشكلة عظيمة إذا ما اجتمعت أمور البيت كله، فتصير هي (أي صغائر أمور البيت) هو، وهو هي في أيدي من لا أفق لتفكيرها أبعد من جلي الصحون.

حكمة ميكيافيلية
لا إخلاص في السياسة

الإخلاص في السياسة أبعد ما يكون عن السياسة، فكن حذراً، ولا تأمن لأتباعك، إذا ما كانت قوانين اللعبة هذه، لاتزال سارية المفعول.

مشهد من مسرحية طويلة ــ لا تنتهي

في المرّة الأولى:

الأب: ألم تتعهد أمامي بتنفيذ ما اتفقنا عليه في المرة الماضية، لماذا خالفت، فأتيت في ساعة متأخرة من الليل؟

الابن: (مبرراً تأخره بخجل) سرقني وقت سهرتي، ولم أحتسب

المـدّة، إلا بعـد انقضـاء سـاعتين علـى الموعـد، فأرجـو المعـذرة علـى مـا لـن يتكـرر.

في المرة الثانية:

الأب: (يصرخ بصوت عالٍ)، لماذا هذا الاستهتار، ألم تقل لي في المرة الماضية إنك ستفي بمتوجبات تعهداتك ـ احترامك لكلامي. أَمن ابن يوقّر أباه، يكرّر الخطأ نفسه؟

الابن: (بتودّد) لم يحدث شيء يستدعي توبيخي بهذه الطريقة، وتأخري أنا ليس موجهاً ضدّك، ولا يستهدف التقليل من احترامك أنت؛ فلم أعد صغيراً لكي تعاملني كما لو أنني قاصر وغير مؤهل لحماية نفسي بنفسي، في المرة المقبلة سأعلمكم إذا ما وددت التأخر.

في المرة الثالثة:

الأب: (بغضب مفرط) ليتني أنجبت كلباً، لربما كان أوفى من ولد عاق يعصى أبيه، لم أعد أحتمل صبينتك، وسقف بيتي لا يأوي من يعصى أوامري، هل فهمت يا......

الابن: (بغضب موازٍ) أنا حرّ، ولا أحد يملي عليَّ ما سأفعله. ويخرج مطروداً، أو طارداً نفسه من تحت وصاية، طالما تظلل بها منذ ولادته، ليغدو رجلاً مستقلاً برأيه، بعد أن تمرّد على حضور أبيه، ليؤكد حضوره هو. عندها يصبح مستقلاً في اعتماده على نفسه، فيتزوج، وينجب ليمارس أبوّة أبيه مع شيء من التعديل المفروض بقوّة المتغيرات الاجتماعية في ظروف الأبوّة، وهكذا تستمر المسرحية فصولاً متتالية.

استغراق المفكّر ليس اجتماعياً

تتأتى عظمة المفكرين الكبار من استغراقهم في التفكير بما لا يقدر أن يفكّر به المهموم بمرض ولده؛ أو المنهمك بتأمين حاجات بيته الزوجي.

فالإبداع يستلزم تفرغاً كاملاً، كيلا يتعكّر صفو التفكير بالأمور الكامنة في مسطح مغاير عن مساحة حياتنا الاجتماعية تلك الممتلئة بواجبات كافية لاستنفاد وقت، يعتصره المفكّر بالتركيز على ما يجعله كائناً غريباً عن مجتمعه، أو كائناً غير اجتماعي.

وإذا ما تزوّج المبدع ـ المفكّر، لا بدّ من أن يكون في زواجه خطب ما.

صلة الرحم وحدها لا تكفي

يحل الشقاق والفرقة بين الأخوة، حينما يتحللون من روابط الأسرة الواحدة، فيتفرقون عن بعضهم، ويستحيلون أفراداً، خلال سعيهم إلى بناء ما بناه آباؤهم من قبل.

إنه منطق طبيعي يسري على الكائنات كافة، بغية التناسل والتكاثر، وأيضاً لحفظ النوع؟ فكيف إذاً، بالإنسان الذي يدرك غريزة التناسل بعقله؟

فلعلاقة الأخ بأخيه روابط منبثّة في عاطفة الوالدين حيال أبنائهم، كما أن للمشاركة المتمثلة بالمعايشة اليومية دوراً في تعزيز العلاقة المتماسكة على النحو الذي يستجديه الأهل من أسرهم. فتُصان العائلة بسياج من العواطف الجيّاشة، كيلا يستسهل الأخ الخروج على مبدأ الأخوة، هذا الذي يعيق استقلالية الفرد التوّاق إلى تحقيق أناه بأناه، لا بأخيه. مع أن ثمة من تفتقر قدراته إلى العيش وحده، إلّا أن سعي الغالبية يتجه إلى ما يؤكد حبّ البقاء، وحب الظهور، وحب التملك في غريزة الأنا تلك الأقوى بكثير من قيمنا الأسرية، ومفاهيمنا التربوية التي زودتنا بها أمهاتنا بالرضاعة من ثدي واحدٍ، ومن رحم وحيد.

والجدير ذكره في هذا الصدد، هو أن للعاطفة تلك أثراً ليس واحداً، فتَخْفُت عند هذا الأخ، وتتوهج عند ذاك، بسبب فرادة التكوين الفيزيولوجي والسوسيولوجي لكل منا، إذ يستحيل أن تتوازى الممانعة أو القبول، في أطباع الأسرة الواحدة، لكن رغم ذلك، يبقى أن نشير إلى ما ينجم عن التحولات السوسيولوجية في الأسرة من مشكلات سيكولوجية موجودة في المجتمعات الأبوية بقوة لا تُضاهى مع ما هو موجود في المجتمعات المدنية؛ فالانفصام السيكولوجي بين ما تربينا عليه من قيم ومفاهيم أسرية، وما صيّرته استقلاليتنا الفردية بعد الزواج، ليست هي نفسها مشكلة الأسر المدنية في الغرب التي تعاني قيمها من علّة عدم انتماء الفرد في الاصل إلى الجماعة أو العائلة.

«الهروب إلى الأمام»

عندما يواجه المرء نقداً لاذعاً على ما تسببه سلوكه من مشكلة بحق أحدهم، يجد نفسه متورطاً في ما لم يحتسب تجنّبه؛ عندها يخرج عن طور هدوئه، غاضباً من نفسه على ما كان قد ارتكبه بالهروب إلى الأمام، وذلك كي يهرب من اتهام الآخرين له، إنها لحظة انفصام يعيشها المرء، ولأوقات قصيرة جداً.

مفارقة تربوية

يجري تقويم التصرفات الأخلاقية عندنا، أي في المجتمعات التي تعيش أصعب لحظات الولادة العسيرة في سياق تحول حضاري لم يُنجز بعد، بعقل مُدمى بالذي كان ولم يعد صالحاً، والذي صار فلم يُقبل صلاحه.

لذا، تُعاني الأجيال الصاعدة من انفصام يتملك عقل الأوصياء ـ الآباء الفرحين من نجاح أبنائهم في تحصيل العلم الذي يؤدي في المقابل إلى نقمة الآباء على ما يرتكبه الأبناء.

فالأساليب التربوية الحديثة تروم إلى إحداث فجوة كبيرة لاختراق العقول اللينة ـ المطواعة عند طلاب الثانويات والجامعات تلك التي تستجيب إلى ما لا يستجيب له عقل الآباء المتحجّر، فنراهم يكافئون

أولادهم على نباهتهم العلمية، ويعاقبونهم إذا ما ارتكبوا معصية ناجمة عن طبيعة اقتران العلم النظري بالتطبيق.

ولعلاج هذه المعضلة البنيوية، ثمة سبيلان فقط، فإما أن نُخضِع الآباء إلى ما يتعلمه ويعيشه الأبناء. وإما أن نستصدر قانوناً صارماً لحماية الأبناء القاصرين، من حب آبائهم لأنفسهم...

إنسانية الحكم القضائي

قُضاة المحاكم الذين يحكمون بالعدل والقسطاس، ليسوا آلهة لكي لا يتأثروا بهندام ـ شكل ـ نظرات ـ أو هيئة المتهم،أكثر من تأثرهم برأي هيئة المحلفين.

ما يستجديه الرجل من المرأة والعكس

الرجال المميزون، كما النساء اللواتي يتميزن بنعمة خلقهن أنصاف رجال، فجمالهن الأخاذ، يغدو باهتاً، ما لم يتغلّفن بنزعات ذكورية، تضفي حتماً على نعومة المرأة قوّة الرجل الذي يستحيل غليظاً ما لم تستبطن ملامحه القاسية هو أيضاً دموعها ـ رقتها وضعفها هذا الذي يعكس واقع الضعف في إنسانية الرجل الجبّار.

فالمـرأة التـي تفتضـح سـرّ معانـدة الرجـل، وعلّـة إصـراره علـى التخفّـي

فـي زيّـه الذكـوري، تفـرح لبكائـه، لكـي تهجـره، أمـا الرجـل الـذي يغضـب مـن عنادهـا، يبهـره ثباتهـا، فيتعلـق بهـا أكثـر فأكثـر.

التحول والتبدّل انفعال بـــــ...

في حالة من الحالات، تغضب مما لا يغضبك الشيء نفسه في حالة أخرى، وترغب بما لا ترغب به في وقت آخر، كما تكره الحديث إلى الشخص الذي كنت البارحة فرحاً في محادثته، وأيضاً قد تثير شهوتك الفتاة نفسها تلك التي اشمأزت نفسك منها قبل شرب كأس «الويسكي»، كما تنفعل بالموسيقى التي لم تثر أحاسيسك قبل سماعها مع من تحب، وأيضاً يتحول اخضرار الطبيعة إلى اسوداد في الحسرة على فقدان قريب، وتشاهد في مَنْ كنت تحب شيئاً مغايراً عما رأيته حينما يخفت لهيب الحب.

فهذا كله يعني، أنك لست شخصاً واحداً، إنما تتكاثر وتتغاير لقابليتك على الانفعال بغيرية مختلفة، يمثلها شخصك، ليترجمها كثرة لا تُحصى.

صدق المُخبِر من وقاره

علـى مذيعـي الأخبـار السياسـية فـي التلفزيونـات، أن يتخـذوا هيئـة صاحـب الخبـر، كمـا عليهـم أن يشـحذوا ملامحهـم بجديـة ووقـار، لئـلا

تعتلي وجوههم بسمة مرح ـ فرح، وذلك، كيلا يتقلّل من جدية الخبر فيتشكّك بصدقه.

إذ إن مخاطبة الجمهور العريض في الأمور السياسية، يستلزم وقار رجل لا تهزّه مزحة، ولا تزيحه سخرية، فيشع من عينيه بريق عزم وحزم، لكي لا نحسب أن من فيه هذا الثبات، قد يساوم أو يقامر، ويتنازل أو يتواطؤ على شأننا لحماية شأنه. فالسياسة بهذا المعنى، تحتاج إذاً، إلى أكثر من فن التمثيل، تحتاج إلى مَنْ جَبَلته موهبة لباس الدور، ليتعجن به فيصبح هو الدور والدور هو.

وهنا، لا ضير من أن يضحك قليلاً مقدم الأخبار الرياضية، وكثيراً مقدم أخبار الأحوال الجوية (الطقس).

مجتمع منغلق

بين أن تُحافظ على ما تعهدت به من التزام أخلاقي حيال المجتمع من جهة، وأن تحافظ على حقيقتك المتجذرة، أو بالأحرى المتلبسة جسدك المحتقن بممنوعات المجتمع، مِنْ جهة ثانية، ثمة سبيل آخر للتنفيس، عبر التحايل على ما يحفظ تعهدك، فترتكب ما لا تظهر فواحشه إلى العلن، هذا هو السبيل الأمثل لئلا تنفجر.

هكذا تعيش المجتمعات المنغلقة بتقاليدها.

ما لا يُـخْـتَـبَـر صدقه

حجّة «باسكال» في رهانه الشهير، ليست للمحاججة، إنها من النوع الذي يُسمع ولا يُناقش، فليست كرهان المقامرة التي تنفرج نتيجته إما على ربح عيني، أو على خسارة كل شيء.

فالرهان على ما بعد الموت، يحتمل كل ما لا يمكن دحضه، إنه عصيّ على الاختبار؛ لهذا كانت قوة نظريته مستمدة من تعليق النتيجة أو الحكم إلى ما بعد الموت...!

فرويد يحاكي غريزة قطعان الماعز غريزة للقطعان البشرية

حينما تكتفي الماعز من فحولها، تتحول طاقة الذكور (الليبيدو) إلى قرونها، فتجدهم يتبارزون ويتناطحون على ما يجعل من فحولتهم تُفرّغ في عرض قوّة، لاستمالة الإناث في موسم إخصابهن.

أمن هذا استقرأ فرويد الغريزة الجنسية للقطعان البشرية بالقياس إلى مراقبة ماهيتها في قطعان الماعز؟ أو بالعكس؟

لسنا في معرض تأكيد فرضيته الشهيرة (الإنسان كائن جنسي)، ولا نجزم بأحقيتها المطلقة، ما دامت المسألة معلقة، ريثما يتأكد لنا ما قاله أرسطو من أن «الإنسان حيوان ناطق». إلا أن في المسألة وجه

حـق، يُرجِّـح نظريـة فرويـد هـذه، إذا مـا تمعنّـا فـي الأسـباب الخفيـة لتمـادي جـرأة الرجـال واستبسـالهم البطولـي فـي المعـارك التـي تحصـل علـى مـرأى مـن الإنـاث.

دور المرأة في بناء الحضارات

انكفأت ألمانيا وتراجعت عن غرورها، بعدما زجّت برجالاتها في أتون حرب عالمية أولى، فثانية، ولم تنتصر... فكان لهزيمتها وقع سيء على جبروتها، وأثر حسن على ما اضطرت النساء في ألمانيا لفعله من أجل تعبئة فراغ رجالهن الذين قضوا في الحرب، فرموا إلى التعويض عن خسارتهن بالمواظبة على تنفيذ المهام الموكلة كانت إلى الرجال، بجلادة وصمت لا مثيل لهما.

ذلك، أن الإناث أكثر انضباطاً من الذكور، وطموحهن لا يرتقي إلى مستوى صراع الرجال على ما يجعل من الأوطان ساحة تنابذ وتنافس دائم، لهذا ربما، كان لصبرهنّ دور رئيس في إعمار ما هدمته الرؤوس الحامية لأمراء الحرب، لا في ألمانيا فحسب، بل في أوروبا كلها. فالنسوة اجتهدن لإعادة إعمار أوروبا وتقدمها.

أمن استفسار ههنا عن علّة تخلّفنا في العالم العربي؟؟!

الدهشة تجدّد العشق

نتساءل عن علّة إعجاب معظم الفتيات بالشباب الأكثر بعداً عن محيطهن الاجتماعي، والشباب أيضاً، من دون أن يلفتنا ما ينبذه البشر من تكرار ممل فيما يعرفونه ويعيشونه، وما يتوق إلى استكشافه المرء، فيما لا يعرفه عند الآخر المجهول.

فالإنسان يستهوي لعبة الخبايا، وتجذبه إغواءات الغرابة تلك المتمثلة بشخص يتكلم لغة مختلفة عن لغته، أو شخص يحيا وفق نمط اجتماعي مغاير عن تقاليده وقيمه، أضف إلى أنه يستنفد صحبة من يعيش ضمن نطاقه، فيخرج منه، بالتمرد على ما اعتاد العيش فيه ومعه.

فالتابو بين الأخ وأخته ليس بعيداً عن منطق انكشاف كل ما عند الأخ أمام أخته، والأخت أيضاً.

لهذا كانت، الغرابة ـ الدهشة ـ المفاجئة مطلباً ضرورياً لتجديد علاقة العاشقين، وقد تنتهي علاقتهما، ما لم ينتبه العشاق إلى علّة عشقهما.

الرغبة المفرطة قد تؤدي إلى الانفصام

يحوّق الخائبون أنفسهم باختلاق عالم مغاير عن عالمهم الحقيقي، بغية استعماله كمضاد حيوي للتداوي من علة إخفاقهم المرّ إلى ما كانوا يطمحون.

وهذا بمثابة تلطيف سيكولوجي لقساوة الحياة وبشاعتها عند من لم يتصالح مع عذاباتها، فشرع في تغيير حياته وتبديلها باختلاق رغبات طموحة ولذيذة في خياله، لا في الواقع، بعدما ضاق ذرعاً بالوعود الأخروية، فلم يعد باستطاعته انتظار، أو بالأحرى، تصديق حياة ما بعد حياته.

لكن المشكلة، تكمن في تكرار اختلاقاته الخيالية، تلك التي قد تجعله منفصم الشخصية، ما لم نذكّره دوماً بأنه يكذب، إنه أفضل دواء لعلاج مرضى هذا النوع.

تنوع القدرات

النظريات السيكولوجية التي ردّت اختلاف البشر إلى الظروف الحياتية المحيطة بشخصية الأفراد، أو تلك التي عزت التنوع في أطباع البشر إلى عوامل خارجية، أي إلى خارج نطاق التكوين الفيزيولوجي للذات، بالغت في إقصاء ما لا يمكن إقصاؤه من قابليات متعددة بتعدد تركيبة الأفراد الجسمانية، وتكوينهم العقلي، إذ لا تتوافر الملكات الذهنية عند هذا، كما عند ذاك، والقوة البدنية عند فلان، ليست هي نفسها عند علان، وحيوية التفكّر الفلسفي في هذا الشخص، ليست من تدرّبه على الغوص في المسائل المعقدة، فقط، ولا ديناميكية الحركة الجسدية لهذا المدير، هي من رغبته في العمل الإداري بالمطلق.

فالمسألة مرتبطة بقابلية كل منا على اختيار ما تهيأ له، فرغب به، وإذا ما اقترنت القابلية بالرغبة، يُبدع الفرد ويبرع في مجاله، فمن تهيأ جسده للقيام بأعمال بدنية، ورغب بفنّ الخطابة سيفشل، ومن لا يرغب بالصمت وليس لديه قدرة على التأمل، يجب أن لا يغشّنا سكوته، لأن صمته لن يجعله مفكراً.

على هذا، فالخطأ في اشتراكية الاتحاد السوفياتي في إنها تبنّت نظرية هؤلاء السيكولوجيين، ليس إلّا.

المؤمن وشيطان الجسد

يوجِّه المؤمن نقمته إلى جسده، فيمتنع عن تلبية رغبات بدنه بكونها رجساً شيطانياً، وجب اجتنابه.

في حين يتوق بإيمانه إلى الارتقاء والسمو الروحي، ليغدو ملاكاً وهو ليس كذلك على الأرض، عندها ينشطر همّه إرضاءً للملائكة، وإقصاءً لشياطينه، ولأن المسألة أقوى من إرادتنا على إتمام الموازنة بالدقة التي تفرضها التشريعات الدينية، سيجنح المؤمن، إما إلى أن يتلبس جسده الشيطاني ثوباً ملائكياً، وإما أن يبتعد عن الشيطان فيه، بانطوائه على نفسه، لكي لا يتنجس وجوده الملائكي بوجودنا الشيطاني.

شكراً للعولمة

إزاء الإعلانات المنتشرة على الطرقات وفي الصالات العامة، والمقاهي وعلى السيارات الخاصة، إلخ...، نسي صانعو الإعلانات، مكاناً جديراً بلصق إعلاناتهم، لما له من أهمية في إثارة انتباه الجالسين للتبول في الحمامات العامّة.

وليس من باب السخرية القول، إن لصق الإعلان من على داخل الأبواب المغلقة، أو على من يستغرق في قعوده للتغوط تركيزاً، يحتاجه مروّجو الإعلان، لسرقة جزءٍ منه، وتحويله إلى ما ترغب الشركات بترويجه، إنها مسألة سيكولوجية بامتياز.

فالعولمة لم تترك لنا مجالاً آخر، غير أماكن التبوّل من دون دعاية لسلع شركاتها المجيدة، فتوجب علينا هنا شكرها على هذه المساحة المتبقية للتفكير بحياتنا كلها!

أزلام حزبيون

لست ناقماً على الحكم السوفياتي بالمطلق، ولا نقدي لاشتراكيته، يعني رفض الخيار الاشتراكي ومعاداته بالكامل، إلا أن ثمة ملاحظات جوهرية، يجب أن نعرضها لتصويب الخلل البنيوي في أية تجربة اشتراكية محتملة، عند أصحاب الرأي اليساري، ممن يعاني

اليوم، مرارة الفحش الرأسمالي، من دون أن يكون لديه تصور متكامل عن بدائل متوخاة في اشتراكية معدّلة.

وإذا ما أردنا أن نعتبر من الماضي، علينا الحذر من العلّة التي باشرت في مراكمة العلل «المتفرِّخة» من المبدأ القائل، أن لا فرق بين إنسان وآخر، لا في الإمكانات العقلية ولا في الملكات الذهنية، فالناس سواسية، وعليه، لا تمييز في الكفاءات، ولا تصنيف للقدرات، ما دام الحزب الشيوعي في الطليعة هو معيار كل شيء، فوجب الإخلاص لمبدئه هذا الذي جرى تأويله بسهولة من قبل طبقة حزبية أخلّت بعدل وإنصاف المبدأ الحزبي نفسه، وذلك من خلال تعيين أزلام ومحاسيب في مراكز مسؤولة على من يفوقهم علماً.

فالمخلصون لمبدأ الاشتراكية الحقّة، لا يبيعون أنفسهم، ولا يستعطون أربابهم؛ فقط أصحاب النفوس الرخيصة، والجهال الأميّون، ممن لا يمتلك ما يخسره، هم من يستجدي الوصول إلى ما أوصل بعض الحزبيين لأن يتبوأوا مناصب حساسة، أدت إلى ما أدت إليه اشتراكية السوفيات، وكان التبرير الأيديولوجي لهذه العلل مُضحكاً، مع أنه ينطلي على القطعان الجاهلة، غير أنها طامحة وراغبة في أن يغدو أيّ من أفرادها رئيساً لماركس.

وبالفعل، كان يُدل على بعض المناصب الرفيعة للحزبيين الأميّين، على أنها تأكيد لمبدأ ماركسي مشكوك بأمره، إذ لا يمكن أن يقتدر أي إنسان على إدارة شأن العقول المتعلمة، من دون أن يفوقهم

علماً، كأن يُقال، انظروا إلى كفاءة هذا الرفيق في إدارة شأن الجموع، مع أنه لا يفقه، لا القراءة، ولا الكتابة.

أنا مفرطة في العشق!!

تركّزت بعض التحليلات السيكولوجية في موضوع العشق، على ما يجعلنا نفهم أن العاشق يمتلك فائضاً من الغيرية لكي يُحب، فيقترن بغير نفسه؛ بينما لا يعشق من ينفرد بأناه، حباً لأناه؛ فحسبُ الأنا عند من لا يعشق انها طاغية إلى الحدّ الذي يمنعه من أن ينشطر همه إلى ما عداه.

لكن، ماذا لو كانت أنا العاشق مفرطة، بما لا يقاس مع من لا يعشق أبداً؟ لاسيما وأن هذا الأخير، منفرد بهمّه متوحّد بغمّه، يوجّه اهتمامه إلى ما لا يؤذي الغير، فلا ينوي امتلاكاً، ولا يلوذ إلى تكدير حياة الآخرين، فهو أكثر تفكيراً واهتماماً بشأن الغير ممن اختزل العالم في المعشوق، فأفلت نفسه من نفسه، سعياً للاستحواذ على كيان المعشوق، ليمتلك العالم كله.

فالأنا أقوى إذاً، عند من يسعى بعشقه لامتلاك الآخر، لإنجاب أطفال له، يسلّونه في حياته، ويعزّونه في مماته، هوذا الذي يرفض فردانيته ووحدته، فيملي على الشريك شراكة المصير، وعلى أولاده بؤس الوجود.

النفاذ إلى الحلول

عندما تجد نفسك أمام سدود مُحبِطَة، بعدما استَنْفَدَتْ تجاربك كل الخيارات المحتملة، فغيَّرت وبدَّلت في تفاصيل الوجهة المعتمدة، ولم تنجح في النفاذ إلى حلّ، خُذ وقت راحة، قبل أن تنتقل إلى مسطح آخر جديد ومغاير كلياً، علّ فيه ما تبحث عنه.

فهذا ينطبق على التجارب المخبرية، وفيه شيء من علم السياسة أيضاً.

كبح النفوس الضعيفة

من أجل درء الأخطار المحدقة بالنفوس المتسامحة، يجب أن تتزيّن بالسلاح، لئلا تواجه نزق من لا يفقه لغة الحوار، سبيلاً للتواصل.

فالجبان يستغفل من لا يشهر قوته بين فينة وأخرى، وقد يقدم على افتعال تعدٍّ، لتكريس قوته الفضفاضة تلك التي يعتمدها وسيلة لفرض شروطه المُذلّة على من يهابه، فإن خضعت في البدء، تتكاثر شروطه، وقد لا تقف عند حدّ، إلى أن تقف أنت وقفة شجاع، لا يروم إلى التفكير باحتمالات خسارة ما لا يخسره الجبان، مع أن ثمن كبحه في المرة الأولى، أقل من ثمن لجمه بعد أن تمرّس في نشلك، واعتاد على خنوعك، حتى إذا ما فاجأته بصلابة غير معهودة، ستستفزّ القوة التي صنعتها أنت فيه، عندها سيرمي إليك ببالون لاختبار مدى

صلابتك التي فيما لو أظهرتها منذ البداية، ستحثه على أن يتصالح مع ضعفه هو، لا ضعفك أنت.

فلا تخف من أمثال هؤلاء، ولا تجزع من «هوبراتهم»، وأمن جانب من أخفى قوته، أو سلاحه لأن إشهاره إذا ما تمّ، سيكون لمرة واحدة، وواحدة فقط.

جرح سيكولوجي

تقع المشكلة، فيحصل العراك، هجوم متحفظ من هذا، ودفاع هجومي من ذاك، إلى أن يسيل الدم من جسد أحدهما، ساعتئذٍ، يخرج المدمى من نطاق التحفّظ والحرص، ويندفع غضباً، لا من «ألم» جرحه، إنما لفقدانه ما حرص عليه.

فإراقة الدم، تعمي بصيرة الجريح وتحثّه غريزة الجرح على الثأر من مسببه، بقوة قد لا تحمد عقباها؛ فإذا كان هذا كذلك، فكيف بالذي تقطر نفسه دماً من جرح سيكولوجي تسببته سكاكين أحكامنا ونعوتنا بحق من لا تنطبق عليه النعوت، أو الصفات السيئة تلك؟؟

ندوب المجتمع من فبركاته

تتكشّف الأحجية الأخلاقية تلك التي تتسم قيمها وقوانينها بطابع حضاري، كما لو أنها مُنْجَز عقلي تام أو مُنْزَل ديني مطلق، لتظهر ماهية

حالة الإنسان، كحالة اختبار صعب لبراءة الأصل في النوع البشري، عندها، نتبين كل ما تفبرك في الأخلاق عبر تاريخ من الممنوعات والمسموحات التي خلقت فينا تشوّهات بنيوية، فغدا وجودنا عبارة عن ندوب لصراع الأجيال، أو بالأحرى صراع القيم.

إلى من آثر موت الاسم ليحيا الفعل

الأمثال الشعبية، كما الأقوال المأثورة، لم يقلها داعية معروف، ولا مدعي فلسفة مشهور، فضاع اسم صاحبها في خضم «القيل والقال»، وفي مهب المنقول من...، إلى...، ولأن فيها من الحكمة ما يكفي للبحث عن العقل الذي انقدحت شرارة قريحته، أو بالأحرى، فطرته الفلسفية حينما أطلقها. لم يتوانَ الكثيرون عن التفتيش عن إبرة قائلها في قش التواريخ والأسماء المنسية، إلى أن يخرج من يدعي أنه هو من هُدِرَ حقَّه، فوجب إنصافه، ولأننا نحتاج دوماً إلى نسب لمالك أو صاحب الأفعال والأقوال نهديه فدية الكثيرين، ممن آثروا موت الاسم ليحيا الفعل.

نخبوية فهم الفلسفة

تضفي المعرفة الفلسفية، كمعرفة ما قاله فيورباخ مثلاً، أو كركيغارد، أو كانط أو أرسطو إلخ... وقاراً ثقافياً يُبهر صنّاع الثقافة

الصحفية، قبل قرائها، ولأن سوق الثقافة صار بازاراً للبيع الرخيص والاستهلاك الأرخص، فاعتبارات التسويق الفلسفي، فَرَضَت على المُنتجين، انتقاء أقل الأشخاص إلماماً بها، وأكثرهم قدرة على إخراج الفكرة الفلسفية من مكمنها الصعب، حتى لا نقول من سياقها المعقّد، لكي تصير مُستساغة المذاق، لا بترياق فيلسوفها، بل بمضغ القراء لها وفهمهم هم لأقاويله. على هذه الشاكلة فهم الشيوعيون ماركس، وعلى هذا المنوال يعرفنا بعضهم إلى فلسفة كانط وهيغل.

الفلسفة تجربة محصنة بالمعرفة

الفلسفة ليست نظيفة، ولا «فطاحلتها» كانوا منكبّين على تحصيلها فقط بالقراءة، حتى وإن كان شرط ولوجها يملي عليك التزوّد بعلمها من خلال التنصّت إلى ما يخبرك، أو يعلّمك إياه بدايةً، أستاذ الفلسفة، وما تقرأه في كتبها، قبل أن تقيس ما خبرته في حياتك أنت، على ما علمته عن حياتهم، أو على رأيهم - تفسيرهم هم لحياتك.

فالفلسفة لا تخرج من بطن الكتب، رغم ما يحتويه الكتاب من معطيات قيّمة، تشكل أولوية للخوض في المعترك الفلسفي، بل أنها تولد من رحم معاناتك التي إذا ما اقترنت بزاد معرفتك الأكاديمية عنهم وعن نظرياتهم، ستنضم إلى قافلة صنّاع الفلسفة، لا مُروجيها.

فكم من أستاذ عرف عنها أكثر مما عرفه دريدا، ولم يصبح فيلسوفاً؟

وما أكثر أصحاب الذاكرات المحشوة بمعلوماتها، من دون أن تجعلهم معطياتها، فلاسفة.

مقترح أفلاطوني لامتحان أرسطي

أكاديمية أفلاطون ليست كجمهوريته، إذ نجحت في وضع أسس واقعية واضحة لتصنيف الملكات الذهنية، عن القدرات البدنية، انطلاقاً من معايير، أجادت في حسم اللغط الحاصل عندنا اليوم، بلبلة بين الجاهل والأمي، بين المثقفين الحقيقيين وأنصاف المثقفين، بين الفيلسوف ومدعي الفلسفة. رغم أن الارتقاء إلى مرتبة صف الفلسفة، كان يحتاج في رأينا، إلى امتحان أكثر صرامة لغربلة هذا عن ذاك، فالكفوء في حل المشكلات الرياضية لا يمكن أن يتأهّل بالضرورة للخوض في الإشكالات الفلسفية، فالدقّة في اختيار المؤهلين لهذا المضمار الصعب، تملي اختباراً صارماً لقوة حدسهم وصبر تأملهم، أولاً وأخيراً.

إزالة الفبركات التاريخية مهمة فلسفية بامتياز

إن الاستقراء الفلسفي في القضايا «الماورائية» و«المأمامية»، الدينية والدنيوية، يستلزم «لمعة سكّير»، وذلك لنبش المطمور من تحت ركام الأحجية الحاجبة في دفائنها، رؤية (الحقيقة)؛ ومع أن

جدية القراءة المجتهدة هي شرط ضروري، لكنها وحدها ليست كافية لالتقاط لغز ابتعادنا عما هو قريب منا، عما هو فينا.

فالفلسفة المعاصرة تروم إعادة تذكير المعاصرين بالذي أنستهم إياه فبركات البناء الفلسفي والديني، تلك التي تلبستنا على مرّ العصور، فأخفت ما حسبه الأقدمون وحسبناه، أو صدّقناه نحن كعورات يجب طمسها، مع أن لها من قوة الحضور، ما جعل الفلسفة تحيا في البحث عن العلّة التي دفعتنا إلى أن نجعل مما هو فينا ليس إلّا عورات للتخبئة.

موت الأثرياء عزاء للفقراء

الفقير المُعدم يتفكّر أحياناً كثيرة بوضعية الأثرياء المالكين والقابضين على ما يعوز منه الشيء القليل لكي يكتفي، فيتركّز همّه اليومي على السعي لتحصيل ما يسدّ رَمَق العيش، هكذا يصير مستلباً في حياته إلى ما يتوافر لدى الأغنياء من حياة مترفة بسهولة تأمينهم لما لا يقدر على تأمينه. أو هكذا يحسب تحدياتها من تحدياته؛ وينسى أن فقره هو غنًى بالقياس إلى من هو أحوج منه، وغنى هذا، فقر بالقياس إلى من هو أثرى منه، حتى أثرى الأثرياء فقير بالقياس إلى ما يستجديه هو بالذات من امتلاء مستحيل، تماماً مثلما يشعر الحاكم المستبد بنقصانه أمام عظمة غوته والمتنبي، وإذا ما برع هوذا في المجالات كافة، ستنتابه حسرة على ما لم يعشه أيام الفراعنة، وإن كان هو فرعوناً سيشعر بالخيبة على ما لن يشهده بعد موته.

بالرغم من ذلك، يعزّي الفقير نفسه بوشوشة حاله، بأن ليس للثري حيوات كثيرة، إنها واحدة، سيموت مثلي رغم ثرائه.

خيبة مابعد التحقّق

يعقب كل إفراغ، إحباط ناجم، لا عن خسارة ما كنا نمتلكه، إنما لفقداننا غبطة الاستحواذ على ما ظننا بعد إفراغه لذّة لم تدم، وفرحة لم نعشها، فخلت أنفسنا بعدها من مزاحمات التوقع لما أَسَرَّنا انتظاره... فأحزننا حصوله... هذا ما خبره الكُتّاب، وإذا أردت، نكاح المرأة أيضاً.

الإرث ثقيل رغم ما فيه من محاسن

برع الفلاسفة العرب القدماء، أيام ازدهار حضارتهم، في تقديم وصفات علاجية ناجعة لمجتمعهم بمنطق علمي، تشتمّ من سياقه رائحة صنع الدواء في عقل الرازي، والشفاء في فكر ابن سينا، والطب في قريحة ابن رشد.

لقد استفاد هؤلاء من منشغلات علمهم التطبيقي علماً نظرياً، لم يرتقِ إلى مستوى علمنا، لأسباب طبيعية تتعلق بتأخرهم الزمني عنّا وهنا يجب ألا ننسى العلّة البنيوية تلك الكامنة في تأثير السابقين على اللاحقين.

هكذا كانت منجزات الإرث الإغريقي ثقيلة في هيمنتها الفلسفية تلك التي ما زالت تُحلِّق بجناحيها الأفلاطوني والأرسطي، لا في فضائهم هُمّ، بل حتى فوق رؤوسنا نحن المعاصرين.

في النقد كبرياء وثقة

العديد ممن يجيدون التحليل، ويمتلكون قدرة على نقد الأسماء الكبيرة في الفلسفة، يحتجزهم الخوف من هالة شهرتهم، فيُحجِمون عن إبداء رأيهم بجرأة الندّ لهم.

هكذا، يقبع الكثير من أساتذة الفلسفة في زنزانات معلميهم أو ملهميهم، فيستحيلون أسرى لطفٍ غير مبرّر إزاء مَنْ يجب نقدهم، حتى أنهم ينهالون بسوط التأنيب على كل من يطاول نقده عظمتهم، مع أن عظمتهم مستمدة لا من ذات أعمالهم، إنما من خجل ضعفاء النفوس وحيائهم السلبي حيالهم، ليس إلا.

فالنقد يستلزم كبرياء وثقة مفرطة، وإذا اضطررت، مكابرة وعناداً للدفاع حتى عن الخطأ.

ومن قال: إن أفلاطون صار أفلاطوناً، ما لم يتجرأ على نقد من هو أعلم منه، ومن قال أيضاً: إن ماركس كان أعرف من هيغل، حينما تطاول على جدله.

فن مخاطبة خفايا النفس

السذّج من الواقعيين، يسخرون من فن الكلمات التي لا تتشيّأ في مرئيات العين ولمسات اليد، وكل ما لا تمثله منطوقات الأحاسيس الخمسة، فنجد لديهم نزوعاً إلى نقض الخيالات التي تعتمر باطن أفكارنا، باعتبارها وهماً، أو شطحات خيالية تروم إزاحتنا عن قوام الدرب.

فاستحالت فنونهم، (إن وجد فنّ عند من لا يحاكي دفائن النفس البشرية) «مُخشَّبة» لما في الخشب من عناصر يتذوق مادتها الحيوان، لا الإنسان الذي يتمثّل بصور مستوحاة من العلاقة التي تجعل من كينونة الأشياء في ذاتها... تتكوّن في ذاتنا...

فالفن هو انفعال يجسّر بين ما وجد فينا، وما وجد خارجنا، إنه الصلة التي تعتريها مخاطر الانشطار، بين وعينا ولاوعينا، بين ما يدركونه هم في الشيء، وما ندركه نحن في الشيء نفسه. إنه مقاربة حدسية جامعة لمشاعر من يهوى سماع موسيقى الصمت، ومن يتلذذ بمشاهدة أمنياته في تكعيبات بيكاسو، ورغباته في شعر السيّاب.

أمن داعٍ للاستفسار بعد، عن أسباب شهرة السينما الهوليوودية في أميركا، (رغم تحفظاتنا على أهدافها التدجينية)، وليس في الاتحاد السوفياتي الذي يجعلني أتحفظ على أفعاله، لا نواياه؟!

إبراهيمية ماركس!

أثارت فلسفة ماركس زوبعة من النقاشات الحامية حول المقصد من دعوته إلى بناء أنموذج نظائمي بديل عن الرأسمالية؛ فتعددت الآراء وتنوعت، حول ما إذا كانت اعتباراته «التكتيكية» هي التي أملت عليه مخاطبة الحسّ الديني للجماهير بعدل اشتراكي، موازٍ لعدل التراث الإبراهيمي في الأديان السماوية، أو أنه كان حقاً إبراهيمياً في نقضه للدين بإبراهيمية معكوسة، حينما وعد بما وعدت به الأديان على الأرض هذه المرة، لا في السماء.

إذ لا يمكن الإجابة هنا، عما لم يُجب هو عليه، ولا نستطيع أن نجزم بـ «نعم» أو «لا»، حتى إن تكفّلت التجربة بتبيان ما آلت إليه فلسفته، ولا يهمنا إن أُولت على نحو مغاير عما تقصده، أو أن تطبيقها صيَّر الوسيلة هدفاً، والتكتيك استراتيجية لما لا يبتغيه.

أنواع الشفقة

لم نفهم نوع الشفقة التي قد نشعر بها حيال الأطفال القاصرين، أهي الشفقة نفسها التي نسعى بها إلى التشفي من المُبغضين؟

مع أن نيتشه ومعه شوينهاور حسما الأمر، لناحية اعتبارهم الإنسان كائناً مشفوقاً عليه، إلا أنه بقي لغط حول كيفية تحول المشفوق

عليه إلى مُشْفِق على الآخرين، رغم ما خبرناه من سيكولوجيا التمثل اللاواعي بالنقيض.

إذ لا تزال مسألة الشفقة معلقة، ريثما يأتي من يفكك لغز الألم الناجم عن الشفقة على الضعفاء العاجزين، والفرح من الشفقة على الأقوياء المُتجبّرين.

خجل الريفي في المدينة يتيح له المراقبة أكثر!؟

يُصاب الريفي في المدينة في البداية، بالرهاب من جهله بالذي خبره أهلها، حتى إنه يخاف من علمهم بقوانين السير على الرصيف، وجرأتهم على كبس أزرار المصعد الكهربائي بتلقائية إلقائه التحية والسلام على أبناء ضيعته كلها، إلى أن تتكشف معاشرته لهم عن يقين آخر، فيجد أنهم ليسوا هم من وضع القوانين، ولا هم من صنع المصعد، بل ثمة من أتى مثله خائفاً، قبل أن يتحول خوفه ـ حذره ـ جزعه ـ مراقبته، إلى ما أمساه ماسكاً ومتحكماً بزمام الأمور كلها.

الهدم النيتشوي حثّ لإعادة بناء الأفضل

إنّ نيتشه فيلسوف الهدم والتقويض، ليس كالفلاسفة الذين بنوا عماراتهم الفكرية على أعمدة جاهزة، أو بالأحرى، على أسس جهّزها

لهم السابقون، وقد رمى هو إلى نقض الإعوجاج في أصل الحكاية...، حكاية التقدم والتطور، هذا المتمثل برصّ البناء الفلسفي من حجارة أفكارنا المتراكمة بعضها فوق بعض. ولكي لا تعلو العمارة أكثر فأكثر في بنائها القائم على أسس إغريقية عفى عليها الزمن، أعمل معول نقده هدماً لها بقساوة، من أجل تقويض شموخ إيماننا ببداهات ليست في حقيقتها على ما بدت عليه نهائية، تاركاً لنا المساحة فارغة... وممتلئة بأنقاض ما دمّره هو، علّ في ذلك، حث فلسفي لإعادة بناء معتقدات أفضل، لإنسان أحسن.

جبلة الإنسان الأعلى عند نيتشه من معدن آخر

بين المكتسب والفطري أو بين العوامل والظروف المجتمعة للتنشئة من جهة، وقابلية الذات على هضم العوامل تلك، من جهة ثانية، بقي شيء عالق، ألا وهو، علّة تمثّل هذا الشخص بالعوامل التيعلى نحو ما لم يتمثل بها شخص آخر، يخضع للعوامل نفسها.

لهذا، نرجّح فرضية نيتشه تلك التي لم يجنح فيها رأيه إلى التنظير الجاف، فكمن رأيه ـ تفسيره لها ـ في ما ساقه خلال نقده ونقضه لرأي كل من يعتقد أن للضعفاء باع الأقوياء، نقده لرأي كل من يظن أن موزار قد يكون هو نفسه هتلر، أو أن ڤان غوغ نفس مشاعر ستالين.

رغم أنه ختم تقويضاته بالدعوة إلى إعلاء شأن إنسانه الأعلى،

أو بالأحـرى، إلـى بنـاء إنسـان (هكـذا فهمـت)، أقـل تسـلطاً من اسـتبداد سـتالين وهتلـر، وأقـل إفراطـاً مـن حساسـية الفنانيـن المكتئبين.

إلى المدخنين جميعاً

إن سموم التدخين لهي ترياق المنفعلين، إما فرحاً من مكسب، أو حزناً على خسارة، أو مللاً من لا شيء، فالمدخن يشعل سيجارته كسلوان وحدة مع من يشاركهم الأفراح والأتراح، وإذا ما أردت يا أيها الزميل أن تقلع عنها، يجب ألا تتطهّر من نيكوتينها «بنيكو»... مشتريات مستحضر، أو دواء، يكفي التفكير بِهَمٍّ أقرانه، بِهَمٍّ توفير ثمن أمثاله، لكي تزداد شراهة للتدخين.

وهذا انفعال آخر نسيناه.

المرأة في الإعلان على ما يرغبه الرجل منهن؟

أجمل امرأة هي من تختلقها أنت، بالوضعية التي تناسبك، حتى إن كل نساء الإعلانات والدعايات يصرن جميلات، لاختطافهن ومضة من مخيلتك التي تعتمل بصورهن تشذيباً لاواعياً من قرف التبوّل والتغوّط المنسي بالضرورة، لحظة إعجاب الرجل بأيّ امرأة تتمظهر صورتها، بصورة رغبتك فيها، منقّحة من نزعتهن في الزنِّ على الأذن بعد الزواج.

الالتفاف الرمزي على الاستبداد تفلّت منه

جرى تفسير وجه من وجوه الإبداع الأدبي والفني، على أنه تعبير رمزي للالتفاف، ومن ثم التفلّت من قبضة الإحكام المفروض بقوة رقابة أجهزة السلطة على ما يمكن...، على ما يجب... أن يصرّح به الناس علانية، جراء امتعاضهم وتململهم من السياسات التعسفية لطبقة الحكّام. فكانت «كليلة ودمنة» آنذاك، أحسن وسيلة للتطرق إلى ما أخفاه البشر من أوجاع، تمّ استنطاقها على ألسنة الحيوانات، مثلما كانت منحوتات «مايكل أنجلو» ورسوماته هي السبيل المتاح للتمرد على الإملاءات الكنسية القامعة لكل فهم مغاير عمّا فهمه الإكليروس لعلّة الخلق.

وتطول قائمة الأمثلة على امتداد تاريخ من الاستبداد والمستبدين الذين استوطنوا يوماً هنا، ويوماً هناك، إلى أن بقيت الهيمنة على معظم أقطار العالم الثالث، مثالاً على إمبريالية المعنى الأوحد لمشتقات سلطة، رامت إلى تأبيد سيطرتها بإقصاء كل من يعارض فهمها هي لأمور السياسة، فكان الأدب عندهم وعندنا متنفساً أعان المنغصين بغصّة ويل الكلام وويل الكتمان، تعبيراً عن المضمر، وخوفاً من أمر القابضين على الإرادات؛ فصارت المواربة رواية كانت، أم شعراً، أم رسماً تتسم بجمال الاحتجاب، المكشوف أمام من يهوى لعبة الربط

بين المتعيِّن ومدلوله السيميائي، وصار وصف ما بين حروف الكلام، بمثابة دعوة للانقلاب والتمرد على واقع المتكلمين.

لهذا، قد تجد في المجتمعات الذكورية، النساء المحجّبات أكثر دهاءً في استبطان رغبتك، رغباتهن الممنوعة من الصرف والتصريف.

صورة المرأة المدخنة في عين رجل شرقي

يعتري صورة المرأة المدخّنة، تشوّه أنثوي، لما لهنّ في متخيلة الرجل من مُسبقات نمطية، لا تعكس كينونتهنّ، بل تعبّر عما استنشقه الذكور من رائحة أجسادهن المعطّرة، وهنّ صبايا، واسترضعه من حليبهن أو من عاطفتهن وهن أمهات.

إذ لا يستسيغ الرجال الذين هم أبناء في الأصل، تدخين النساء، باعتباره تعدّياً على ما ينهمّ به ويهتم له الرجل في أناه المستقلة عما عودتنا عليه أمهاتنا من غيرية، رامت إلى إذابة نفسها بهمّ رعاية أطفالها، فقط.

فكم واحد منّا يتصالح مع افتراض مشهد أُمّ تحتسي الكحول وهي تُرضع وليدها...،؟

وكم منا من يعتقد أن أمّه، أنثى أنجبته من لذّة ممارستها الجنس؟؟!!!

غموض الوضوح أم وضوح الغموض؟

ليس شعراً ما كتبته يوماً أن في غموض وضوحك ما يُمثِّل شيئاً من وضوح غموضي، فللوجهان عملة إنسان طبيعي، يضمر في هذا الأمر، ويفصح في ذاك. يخفي نواياه مخافة أن يفقد ما لا يرغب أو ما لا يريد خسارته، هنا، ويعلن عما فيها، بتردد الحائر من مغبة الاحتفاظ بما لا يريده، هناك.

وهذه حال الكثيرين، ممن يتوقون إلى أن يكونوا بالصورة التي لا يقدرون أن يكونوها. ..

انتفاع متبادل بين الكراز والقطعان

على السياسي المحنّك أن يبيع قوة أتباعه، لكي يشتري بها سلطة عليهم؛ فيتزعّم بسلطته حكماً سياسياً على من لا يرتضي مواقفه المنحازة، إلى فئة جاءت إليه، إما إيماناً به، وإما مصلحة لها، فقدمت الطاعة له، باعتباره الولي الصالح ـ الصادق في تنفيذ تعهداته الانتخابية تلك التي احتشدت في عمليتها أعداد غفيرة من أصوات القطعان السائرة بهدى جرس الكراز، الطاغي بصوت رنينه على أصوات الحذرين والمُحذِّرين من «مهوار» السير بهدى السمع، لا بهدى النظر إلى ما نمشي إليه.

فالديموقراطية العددية، هي جدل انتفاعي، يتبادله أصحاب المصلحة في الإبقاء على الأوضاع السائدة، والمشكلة فيّ أنها خيار جيد للذين لا يرون ما يراه أصحاب العقول المتمردة، للذين لا يدركون ما يسوقه أصحاب الشأن والمصلحة في أن يقودوا السمّاعين، وليس من يروم إلى النظر، والشمّ واللمس ليتأكد من أن ما يتذوّقه عسلاً، وليس بصلاً (والتعبير للتهذيب).

حكمة سياسية

تقتلع الرياح العاتية كل الأشجار المتشبثة بثبات جذورها، في حين تميل سنابل القمح برفق لتمرير العواصف، إلى أن تهدأ، فتستعيد استقامتها ومناعتها بأحسن مما كانت.

هكذا يسقط المكابرون من السياسيين، الذين لم يتعظوا بليونة السنابل، ضحايا عنادهم وإصرارهم على مواجهة الأعاصير السياسية الكبيرة، تلك التي تطيح بالرؤوس التي نسيت أنها من نسماتها خُلقت... وجدت، ليس إلّا.

إلى أصحاب النزعة التراثوية

الظل لا يصاحب الأشخاص الذين يسيرون في العتمة، إنما يصاحب الطالعين إلى النور، لتصير أفكارهم ظل وجودهم، فلماذا

يتظلّل ـ يتضلل وجودنا العقائدي بظل نورهم المنطفىء بانقضائهم؟ ولماذا نتفيأ بظل السابقين، ولا نتجرأ على الخروج إلى شمسهم ـ شمسنا، لنصنع ظلنا الذي قد لا يكون متطابقاً مع ظلهم.

فحرارة الشمس لم تعد هي نفسها، ونار نور عتمتهم ليست كنور مصابيحنا الكهربائية.

أمن حاجة للتوضيح أكثر؟

العلاج بالإيمان

من يطمح للامتلاء، ينزع إلى التشاؤم المهموم بغمّ قدره، ويبدو إنساناً ناقصاً ما لم يؤمن بوعود الديانات الممتلئة، بالذي يتحسّر على فقدان شبابه، بالذي يعاني من شقاء حياته، بالذي يتألم من موته المُرجأ، وفي هذه الحالة، الإيمان ذاك، أنجع من (البروزاك Prozac ولكزوتانيل Lexotanil) في علاج أمراضنا الوجودية تلك التي لن يشفى منها ورثة نيتشه أبداً.

فرادة الطموح للتميُّز

ما نوع اللذّة التي يشعر بها هواة جمع الطوابع البريدية، كما العملات القديمة؟

سؤال، تصعّب الإجابة عنه حتى على المعنيين بالأمر؛ ولربما كان

سرّ إعجازه من مبدأ المساءلة نفسها، كما لو أن الأفعال الإرادية للبشر مدركة بالتمام والكمال، بعلتها ومعلولها، لا التباس في أسبابها، ولا غموض في استهدافاتها، في حين تروم الأفعال كلها، بحسب شوينهاور، إلى الاتساق مع مبدأ إرادة الحياة التي تختلف وجوهها باختلاف أوجه مريديها وفق التحصيل الثقافي لكل فرد، والتكوين السيكولوجي لكل امرئٍ يسعى إلى الانفراد عبر التحوّل من الانشغالات الجماعية، كتلك التي تطمس فرادته، نحو اهتمامات جديدة ـ فريدة، تؤكد انفصاله عن الجماعة، عبر هوية، لا ترغب برغبات محيطه، ولا تأنس إلى ملذاته.

هكذا يطمع ويطمح العابرون في هذه الحياة إلى دمغ مدّة عيشهم ببصمة من «أناهم»، واحد بجمع الطوابع، وثانٍ بكسر الرقم القياسي في أكله للبيض المسلوق، وثالث بالخشوع إلى ما يحفظ له مكانة مميزة في العالم الآخر، ورابع... وخامس...، ومن لا يقدرعلى هذا من الباقين، ينجب ذرية صالحة تحمل اسمه ونسبه.

اقتناء أدوات العباقرة ترف سخيف

يطمح بعض الأثرياء إلى اقتناء الأدوات التي كان يستعملها عظماء التاريخ ولو بأسعار خيالية، باعتبارها تحفاً غالية، لما تحمله من مدلولات الصمود وقهر الزمن، ولما تحتويه بذاتها من فرادة الحفاظ على قيمة الإنجازات المرمّزة بسلاح «نابليون»، وريشة «ڤان غوغ»، وبيانو «شوبان». فالموت يضفي على أعمال المبدعين الكبار، طابعاً

قدسياً، لسبب وحيد، هو أننا نعيش مرات في حياتنا القصيرة، ونموت مرة واحدة فقط.

فنجد دوماً من يتلمس أثر المغمورين الذين عاشوا فقراء، وهم عظماء، ليتوّجهم التاريخ رواداً أغنياء، مما تركوه من إرث لم يُقدّر حق تقديره، قبل أن يذهب بهم القدر إلى حيث لا قدرة لهم على شكر الأحياء ممن اتخذوهم قديسين.

ولا نقصد الأغنياء، فهؤلاء لا يسرفون وقتهم ولا يبذلون مشقّة في تحصيل الأعمال الصعبة عليهم، إنما يتزينون بشهرة العظماء، لإشهار فحش ثرائهم، وإلا لماذا يسخون على شراء مقتنيات الأموات، ولا يبذلون الشيء القليل منه إلى مبدع حيّ، يحتاج في مشواره إلى عونهم الآن، في حياته، لا بعد مماته.

لغة العيون تفصح عما لا يقوله الكلام الفصيح

إذا كان لديك بصر وبصيرة نافذين، فلا تحتاج إلى وقت طويل، ولا إلى جهد كبير، لكي تستبطن أغوار زائرك، فتستكشف دفائنه المفضوحة من ملامح وجهه، وبالأخص من عيونه التي تأخذك خلف ما تخفيه نظراته السموحة، من خبث عند الابتسام، ومن عهر عند التودد.

وعليه، لا تجزع من النظرات التي تنفعل بالموقف، وأمن شر

النوايا المبيتة في العيون التي لا يرف لها جفن مطالبتك لصاحبها بشيء ما. وهذا ما أسماه أحدهم، لغة العيون بين المحبين، ولغة الاستكشاف لغيرهم.

التمثل بالعظماء لن يجعلك عظيماً

يتماهى بعض المتحاذقين بسيرة حياة المبدعين، فيتمثلون بأوقات الكتابة لا بأسبابها، ويقلدون نوم الكتَّاب وأكلهم، لكتابة نصّ، يستجدون مماثلته أو مطابقته مع ما نصه المشاهير الذين لم يحذّروا من آفة تقليد راحتهم، ولم ينبهوا إلى أن ما يريحهم قد لا يريح سواهم.

ومهما يكن، يبقى أن تمثل هؤلاء السخفاء لن يجعلهم عظماء.

حياة واحدة لا تكفي لإنجاز ما يريدونه منها بنا وما نريده منها لنا

تعاستنا نحن البشر، ليس من معرفتنا بأننا ميتون لا محال، بل من أننا، ونحن كذلك، علينا الالتزام بممنوعات كثيرة ومحذورات أكثر في حياة، لا تكفي وحدها، لكي ننجز ما يريدونه منها بنا، وما نريده منها لنا، أضف إلى أن التفكّر بشروط قبولنا كأسوياء صالحين، والانهمام بتأمين مستلزمات العيش مع الجماعة، ستسلب منك حرية الطيران،

وتحرمك من تلبية رغبات الحيوانات، السعيدة بنعمة تحرّرها من نقمة عقلنا المشؤوم.

ضعف الأقوياء وقوة الضعفاء

قويّ الشخصية ليس كذلك، إلا لأنه أتقن الدور، فعرف كيف يتمظهر ضعفه قوياً أمام الضعفاء، لتجد عند كل صاحب عزيمة، ثمة تردّداً وخوفاً من الإقدام على ما يجهله، كما تجد عند الخجولين الضعفاء، حزماً مدهشاً في اقتحام ما لا تحسبه في شخصهم، فالظروف والحيثيات هي التي تجعل من هذا الشخص بطلاً أوقات الشدة، وجباناً في بعض المحن، مثلما يصير أحدهم قائداً على من لا يبادر في اتخاذ قرار، هو أصوب ربما، من قرار رئيس تمرّس في تبرير أخطائه بثقة مستمدة من ضعف الآخرين.

لهذا يحتاج (القوي فينا) إلى إفراغ شحنات ضعفه من حين لآخر، بصمت العارف لمحاذير إشهار ضعف، يجب أن يخفيه باللجوء إلى حضن أمٍّ علمته، أو أب ربّاه، حتى يستكمل دوره الرئيس على المسرح.

الحقيقة الضائعة

الحقيقة... الحقيقة... ومن ثم الحقيقة...، كانت هي الشغل

الشـاغل لفلاسـفة الإغريـق، فمـا كان منهـم، إلّا أن بشَّـروا بتشـذرها؛ عند سـقراط فـي طهـارة النفـس البشـرية، وعنـد أفلاطـون فـي مثـال عالـم مغايـر عـن عالمنا، وعنـد أرسـطو فيمـا وراء ـ فيمـا هـو أرقـى مـن أحاسـيس السفسـطائيين، تمامـاً مثلمـا حصرتهـا ديانـات الأنبيـاء والرسـل فـي الإلـه الواحـد الأحـد، وحولهـا الفلاسـفة الحديثـون إلـى عقـل ديـكارت وتعالـي كانـط، وجـدل هيغـل إلـخ...، إلـى أن أعادهـا الفلاسـفة المعاصـرون إلـى أصلهـا المتشـذّر بمـا لا يمكـن حصـره فـي نطـاق زمـن محـدد، أو مـكان معيّـن.

وباختصار، فمنذ أن هَامَ الفيلسوف اليوناني «ديوجين» مع مصباحه في شوارع أثينا، بحثاً عن الحقيقة في وضح النهار، بقيت هي مفقودة، إلى أن وجدها نيتشه، ربما في أحد الشوارع الأوروبية، متجسمة في الحصان الذي كان من جراء احتضانه، أن جنّ فغاب عنّا عقله، تاركاً لنا المسألة هذه معلّقة، وعرضة لتفسيرات وتأويلات، لم تنتهِ أو تتفق على ما آلت إليه حقيقة نيتشه، إلى الآن...!

ردّ على الماشي ضد الاستشراق التقليدي والاستغراب أيضاً

لـم نُخلـق شـرقيون، ولا مـن فـي الغـرب خُلـقَ غربيـاً، لا فـي قيمـه وتقاليـده ولا فـي عاداتـه، فالمسـألة هـذه تتعلـق بظـروف وحيثيـات، هـي

من خارج لون البشرة أو المعتقد الديني، أو وجهة المكان والزمان عند الشعوب كافة. إنها بداهات، قال بها معظم علماء الاجتماع أو المستشرقين الذين اعترفوا بها، عليهم ـ عندهم وأنكروها علينا ـ عندنا، فصدّقنا قولهم فينا في الردّ على بياضهم عبر سمرتنا، وعلى مسيحيتهم عبر إسلامنا، وهلمجرا...

في حين أن القضية سهلة، إذا ما استقرأنا علّة تخلّفنا من أحداث تاريخ، تتالت فيه تدخلات الغير في شؤون حياتنا، منذ أن انكفأ العرب، وتراجعوا إلى ما جعلهم متلقين منفعلين بما لا طاقة لهم على رفضه بالمطلق، ولا على قبوله بالكامل.

إذ إن الحضارات لا تتلاقح بالإملاءات القسرية، ولا يتطعم قديمها بجديد الجيوش المحتلة، لهذا، أصيبت مجتمعاتنا بعد كمّ من التدخلات، كتلك التي انتدب بها الفرنسيون والبريطانيون أنفسهم حكاماً لنا، باعتبارنا شعوباً قاصرة عن إنجاز التحول التاريخي في حضارتنا المترهلة.

لهذا أصبنا من جراء حكمهم بصدمة أقعدتنا عن المشي، فصار مثلنا كمثل الغراب الذي أراد أن يكرج كالحجلة، فتدرّب على ما ليس له، فاختلط مشيه وتفكّك، وصار أقبح الطير مشياً.

لهذا، لا حداثة كرّاج الحجل، نجحوا في التحديث، ولا غربان التراث، استطاعوا إقناعنا بضرورة المشي على نحو ما سار عليه القدماء.

فالتحدي يبقى رهن مصالحة صعبة بين رجلي دعاة الحداثة والتراث، لكي نمشي مشيتنا، عندها تعود الحال إلى ما تبتغيه أحسن الأحوال.

غرق العشق

من يدخل في تيه العشق، يفقد رشد عقله، حتى إنه قد يرتكب ما كان يستفظعه، قبل أن يغرق في بحر عشق، ليس هو كذلك، ما لم تشدنا أمواجه إلى حالة قرينة بغيبوبة المنتشي في غرقه.

فالغريق لا يستطيع أن يُنْقِذ نفسه، بعد أن أعماه تلاطم التيار المائي ـ الهوائي عن رؤية نفسه.

حكمة الكهل نيتشوية

أياً كانت ثقافة الشيخ الطاعن في السن، ومهما كان مستوى وعيه، نجد أن تعامله مع الأمور المعقّدة بحكمة المتفهم الصبور والهادىء، حيال قضايا معقّدة تستنفر حميّة الصغار، ليست مستمدة من خبرته الطويلة فحسب، بل من رخاوة جسده وعجزه عن الإقدام على ما يتحمّس له الشباب، أصحاب العضلات المفتولة، والهمم المشدودة إلى ما ينأى عنه العقل، فتجزمه القوة.

فالكهل، لا يجد في حماس الشباب سوى مقامرة ـ مهاترة على حياة كاملة، يجب ألا توزن، برأيه، بميزان الثأر من أجل الشرف والتضحية، أو من أجل الكرامة، وما إلى هنالك من وصفات أخلاقية، أدرك هو بعد طول مراس، طبيعتها الفارغة، كحشو مضاف على حياتنا القصيرة.

مُصيبة من أصابته عاهة بعد عافية

من أصابته عاهة جسدية دائمة، بعد أن ذاق طعم عافيته، ليس كمن خُلق بها، سيعيش حتماً مرارة مضاعفة على خسارة ما كان يملكه، وألماً من فقدان نور المبصرين أمام الأعمى، أو حسرة على ما يتبختره أصحاء المشي أمام الأعرج، أو حنقاً على ما يستدل به المتكلمون في حضرة الأخرس، أو... أو... حيث تتكدّر حياته، كغمّ فقدان الأم لابنٍ، لن يعيدها إلى الفرح ابن ثانٍ ولا إلى الغبطة نفسها تلك التي كانت أصح، فيما لو لم يبتر القدر جزءاً من فلذة كبدها.

فإذا كانت الأم كذلك، فكيف بملكية صاحب المصلحة المباشرة والرغبة المفرطة في أن يحيا من دون حاجة إلى استعطاء مساعدة، بعد أن خبر نوع الشفقة على المحتاجين؟؟

بؤس الفلاسفة

تضفي المأساة معنى على ملهاة البشر، لتبدأ معها لعبة الطمع في الحفاظ على ما لا يملكه أي من الأباطرة والمستبدين، في الطموح إلى تأبيد ما لا يتأبّد؛ فالانشغالات التي يعتمر بها الناس أرضهم، فيها كرّ وفرّ، وخسارة وربح، وألم وفرح، وحسرة وتشفٍّ، وكل ما من شأنه وصف سيكولوجيا الحالات المتغيرة بتغير الأحوال، وبذلك، ننتصر بأوهامنا الطامحة والطامعة على حقيقة العدم.

لهذا، كان الألم الذي يعتصر قلوب المفكرين والفلاسفة، هو من بؤس هزيمتهم أمام ملهاة اللعبة، هذه، أو بالأحرى من افتضاحهم لنهايتها المأساوية.

مذاق الألم من طعم التفكير

للألم ألوان متعددة بتعدد أنواع البشر ومستوياتهم، فالألم الناجم عن عدمية نيتشه، ليس هو نفسه ألم المجروح من طعنة صديق، كما أن الوجع الوجودي لألبير كامو، لا يمكن أن يُقاس على الوجع الذي قد يُصيب المؤمنين جميعاً؛ مثلما أن هموم راعي القطيع الذي غطّ في نوم عميق على التو، تحت ظل صنوبرة أمامي، لا يتماثل مع الأرق، أو القلق الذي أيقظني وحثّني على كتابة ألمي.

فشل التسويات الطويلة

من المعروف أن الزواج عبارة عن تسوية صعبة (رغم أنه يتمّ أحياناً بعد هيام عشق، أذاب فيه الحبيب نفسه بالمحبوب)، فهو إذاً، شراكة بين طبعين ومزاجين اثنين، لا يتطابقان، مهما اتفقا، أو مهما ادعيا الاتفاق الكلي على مسايرة بعضهما البعض، إن لناحية تنازل أحدهما عما لا يرغب به الآخر، وإن لناحية تمرير الآخر لما لا يؤنس الشريك، تواطؤاً من أجل مبادلته «التطنيش» نفسه.

ولأن المسألة لا تعدو كونها دمجاً أو شراكة طوعية، قبل الزواج، وقسرية بعده، غالباً ما تجنح الشراكة تلك نحو صراع، سينتهي حتماً إلى غالب ومغلوب، لما لأحدهما من قدرة محدودة على الصبر والمهادنة، وغالباً ما يكون الرجل هو من ينفذ صبره إمّا بالانفصال (الطلاق)، وإما بالتسليم لامرأة عندها من الجلادة والدهاء ما يكفي لكي تتوجّه ملكاً أو فحلاً على كرسي قراراتها هي!

سعادة نيتشه وجدها زوربا؟

السعادة ليست متوافرة على أرض تدفن أجسادنا في جوفها، ولا هي موجودة في حياة تنتهي بمأساة موتنا المحتّم، هكذا هي السعادة في عرف نيتشه الذي غمره الشؤم في حياة كدّرها القلق من موته، قبل موته؛ لهذا، راح يبحث عما يخفّف من حقيقة العدم، أو اللامعنى في حياتنا،

عبر تفكيكه أوصال سعادتنا بالذي نحن فيه؛ فخلص هو إلى جنونه هذا الذي دافع فيه عن معرفته بالذي لم يعرفه الأصحاء أو الأسوياء؛ حتى إن جنونه كان ربما علاجاً لاإرادياً، لمسببات ألمه الآخذ بالازدياد مع كل كشف أو فضح للأوهام المحيقة بحياتنا الاجتماعية كلها.

ولعله وجد ضالته أو سعادته المنشودة في الجنون ذاك، فتركنا نحن أصحاب الأحاسيس المفرطة، عرضة لما قد لا يشفيه جنون أنعم اللّه به عليه وحده.

لهذا حثّ، «نيكوس كزنتزاكيس» نفسه على النفاذ من قبضة الألم النيتشوي، عبر كتابة رواية مسلكية لـ «زوربا». الإنسان الهائم على وجه الأرض من دون أهداف محدَّدة، لكنها تحدِّد المعنى المتمثل بضرورة التفلّت من كل الكوابح التي تعيق الهروب من سعادة ذواتهم، إلى ما أنت فيه، إلى ما تبتغيه سعادتك أنت، رغم أنك قد لا ترضيهم أبداً.

«تعليق»

تلفّظ سكران بتعليق ساخر على ما كان «يتناوش» أو يتشاجر عليه بحدّة اثنان من المختلفين حول أحقية مرور أحدهما في أرض الآخر، فبينما كان الصراخ يعلو والنفوس تُشحن، تَدَخّل مُصلح ثالث بالسؤال: على ماذا كان هذا؟ فردّ المُنتشي بسكرته جانباً، «على فريز».

وهـذا تهكـم «زوربـي» (نسـبة إلـى زوربـا) يحمـل فـي طياتـه سـخرية

نيتشوية من كل اهتماماتنا بالذي لا يستوجب الغضب على ما لا نملكه.

الضربة القاضية عبر الشفقة

إذا كان لا بدّ من أن تنتقم من عدوّك اللئيم، أمامك سبيلان: إما أن تسدّد ضربة قاضية وليست موجعة، لتتأكد من بعدها بأنه لن يتعافى، لئلا ينقلب عليك ثأره، بعد المعافاة بقوة مضاعفة، وإما أن تنهي وجوده عبر مساعدته، أو عرضك لمساعدة حاله الضعيفة، كتلك التي عرضتها لكي تُستَعْطَف قوتك، وهذا ضرب شفقة أكثر حزماً وعزماً من الضرب.

الأم امرأة أيضاً

من ماتت أمّه فجأة قبل أن يردّ لها جميل احتضانها، أو رعايتها له، ستبقيه أسير حبل سرتها حتى يوم مماته، لسبب وجيه يشعر به، ولا يعرفه أيتام الأم، فهؤلاء لم يتح لهم القدر فرصة النظر الموضوعي إلى ما يتلطّى وراء رعاية الأم من رغبة مفرطة في امتلاك الابن، كما لم تسنح لقاصر اليد والحيلة النظر إلى ما في كل أمّ من امرأة خاطئة ـ أنانية ومنحازة وكل ما يعتري النساء المتزوجات، ما عدا التي محاها الموت، ليبقيها أماً فقط.

في حين، قد تصير امرأة كباقي النساء، فيما لو بقيت حيّة ترزق إلى مابعد زواجه.

لهذا، يعاني أيتام الأم من خطب ما، في عشقهم لأيّ امرأة أخرى، وكي لا تُضَيُّعك التقديرات، أمّي ليست منهنَّ.

التجربة علم فطري

لا يدرك المرء قيمة ما يخسره، إلّا بعد أن يخسر، هكذا يصير الكبار حكماء، والطاعنون في السن مفرطين في الحرص على توفير ما يكفيهم، لئلا تدفعهم الحاجة إلى استعطاء مساعدة، حتى من أقرب أقربائهم.

الحلّ في الانتماء

العشق علاج فعّال لتأجيل الأزمات الوجودية تلك التي يعاني مرارتها الواقفون بعيداً عن حلبة المعمعة اليومية، هؤلاء المتفرجون على ما يحتفي به المحبون في عيد زواجهم ـ ميلادهم ـ عشقهم ـ لقائهم الأول ـ قبلتهم الأولى ـ اليوبيل الذهبي لزواجهم والنحاسي أو الحديدي، وما إلى هنالك من مناسبات اخترعها البشر، لتمديد أمد المشاركة والاحتفال الألطف من فردانيتنا المشؤومة.

حتى ولو لم يكن هذا مقنعاً، فأرده، علّ في ذلك شفاء من عللك الوجودية.

لذا، عليك أن «تشمّر» عن ساعديك، وتدخل في «اللت والعجن» حتى تنسى، عندها تنجرّ فتنجرف في مسار القطعان، لتستلب إلى هموم ليست بسخيفة، إذا كانت تُخرجك من همّ التفكير بأنك لست بشيء.

الذاكرة داء ودواء

ماذا تشعر إذا ما فقدت الحاسة التي تعيدك إلى أيامٍ خلت؟ بالتأكيد لن تتحسّر على ماضٍ مرير؛ كما لن تعيش ألم الحاضر ولا قلق المستقبل، ولربما ينطفىء فيك مكمن الوجع كلّه.

الوسائل غايات ليس إلّا

كم من وسيلة كانت هدفاً؟؟ لا تسأل شيوعياً مات بنضاله ليكون، ولا مؤمناً ذاب في صلاته، فمات ليحيا.

خدمة تقنين الطاقة

يستنفد المبدع طاقاته كلها بقوة، لخلق ما لا يقدر عليه عامة المهمومين بالواجب الاجتماعي، أو الحرص الأخلاقي، وكل ما من شأنه تقنين طاقة البشر في الرقابة على أفعالهم.

أما المبدع، فلا يُقنن طاقته بالتأني إياه الذي يغذّي البشر بحياة مديدة ـ هنيئة ـ مطمئنة، إنه من صنف الأشخاص الذين تذوي حياتهم، إذا انطفأ الشغف.

لهذا ينتحر بعضهم، ومن لا يحبّذ هذه الوسيلة من بعضهم الآخر، يلجأ إلى الجنون..."

المحتويات

سيرة حياة نيتشه مليئة بالمواقف غير الاعتيادية، كتلك التي لا يألفها البشر العاديون.

السؤال: ألهذا الحدّ كانت تجليات سلوكه صادقة في التعبير عن فلسفته؟ أم أنه كان مستلباً في ممشاه غير الاعتيادي إلى ما قالته فلسفته غير المألوفة؟

جدليةٍ ماركس قالت بالمسؤولية المتبادلة بين المسألتين، أما هو، فمات مجنوناً...!!

د. نديم نجدي، كاتب وروائي لبناني.

- أستاذ مادة الفلسفة في الجامعة اللبنانية.

صدر له:

- بيان الأطياف، دار الفارابي، 1998.
- إضاءات نيتشوية (ما قبل الكلام... وما بعده) طبعة أولى، دار الفارابي، 2002.
- أثر الاستشراق في الفكر العربي المعاصر، دار الفارابي، 2005.
- خفايا ساطعة بين ما نريده وما لا إرادة لنا فيه، دار الفارابي، 2008.
- يوم أشرقت الشمس من الغرب، (رواية) دار الساقي، 2010.
- تقلبات رجل موسمي (رواية)، دار الفارابي، 2011.
- جدل الاستشراق والعولمة، دار الفارابي، 2012.
- اضاءات نيتشوية (منسيات فاضحة)، دار الفارابي، 2013.

ISBN 978-9953-71-869-9

